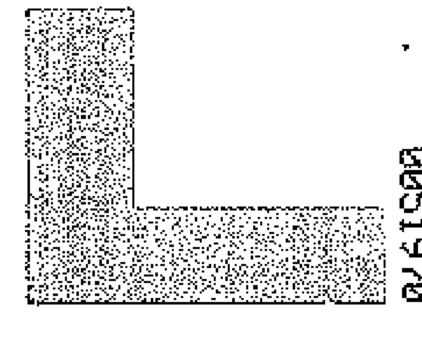
تاريخ المصريين ١١٣

الزبير باشا ودوره في السودان
في عصر الحكم المصري

د. عز الدين إسماعيل







تـــاريخ المصـــريين (١١٣)

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



الزبير باشا ودوره فى السودان

فى عصر الحكم المصرى

د. عز الدين إسماعيل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
١٩٩٨

تقـــديم

يسرني أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب عن « الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري » ، للدكتور عز الدين اسماعيل ، وهو في الأصل رسالة علمية حصل بها صاحبها على درجة الماجستير • وبالتالي تتوافر فيه الشروط العلمية التي تجعل منه دراسة تاريخية جديرة بالقراءة •

وهو ينقسم الى خمسة فصول قدم لها الدكتور عز الدين اسماعيل بمقدمة تحدث فيها عن الزبير باشا والأصول الأولى لأسرته حتى مولده في عام ١٨٣١ عندما كان السودان خاضعا للحكم المصري •

وفي الفصل الأول ، وهو بعنوان : « بداية ظهور الزبير رحمه في السودان » ، تحدث عن عمله بالتجارة ، وذهابه الى بلاد النيام نيام (النمانم) ، ومقابلته للملك كريم ، ونزاعاته مع ملوك البلاد التي زارها • أما الفصل الثاني ، فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير باشا في بحر الغزال وبلاد شكا ، وتعرض لموقف حكومة مصر من تجارة الرقيق في السودان ، وتعيين غوردون حاكما لعموم السودان ، والتفكير في ضم بحر الغزال ، وحملة محمد البلالي لاخضاع اقليم بحر الغزال • كما تعرض للصراع بين الزبير ومحمد البلالي حتى قتله في سنة ١٨٦٩ ، واستتباب السيطرة له على بحر الغزال ، وقيامه بتنظيم أمور مديرية بحر الغزال ، ودور الزبير في فتح شكا وتأديب عرب الرزيقات • كما تعرض لتعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا في عام ١٨٧٣ •

أما الفصل الثالث ، فقد تعرض فيه للدور الذى لعبه الزبير فى فتح دارفور ، والأسباب التى ادت لغزو سلطنة دارفور ، وأسباب النزاع الذى نشأ بين الزبير والسلطان ابراهيم ، وشكوى سلطان دارفور للخديو من حركات الزبير وحكمدار السودان ، وتعرض للمعارك الحربية بين الزبير والأمير حسب الله ، وهزيمته لجيش الأمير حسب الله . كما تعرض لحملة الشرق بقيادة الحكمدار إسماعيل باشا أيوب ، وموقعة منواشى ، ودخول العاصمة الفاشر . وعقد موازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق فى فتح دارفور . كما تعرض للخلاف بين الحكمدار والزبير ، ووقوع الزبير فى خطأ الذهاب الى القاهرة لعرض الخلاف بينه وبين الحكمدار ، حيث قضى بقية حياته كضيف شرف لدى الخديو ! .

أما الفصل الرابع ، فهو بعنوان « الزبير ــ جوردون » ، وقد تحدث فيه عن الدور الذى لعبه الزبير فى الحرب الروسية التركية ، وثورة سليمان الزبير ومقتله ، والأهداف التى اعقبت مقتل سليمان ابن الزبير ، ورفض الزبير الاشتراك فى حملة سواكن . كما تعرض لحوادث اخلاء السودان ، واجتماع الزبير وجوردون فى القاهرة ، واقتراح جوردون اعادة استخدام الزبير فى السودان ، وفشل هذه الفكرة ، وما ترتب على فشلها من نتائج . وانتهى بنفى الزبير الى جبل طارق سنة ١٨٨٥ .

وقد اختتم الباحث دراسته بفصل خامس تناول فيه الزبير باشا وصحته فى نهاية حياته .

والكتاب على هذا النحو يعد دراسة ممتعة لصفحة من صفحات الحكم المصرى فى السودان جديرة بالقراءة .

والله الموفق ..

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

الزبـــير باشـــا

المقـــــــدمة :

أهملت المصادر التاريخية حلقة مهمة فى سلسلة تاريخ أسرة الزبير ، فلم يذكر المؤرخون شيئا من أصولها الاولى ، أو موطنها الأصلى . بل كان الغموض هو الواجهة التى أحاطت بأصـــولها الاولى . وقد يكون هناك من الأسباب ما جعل المصادر التاريخية تهمل تاريخ هذه الأسرة . وهى على وجه التقريب عدم استطاعة مؤرخى العصر آنذاك التنبؤ بما سوف يكون عليه بعض أبناء هذه الأسرة من شأن فى المستقبل . وقد تناول بعض المؤرخين الفترة التى عاشتها هذه الأسرة أيام الاضطرابات التى حدثت بالعراق على أيدى المغول وخاصة فى بغداد وهذه المعلومات لا تفى بالغرض المطلوب لتغطية تاريخ هذه الأسرة وحتى هذا الوقت يمكن القول بأن تاريخ أسرة الزبير مازال ينقصه حلقات كثيرة .

فبعد أن غادر هولاكو(١) حفيد جنكيزخان بلاد المغول فى سنة ١٢٥٣ م على رأس جيش جرار بقصد القضاء على طائفة الحشاشين(٢) ، وعلى الخلافة فى بغداد معا ، وهى الحملة الثانية

من حملات المغول ، ارسل هولاكو الى الخليفة العباسي المستعصم بالله (١٢٤٢ — ١٢٠٨ م)(٣) يدعوه للمساهمة معه في الحملة على الحشاشين وهى طائفة من فرقة الاسماعيلية ، فلم يلب الخليفة دعوته . وفي سنة ١٢٥٦ م تم للمغول احتلال عدد كبير من قلاع الحشاشين ، فتقوضت بذلك اركان هذه الفرقة من اساسها ، وبينما كان هولاكو يعبر المضيق الشهير على طريق خراسان ، وفي سبتمبر من السنة التالية ارسل انذارا الى الخليفة يطلب منه التسليم وهدم سور بغداد الخارجي ، فرد عليه الخليفة ردا مراوغا. ولم ينتظر هولاكو بعد ذلك بل هاجم اسوار بغداد في شهر يناير سنة ١٢٥٨ م ، واعمل فيها المنجنيق ، ففتح ثغرة فيها ولم يشعر الناس ببغداد الا ورايات المغول ظاهرة على سورها الداخلي من احد الابراج . وخرج الوزير ابن العلقمي للمفاوضة على الصلح ، الا أن هولاكو رفض مقابلته ولم يلتفت الى قول من كان يزعم « أن الحتف نصيب من يجرؤ على قهر مدينة السلام بغداد أو النيل من خلافة آل عباس » ، فلم يعبأ بشيء من هذا واستمع الى نصيحة منجمه . وفي العاشر من شهر فبراير اقتحمت عساكره المدينة ، فخرج الخليفة في ثلاثمائة من خاصته وقضاته خاضعين مسلمين دون قيد أو شرط ، وبعد ذلك بعشرة ايام امر هولاكو بقتلهم جميعا .

اخذ الفاتحون بعد ذلك في القيام بالمزيد من المذابح بين اهل بغداد حتى قضوا على اكثر سكانها ، ولم تستثن اسرة الخليفة نفسه من هذه المذبحة ، ولاول مرة في تاريخ الاسلام اضحى العالم الاسلامي دون خليفة يدعى له على المنابر في صلاة الجمعة .

تقدم هولاكو الى شمال سوريا في سنة ١٢٦٠م ، ففتح حلب، وفتك بخمسين الفا من سكانها ثم دخل حماة واتم الجيش الذي تركه في الشام فتح اكثر البلاد السورية(٤)، واعلن امراء سورية الصغار خضوعهم لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة ، أما المماليك في مصر،

فكانوا اول من وقف في وجه هؤلاء الغزاة وقفة موفقة . وكان المغول قد طلبوا اليهم الاستسلام ، فرد عليهم المماليك بهجوم شنوه على فلسطين ، وانزل المماليك بالمغول هزيمة حاسمة عند عين جالوت في ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م ، واستطاع المماليك والسلطان بيبرس خاصة تخليص سورية برمتها شيئا فشيئا من أيدي هولاكو وخلفائه . وكان الانحلال قد أصاب قوة المغول ، فلم يكن في وسعهم تدارك الهزيمة التي وقعت لهم على يد المماليك(٥) .

كانت تلك الفاجعة التي أصابت الخلافة الاسلامية ببغداد على أيدي المغول من المواقف العصبية المثيرة التي لفتت انظار المسلمين كافة ، واثارت فيهم روح الانتقام لما اصاب خلافتهم .

وفي وسط هذه الأحداث الجسام قدر لعدد غير قليل من المسلمين من أهل العراق الفرار طلبا للنجاة بحياتهم وذويهم من المذبحة المروعة التي تمت في بغداد على يد هولاكو التتري ، وكان من بين هؤلاء الفارين الشيخ جموع بن غانم الجد الاكبر لاسرة الزبير ، الذي استطاع أن يفتدي حياته بكل ثروته ، وكانت تزيد على مائة الف دينار ثم لم يلبث أن خرج بنسائه وأولاده وحاشيته قبل أن ينكث المغول بعهدهم له تاركا وراءه بغداد المحترقة ، وولى وجهه شطر الشام فرارا من المغول ، ومن الشام مضت قافلة الشيخ جموع بن غانم نحو مصر . وفي مصر حاول الشيخ أن يستعيد ماضيه ، فيلقى من المصاعب ما يضيف الى شيخوخته والى الأهوال التي لقيها في الطريق عبئا ثقيلا لا يلبث أن يسرع به الى القبر ، يرث الابن وكان يدعى جميعا تركة أبيه المثقلة بالاهوال ويزيد عليها ما كانت تعانيه مصر في تلك الآونة من اضطرابات وفتن ، عقب تولي الملك المعز الحكم بعد اقصاء شجرة الدر(٦) عنه، وما صاحب ذلك من صعوبة العيش وقسوة الحياة ، فلا يلبث الابن أن ينحدر مع أهله وعشيرته ومن آثر الانضمام اليه مع النيل نحو الجنوب(٧) .

استقر افراد عائلة الشيخ جميع على جانبى النيل الابيض بينما شق الآخرون طريقهم الى دارفور ، واقليم واداى(٨) . وبين كثير من الاسر والعشائر التى انتشرت على طول وادى النيل ، والتى كان بعضها ينحدر من سلالة القبيلة المعروفة بالجميعاب ، التى ترجع اصولها الاولى للجد الاكبر جميع كما سبق الذكر ، هؤلاء الناس وضعوا رحالهم واستقروا على النيل بين جبل جيرى وجبل الشيخ الطيب(٩) واصبحوا مشهورين فى ارجاء السودان ، وذلك بسبب شجاعتهم واخلاصهم الروحى(١٠) .

لم يكن السودان منطقة مغلقة عبر عصور التاريخ امام هجرة القبائل العربية او غيرها سواء عن طريق شبه جزيرة العرب من ناحية الشرق ، أو عن طريق مصر من جهة الشمال ، بل كانت المصب الذى تحط فيه تلك القبائل المهاجرة رحالها سواء فى شمال الوادى أو فى جنوبه . وينطبق هذا على قبيلة الجميعاب كما ينطبق على بقية القبائل . وقد وجدت قبيلة الجميعات فى بيئة السودان الجديدة ، ما ذكرها بمواطنها الاولى الاصـــلية ، بل وجدت فى مراعيها ما لم تجده فى مصر من مراع كافية . وكان فى انبساط سهول السودان ، فضلا عن انتشار الدعوة الاســلامية بها ، وتسامح الاسلام ، مما ساعد على استقرارها واســتقرار هذه القبائل(١١) . هذا بالاضافة الى ما لقيته بعض القبائل من الاضطهاد فى مصر ابان العصور السياسية ذات المذاهب الدينية المختلفة ، التى تنازعتها منذ الفتح العربى لها مع اتصال أسباب التجارة بين الســودان وما جاوره من الممالك العـــربية ، وما ينجم عن هذا الاتصال من الالفة والمودة التى قد تبلغ حد المصـــاهرة والاقامة والاستقرار فى هذه الربوع(١٢) .

وللحديث عن تاريخ أسرة الزبير منذ مقدمها الى السودان حتى مولد الزبير لابد أن نتناول الاصول التى انفصلت عنها هذه

الاسـرة ، فالأصل هي قبيلة الجميعاب ، ومما يلفت النظر أن في السودان خمس قبائل على الاقل ، اشتقت أسماؤها من الاسم الاصلي جميع الذي يعني بالانجليزية ـــ Gather or collect ـــ وهي التي تدعي الانتساب الى المجموعة الجعلية . وهذه الأسماء هي الجوامعة (المفرد جميع) ، الجمعة ، الجموعية ، الجماعات ، الجميعاب . والصلة التي تجمع بين هذه القبائل الثلاث الأخيرة تتمثل في انهم ينحدرون من اشقاء ثلاثة . أما الاقليم الذين كانوا يحتلونه حينئذ فهو بالفعل الاقليم الذي يمتلكونه في الوقت الحاضر، ويمتد على الشاطيء الغربي للنيل الابيض بمسافة من ٣٠ الى ٤٠ ميلا جنوبي ام درمان(١٣) ـــ Omdurman ، ولابعد من جوز نفسه ـــ Goz Nefisa بالقرب من خانق سبلوقة ـــ Shabluke ، وكذا أراضي جنوب كرري ـــ Kerri على الضفة الشرقية للنيل . وكان لهذه القبـائل دائما النفـــوز والغلبة . أما قبيلة الجميعاب ـــ Gimiab ، فهي تنحـدر من المجموعة الجعلية بالسودان كما ذكرنا والجميعاب نصف رحل وينقسمون الى :

(أ) شـاهيناب ـــ Shahinab ومنها جماعة ناماباب ـــ Naamabets .

(ب) جوداب ـــ Godab

(جـ) شيبراب ـــ Shibrab

والى جماعة النامابات ينتسب الزبير رحمة(١٤) .

وقبيلة الجميعاب من اشهر قبائل العرب في السودان على النيل الأبيض ، ويسكنون بين عقبة القرى والشيخ الطيب(١٥) .

وقد عرفت بقبيلة الجميعاب نسبة الى جميع أما نسبة الزبير فهو الزبير بن رحمة بن علي بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر

ابن شاهين بن جميع بن جموع بن غانم العباسى ، التى قدر للزبير أن ينحدر من أصلابها . وهناك شيئان اشتهرت بهما هذه القبيلة من بين القبائل كلها وهي الشجاعة وحماية الذمار ، ثم المسارعة الى الترحيب بالحكم المصرى عندما دخل السودان اسماعيل باشا نجل محمد على باشا سنة ١٨٢١ م فاتحا ، فاستقبله أعيانها بالترحاب ، وعاهدوه على الولاء ، وكان من بينهم الشيخ رحمة والد الزبير ، وأخوه فحفظوا العهد ، وقاموا على صيانته الى أن وافاهم الأجل ، وحفظ الولاء لهم من بعدهم الزبير(١٦) .

جاء مولد هذا الزعيم السودانى فى فترة كان فيها السودان خاضعا للحكم المصرى فى عهد محمد على الذى كان قد قام بفتح هذه البلاد سنة ١٨٢١ م ، وكان من طبيعة هذا الفتح أن أضفى على الجزء الذى تم فتحه من السودان بعض الهدوء والاستقرار .

ففى صبيحة السابع عشر من شهر محرم سنة ١٢٤٦ هـ الموافق الثامن من يوليو سنة ١٨٣١ م فى جزيرة واوسى الهادئة الخضراء ، التى تقع على أربعين ميلا شمالى الخرطوم ، ولد الزبير رحمة . وفى هذا اليوم جلس والده رحمة بن منصور يستقبل الأهل والأصدقاء الذين حضروا لتهنئته بمولد ابنه الزبير .

وفى ربوع هذه الجزيرة قضى الزبير سنى طفولته المبكرة فى اللهو البرىء ، والانطلاق الحر الذى لم يكن يقيده غير صوت أمه وهى تعتب عليه كلما عاد الى منزلهم الواسع متعبا من العدو واللعب مع رفاقه من الصبية ، فيجاوبها عندئذ صوت أبيه الهادىء ، وهو يقف فى صف ابنه مدافعا عنه أمام صوت أمه المعاتب رافعا يديه الى السماء يستجديها من أجل ابنه مستقبلا حافلا سعيدا .

وقد تأثرت نشأته وطفولته المبكرة الى حد كبير بالبيئة التى ولد فيها ، وبالرفاق الذين اختلطوا به ، وبسماحة والده وحرصه الشديد على حياته ، وخاصة والدته .

وقد بدأ الزبير حياته العلمية بعد أن بلغ السابعة من عمره ، أرسله والده الى مدرسة الخرطوم لتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، فأتم ذلك . وفى المدرسة تعلم الكثير(١٧) وكان حفظه للقرآن على رواية أبى عمرو البصرى ، وتفقه على مذهب الامام مالك(١٨) الذى لقى انتشارا واسعا فى القارة الافريقية .

وبهذا القدر القليل من الدراسة اختتم الزبير حياته الدراسية، وبدأ والده يوجهه لتعلم المهارات الشائعة فى عصره ، التى كان لابد منها لكل من شب عن الطوق ، حتى يستطيع مواجهة ظروف البيئة التى يعيش فيها ، وكانت أول هذه المهارات هو تدريبه على ركوب الخيل وكافة ألعاب الفروسية ، وقد حذق كل ذلك وأتقنه ، حتى صار له فيها شـــــأن لا يجارى . ولما كان من عادة القبائل العربية أن يتزوج الشـــاب من أحدى قريباته ، فقد تزوج الزبير عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره من ابنة عمه ، وكان هذا الزواج بداية لاســـــتقرار حياته . وأخذ يمارس التجارة لتكون موردا لمعيشته ، وخيل له أنه قد انتهى من تحديد أمر مستقبله كما يريد ويختار(١٩) .

وقد كان عمله فى التجارة ، وزواجه من ابنة عمه بداية لمرحلة جديدة فى حياته ، فقد كان الزبير يعقد على اشـتغاله بالتجارة آمالا كبيرة من ناحية الاستقرار والكسب المادى الذى يضمن له حياة مطمئنة بعض الشيء ، الا أن الاقدار رسمت له طريقا آخر مخالفا للذى خطه لنفســـــه وكان هذا الطريق مملوءا بالمغامرة والاهوال ، ولم يكن باستطاعته أن يغيره أو يتجنبه .

وفى سنة ١٨٥٦ م ولم يكن قد مر على زواج الزبير أكثر من عامين ، دفعت به الظروف الى أن يذهب الى الجنوب ، وتبدأ خيوط هذه القصة عندما بلغه أن ابن عمه محمد بن عبد القادر قد

ارتحل الى الجنوب بعد أن التحق بخـدمة تاجر من تجاره يدعي عليا أبا عموري(٢٠) ، فجزع لسماع هذا الخبر لأنه لم يكن يتصور في يوم من الأيام أن ابن عمه يفعل ذلك ، ومن ثم وطد العزم على الارتحال الى الجنوب ليلحق بابن عمه كي يثنيه عن عزمه ويعود به من حيث أتى ولم يتردد بعد ذلك في الاسراع للحاق بهذه القافلة فأدركها عند ود شلعي(٢١) على النيل الابيض الى الجنوب من الخرطوم على مسيرة يومين منها ، وبدا له من اللحظة الأولى التي التقى فيها بابن عمه أن مهمته لن تكون سهلة أبدا ، فقد أبى أن يستمع لنصحه أو رجائه . واقسم الا يعود الى الخرطوم قبل أن يتم رحلته هذه . فاما ان يلقى ذويه غنيا مثريا ، واما أن يمضي في عداد الهالكين ، كان عنيدا جريئا ككل افراد آل رحمة ، غير أن الزبير مع هذا لم يفقد الأمل في اقناعه .

ومضى يستعرض امامه اخطار هذه الرحلة ، فلم يزدد الا تشبثا بها ، عندئذ نثر الزبير آخر سهامه واقسم له بالطلاق انه لن يعود الى الخرطوم الا وهو معه ، وانه ان لم يكف عن عزمه هذا ، فسوف يسافر معه الى بحر الغزال ، قالها الزبير ظنا منه ان ابن عمه لن يرضى بسفره معه وبتضحيته هذه ، فيضطر عندئذ للعودة الى الخرطوم ، ولكن هذا القسم الغليظ لم يجد معه وهكذا وجد نفسه بالرغم من كل ما بذله من جهد لاقناعه مضطرا في النهاية للبر بقسمه ومشاركته في هذه الرحلة ملتحقا هو الآخر بخدمة علي أبو عموري . وفي الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٥٦ م غادرت القافلة ود شلعي ووجهتها بحر الغزال ، وكان هذا هو الخيط الأول في القصة(٢٢) .

نرى مما سبق أنه بعد أن فشل الزبير في محاولته للتأثير على ابن عمه للعودة معه ، القى بآخر سهامه وهو قسمه بيمين

الطلاق أن لم يعد معه ، فسوف يتبعه فى رحلته . واذا نظرنا الى تلك الرواية نجد أن يمين الطلاق هذه هى من أشد الايمان واغلظها عند المسلم . اما من تاثيرها على ابن عمه فانه لم يبال بما اقسم به لانه كان قد وطد عزمه على الاستمرار فى رحلته مع ابن عمورى ، ويتضح من القسم الذى اقســـمه الزبير والذى وضح له فيه أنه لن يعود الى ذويه الا ثريا ، أو يمضى فى عداد الهالكين . وقد كان هذا اليمين هو الفاصل فى سفر الزبير مع ابن عمه كما كان السبب فى اشتغاله مع ابى عمورى واتخاذه التجارة مهنته الأساسية ، يضاف الى ذلك عامل حب الزبير لابن عمه وخوفه عليه من المخـــاطر والاهوال . ولم تكن الرحلة الى الجنوب سهلة ميسورة بل اتسمت بالقسوة والخشونة لما احاط بها من مخاطر واهوال الطريق .

واذا كان العناد من ابرز صفات الاسرة ، واتضح هذا العناد فى موقف ابن عمه — فان هذا العناد يتضـــح ايضا فى موقف الزبير ، فقد اقسم بيمين الطلاق لابن عمه على ضرورة العودة معه ، وحين رفض الاخير لم يجد الزبير امام عناده المتأصل بدا من ان يبر بقسمه ويتبعه فى رحلته . ولم يكن الزبير يملك شيئا تجاه تطور الاحداث على هذا النحو ، لذا فقد توجه الى الله بل بالدعاء ان يحفظه وابن عمه بفضله ورحمته ، وأن يردهم سالمين من هذه المخاطرة ، وقد استجاب الله لدعائه ، فبالرغم من كل الصعاب والأخطار التى لقياها ، فقد عادت عليه الرحلة باكثر مما كان قد توجه به الى الله فى دعائه ، فقد كانت هذه الرحلة سبب نجاحه وشهرته وما أصبح فيه من منزلة فى بلاده لم يصل اليها أحد من قبل . ولم تكن هذه الرحلة الاولى مع أبى عمورى سهلة ميسورة فقد دفعا فيها من النصب والاجهاد وتحمل المشاق ثمنا عسيرا منذ اللحظة الاولى التى التحقا فيها بخدمته(٢٣) .

وقد وصلت السفينة التي اقلتهما الى مشرع الرق(٢٤) وبدأ عملهما بعد ان التحقا بجماعة أبي عموري وسرعان ما اندمجا في البيئة الجديدة وكيفا نفسيهما بالوسط الذي وجدا فيه ، وبعد أعوام كانت شهرة الزبير كتاجر تفوق شهرة التجار الآخرين . وقد اكتسب صداقة الزعماء ، وأهل البلاد وصاهر ملك بلاد النيام نيام ، فعلا نجمه وسما مقامه(٢٥) .



هوامش المقدمة

(١) هولاكو (١٢١٧ — ١٢٦٥ م) : وهو حفيد جنكيز خان ، وجهه أخوه منكوخان المغولي الأعظم لاخماد ثورة في فارس سنة ١٢٥٦ م ، فعبر نهر جيحون ، فأعلن صغار الامراء في فارس ولاءهم له فلم ابان هذه الحملة بالقضاء على طائفة الحشاشين وقتل زعيمهم ركن الدين ، ثم واصل بعد ذلك حملاته حتى كانت هزيمته سنة ١٢٦٠ م في عين جالوت قرب بلدة الناصرة في فلسطين . أسلم هولاكو بعد هزيمته واتجه شرقا ، وقد عمرت أيلخانيته التي شملت بلاد فارس حتى سنة ١٣٣٥ م وفي هذه السنة قسمت الى خمسة أقسام .

(٢) الحشاشين : طائفة من فرقة الاسماعيلية دعت الى امامة نزار ابن المستنصر . ومؤسسها الحسن بن الصباح ، الذي انضم وهو حدث للدعوة الفاطمية وقد وفد على مصر في اثناء حكم الخليفة المستنصر الفاطمي ، وانضم الى مؤيدي امامة نزار ثم عاد الى ايران ، وبث دعوته فيها فالتف حوله كثيرون . وفي سنة (١٠٩٠ — ١٠٩١ م) استطاع أن يستولي على قلعة الموت الجبلية الحصينة واتخذها مقرا لدعوته ، ثم وجه اهتمامه للاستيلاء على قلاع أخرى والى التخلص من أعدائه . وقد تميز بتنظيم دقيق ، واتخاذ الاغتيال أداة يتخلصون بها من اعدائهم ، فكان يرأسهم السيد أو شيخ الجبل وهو صاحب الأمر والنهي ، ويليه الدعاة ، ويتلقون أوامرهم منه ، وينفذون تعليماته ، وينقسم الباقون الى مراتب حسب اطلاعهم على أسرار الفرقة، ومن أهم هؤلاء فئة الفدائيين الذين كانوا يغتالون الأعداء .

(٣) المستعصم بالله : (١٢١٢ — ١٢٥٨ م) آخر خلفاء الدولة العباسية بالعراق . ولد ببغداد وولي الخلافة ١٢٤٢ م في أشد أيام ضعفها ، اعتمد على وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي . تم للمغول الاستيلاء على بغداد في عهده ، ثم قتلوا سادتها ومقاديمها ، وأبقوا على الخليفة حيا الى أنْ أرشدهم على أماكن الأموال ، ثم قتلوه وبموته انقرضت الدولة العباسية في العراق .

(٤) فيليب حتي وآخرون : تاريخ العرب ج ٢ ص ص ٥٨٢ — ٥٨٤ .

(٥) كارل بروكلمان (ترجمـــــة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٦) شجرة الدر (ت ١٢٥٧ م) : تلقب بعصمة الدين ملكة مصر ، وهي من جواري الملك الصالح نجم الدين أيوب . اشتراها أيام أبيه وولدت له ابنه خليلا ، فأعتقها وتزوجها ، ذهبت معه الى الشام أيام كان متوليا عليها ، وكانت تدير الملك أثناء غيابه في الغزوات . كان خطها يشبه خطه ، فكانت تعلم على التواقيع . اخفت خبر موته أيام المعارك الناشبة بينه وبين الافرنج بالمنصورة ، وخطب لها على المنابر ، وسكت باسمها النقود . حكمت ثمانين يوما وخرجت الشام على طاعتها ، فتزوجت وزيرها عز الدين ، وتنازلت له عن السلطة مكتفية بالسيطرة عليه . طلق زوجته الأولى أم علي من أجلها ، ولكن لما اراد أن يتزوج عليها أمرت مماليكها فقتلوه ، ولكن زوجته المطلقة أم علي أمرت جواريها فقتلنها .

(٧) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ص ٦ — ١٠ .

(٨) واداي : سلطنة سابقة لشرق افريقيا الاستوائية قرب بحيرة تشاد . فتحت فرنسا واداي في القرن التاسع عشر الميلادي ، وفرضت عليها الحماية سنة ١٩٠٣ م ، وصارت منذ سنة ١٩٠٩ م جزءا من افريقيا الاستوائية الفرنسية . ومن عاصمتها يبدأ طريق القوافل الى بنغازي ، والى افريقيا الغربية . أهم معادنها النحاس والقصدير والرصاص .

(٩) جبل الشيخ الطيب : تجاه الشمانيات وهو مؤسس الطريقة السمانية في السودان ، وله قبة تزار واقعة في سفح جبل صغير يعرف بجبل أم مرحي الملقب بجبل الساطان نسبة اليه .

(١٠) Jackson, H.C. The black ivory and white P. S.

(١١) محمد محمود الصياد (دكتور) ، محمد عبد الغني سعودي (دكتور) : السودان ص ١٦٠ .

(١٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٧ — ٨ .

(١٣) أم درمان : تقع تجاه الخرطوم وغرب النيل في خط عرض شمالي ٣٨ ١٥° وخط طولي شرقي ٢٩ ٣٢° ، وقد كانت قبل ذلك بلدة صغيرة قائمة في سهل فسيح رملي لا شجر فيه وكانت محطا لرحال تجار الغرب قبل دخولهم الخرطوم . شيدت الحكومة بها مدة الثورة المهدية طابية استولى عليها المهديون في ٥ يناير

سنة ١٨٨٥م ، واحتل البلدة أنصار المهدى نفسه ، وعند وفاته دفن فيها ، فبنى خليفته عبد الله التعايشى قبة فوق قبره جعلها مزارا وجعل أم درمان عاصمة الملكة وسماها بقبة المهدى .

(١٤) Macmichael, H.A. : A history of the Arabs in the Sudan PP. 221 — 222.

(١٥) عمر رضا كحالة : معجم القبائل العرب القديمة والحديثة ج ١ ص ٢٠٦ .

(١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٠ .

(١٧) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ص ١٢ — ١٣ .

(١٨) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية ج ٢ ص ٦ .

(١٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٣ .

(٢٠) على أبو عمورى : من أهالى نجع حمادى بصعيد مصر ، ومن أوائل التجار الذين أسسوا مراكز تجارتهم فى خندكور وفرتيت ، وكون مع غيره من التجار شركات تملك الكثير من الزرائب فى كل من بحر الغزال وأعالى النيل ، وكان يتصف بأنه محدودب الظهر عديد النظرات قصير القامة .

(٢١)ود شلعى : وهى من مدن النيل الأبيض التابعة لمديرية الجزيرة وتقع على بعد ١٨ ميلا من القطنية وهى مرسى جيد للسفن .

(٢٢) سعدالدين الزبير : المرجع السابق ص ص ١٤ — ١٥ .

(٢٣) مشرع الرق : وهو مرفأ على بحر الغزال تستطيع السفن أن تتجاوزه جنوبا ، والمشرع أماكن للتجارة على شكل مربع من عروق الاشجار يقيم فيها التاجر أو وكيله ومعه بعض الحراس للدفاع ولجلب الرقيق وقد دفع الخديوى اسماعيل تعويضات لاصحاب المشرع ليتخلوا عنها للحكومة .

(٢٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٦ .

(٢٥) عبد الرحمن زكى : اعلام الجيش والبحرية فى مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٤ .

* * *

الفصـــــل الاول

بداية ظهور الزبير رحمة فى السودان

بداية ظهور الزبير رحمة فى السودان

تمهـــــيد :

تحرك الزبير رحمة للحاق بابن عمه محمد بن عبد القادر فى الجنوب خوفا عليه من مخاطر واهوال الطريق بعد فشله امام عناده على الاستمرار فيما اعتزم عليه ، وكان ذلك التحرك من المواقف ذات الأهمية في تغيير مجرى حياته ، وقد كان من الجائز أن تفسد عليه هذه الحادثة حياته ، ولكن صبره وعناده واستعداده العقلى كان يدفعه الى الامام فى ســـــبيل ما أرادته له الاقـدار كافة الوان المخاطر والاهوال التى تكتنف الرحلة الى الجنوب ، وكان هذا بداية لتاريخ حافل فى حياة الزبير مملوء بالاثارة وحب المغامرة ، وكان العمل فى الجنوب أيا كان نوعه يعتبر فى حد ذاته خطرا على من يمارسه ، ويحتاج الى الرجل الذى لا يهاب المضى قدما فيما فرضه عليه الواقع من ضرورة وجوده فى هذه الأصقاع النائية . ولم يكتشف الزبير فى نفسه هذا الا بعد أن صمد للكثير من التحديات التى واجهته فى رحلته مع ابن عمه والتاجر على ابو عمورى بجنوب السودان(١) .

بدأت رحلة الزبير الاولى الى جنوب السودان فى ١٤ محرم سنة ١٢٧٣ هـ الموافق ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦ م حينما غادر ومن

معه قرية « ود شلعي » وهو يدعو الله أن يضفي عليه من حمايته ورعايته في هذه الرحلة التي توقع منها المخاطر والأهوال ، ولكنها كانت السبب الأول في تقدمه وشهرته في مجال التجارة . ومن خلال هذه الرحلة وصل الى القمة الى لم يصل اليها أحد في بلاد السودان من قبل .

كان الزبير متخوفا جدا من هذه الرحلة ، ولم يصبح أهلا لهذه المكانة التي وصل اليها الا بعد شدة وخطب عظيمين لقي خلالها الكثير من صنوف المتاعب ، وبعد أن عمل في جو مصحوب بالضيق وضنك العيش وليس غريبا أنه عندما الحق نفسه بالعمل عند علي أبي عموري ، كان في ظروف معيشية سيئة أدت بهذا الرجل الى ان يعامله بفظاظة ، ولم يكن ليعطيه من الكعك المصنوع من الدقيق الجيد ، ولا من اقداح القهوة ، ولا حتى من شرائح اللحم شيئا يذكر ، يضاف الى ذلك انه لم يترك له الفرصة كي يقتات ما يقيم أوده ويحفظ عليه حياته وصلة الروح بالجسد(٢) .

هكذا كانت البداية سيئة ، بل ازدادت سوءا على ما كانت عليه ولم تكن لتشجع على الاســـــتمرار لولا أن كان هناك هدف اسمى يسعى الزبير من أجله الا وهو اخلاصه ووفاؤه لابن عمه وخوفه عليه من أن يتركه وحيدا عرضة للمخاطر ، ولذا فقد قبل عن طيب خاطر أن يتحمل كل هذا دون ادنى شكوى من المعاملة القاسية التي يتلقاها يوميا على يد علي ابي عموري(٣) .

ظل الحال على ما هو عليه وهم يجتازون قلب السودان حتى بدأت الغابات المحيطة بالنيل الأبيض تختفي رويدا لتفسح المكان لمستنقعات بحر الغزال الشاسعة المترامية الاطراف ، وهناك أخذ ابو عموري يوزع السلاح والذخيرة على اتباعه ، ولم يحرم منه احد سوى الزبير ، وكان هذا أكبر من أن يسكت عليه الزبير ،

واحس وقتها ان عزمه وكرامته لن تتحملا اكثر من هذا فمضى اليه ، وفى اعماقه غضب مكبوت وطالبه بسلاح يحمله فقبل فى النهاية ان يعطيه مسدسا صدئا عتيقا لا يكاد يصلح لشىء ، غير أن الزبير رضى به ، وبذل جهدا كبيرا فى اصلاحه وتهيئته للعمل حتى استطاع فعلا بعد ذلك عندما جاء وقته ان يعمل وان يقوم بالمعجزات(٤) .

وقد حدث فى احد الايام أن تآمر عليهم سكان المناطق المحيطة بهم وكان عليهم أن يلجأوا للسلاح دفاعا عن أنفسهم فقسموا قواتهم الى معسكرين يضم كل واحد منهما حوالى مائة رجل ، واخذ ابو عمورى ورجاله اهبتهم للقتال ، ولم يلبث الاعداء أن احاطوا بهم فى عدد لا حصر له ، ولم يمض لحظات حتى كان الزبير ومن معه مشتبكين فى قتال مرير مع الاعداء ، واحتدمت المعركة ، وبدأ موقف الزبير ومن معه يتحرج ويسوء لكثرة ما خسروه من القتلى ، وفى هذا الوقت وقع بصر الزبير على واحد من المهاجمين ضخم الجثة كالفيل ، وكان يبدو عليه من اندفاعه وطاعة الرجال له أنه قائدهم ، عندئذ أسرع الزبير فسدد اليه ضربة قاتلة أصابته بين عينيه فخر على الأرض صريعا يتخبط فى دمه . والتقط الزبير مسدسه المحشو ، واستأنف القتال ، ولم تمض غير ساعة واحدة حتى كان الزبير قد صرع أحد عشر رجلا من الاعداء ، واسرع لمساعدة بقية الرجال الذين كان موقفهم يتحرج من لحظة لاخرى ، وقد اوشك الاعداء على التغلب عليهم ، ولم يمر وقت طويل حتى كان قد أباد عددا آخر من المهاجمين ، وبهذا بدأ الموقف يتحسن الى أن بدأ الاعداء يحسون الهزيمة عندئذ ولوا الادبار وهم من خلفهم يطاردونهم ويقتلون منهم حتى تم لهم النصر عليهم وعندما اقبل المســـــاء كانت المعركة قد انتهت تماما وكان

التجار قد فرغوا من بناء زريبة يقضون فيها ليلتهم ، وليلتها رأى الزبير أبو عموري وهو يتقدم نحوه حاملا له من أطايب الطعام ما كانت تشتهيه نفسه من زمن بعيد ، ثم مضى يعانقه ويقبل رأسه ويده وأمضى معه وقتا طويلا في التودد اليه والثناء على شجاعته مشيدا بانه كان السبب في تخليصه من براثن موت محقق . ومن يومها تغيرت معاملته للزبير واتخذه صديقا له(٥) .

اظهرت هذه المعركة مدى قدرة الزبير وشجاعته في مجابهة الشدائد . عندما ابلى في قتاله مع رجال أبي عموري بلاء حسنا في قتاله ضد هؤلاء السكان . بل كان هو السبب الأول في الانتصار عليهم ، مع ان هذه المعركة كانت تعتبر الأولى بالنسبه له . وقد كان لها اهميتها من حيث التغيير الذي أحدثته في مجرى حياته مع أبي عموري .

وفي صباح اليوم التالي استأنفوا الرحلة في النيل الأبيض الى أن وصلوا الى مشرع الرق . فنزلوا ببضـــــائعهم وأمتعتهم وكان في ذلس العام ســـنة ١٢٧٣ هـ الموافق ١٨٥٦ م اخترقوا بلاد الجانقية(٦) الى أن وصلوا بعد مسيرة خمسة أيام الى ارض الجور(٧) ـــ Jur حيث كان لأبي عموري محطة هناك تسمى عاشور على اسم شيخ البلد هناك . وفي منطقة بحر الغزال كان هناك الكثير من التجار غير أبي عموري متفرقين في انحاء الاقليم ولكل تاجر منهم زريبة(٨) وكانت أهم البضائع المتداولة في تلك البلاد هي الخرز على اختلاف انواعه والوانه واحجامه ثم الودع والقصدير وكله مما يتزين به النساء والرجال . وكان الاهالي يفضلون هذه الأشياء على الذهب والفضة ، فكانوا يأخذونها من التجار ويقايضون عليها بسن الفيل(٩) وريش النعام(١٠) والمطاط والحديد والنحاس وغيرها من موارد البلاد(١١) .

ظل الزبير بعد ذلك مساعداً لأبى عمورى فى تجارته غير أنه لم تمض الا بضعة شهور حتى ثار أهل البلاد مرة أخرى على التجار طمعاً فى أموالهم وبضائعهم وما جاءت سنة ١٢٧٤ هـ الموافق سنة ١٨٥٧ م حتى كانت قواتهم قد تجمعت من جميع أنحاء البلاد واستعدت للمعركة الفاصلة ، عندئذ بدأوا فى الهجوم على الزرائب وقتلوا بعض التجار وهم نائمون ، وسلبوا أموالهم كما هاجموا زريبة أبى عمورى ، فتصدى لهم الزبير على رأس الرجال وأحاط بهم وقاتلهم حتى أنزل بهم هزيمة ساحقة ، وسمع التجار بخبر انتصاره عليهم ، فجاءوا اليه من جميع أنحاء البلاد ودانوا له بالطاعة ، وأصبح أهل البلاد لا يجرؤون على مهاجمة زريبة أبى عمورى أو زرائب التجار الآخرين ، وعندما وجد أبو عمورى نجاته فى المرتين السابقتين بفضل شجاعة الزبير زادت ثقته فيه وجعل له قسماً من أرباحه يبلغ عشر العاج . وعندما هدأت الأحوال بالبلاد ترك أبو عمورى الزبير وكيلا عنه وسافر الى الخرطوم فغاب فيها مدة ستة أشهر وعاد بالبضائع فوجده قد جمع عنده من موارد البلاد ما لم يكن ليجمعه هو فى سنين ، فزاد هذا من احترامه للزبير وعرض أبو عمورى على الزبير مشاركته له فى تجارته على أن يكون الربح مناصفة بينهما ، الا أن الزبير رفض ذلك وعزم على أن يستقل بنفسه فى أعماله وأن يبدأ فى الاتجار لحسابه(١٢) .

ترتب على المعركة السابقة عدة نتائج أولها فتح أبواب كثيرة أمام الزبير منها أن أبا عمورى قد عرض عليه مشاركته فى تجارته ومناصفته أرباحه فرفض ، وثانيها أن تجار هذه المنطقة قد أحسوا بقيمته وقدرته واخلاصه فقدموا اليه فروض الولاء والطاعة، كما أنها أعطته الثقة الكاملة فى أن يقوم هو بنفسه بالاتجار لحسابه الخاص .

الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة في حياة الزبير :

أولا : استطاع الزبير أن يكتشف نفسه الخليقة بالصمود أمام العقبات والتحديات ويتمثل ذلك في المعركتين اللتين خاضهما مع رجال أبي عموري ضد سكان البلاد وظهوره بمظهر المدافع عن حقوق صاحبه أبي عموري وبقية التجار .

ثانيا : كان لهذه الرحلة الأثر الكبير في تزويد الزبير بخبرات واسعة في مجال الاتجار والمقايضة مع سكان الاقاليم الجنوبية ، ونوعية المواد التي يجب أن يتاجر فيها ويقايض عليها ، والتي كانت محل رغبة من الأهالي .

ثالثا : تعرف الزبير على مصادر حاصـــــلات الجنوب ، وقد استطاع أن يجمع من هذه الحاصلات مثل العاج وســــن الفيل وغيرهما كميات كبيرة .

رابعا : كان من نتيجة تحسن مركز الزبير لدى أبي عموري وبقية التجار الأثر الناجح في أنه وجد أحسن الطرق وأيســـرها لتحقيق آماله وبلوغ طموحه لا يكمن في مشاركته لأبي عموري أو مناصفته أرباحه بل في استقلاله بالأعمال التجارية التي أصبح له فيها شأن كبير .

الزبير يســـــتقل بنفســـــه :

قرر الزبير الاستقلال عن أبي عموري وممارســـــته التجارة لحسابه الخاص ، لذلك سافر الى الخرطوم لشراء ما يلزمه من البضائع التي تروج في البلاد التي سوف يتاجر فيها ، واستئجار الأفراد اللازمين للعمل معه ، وليبدأ جولة جديدة في حياته . بدأ الزبير رحلته الى الخرطوم بالابحار من بحر العرب حتى وصل

الى مكان التقاء بحر العرب ببحر الغزال ، وفى اثناء اجتيازه لهذه المنطقة وقع بصره على قطيع كبير من الفيلة ذات الانياب الغليظة التى تعتبر من اهم مصادر العاج ، فحاول الزبير ومن معه اصطياد هذا القطيع بشتى الطرق للحصول على العاج ولكنهم اخفقوا فى ذلك لوجود مستنقع عميق متسع حال بينهم وبين الوصول اليه . وعندما اتى عليهم الليل صنعوا لانفسهم مأوى من الاغصان يبيتون فيه ليلتهم . وفى اثناء الليل خرج الزبير ومعه أحد أتباعه للمغامرة بينما ترك بقية الرفاق ، واثناء سيرهم خلال المناطق الموحشة والاحراش الكثيفة لفت نظرهم وجود تمساح ضخم يرقد قرب النهر فحاول الزبير اصطياده برصاص بندقيته ، ولكنه قبل ان يفعل ذلك فوجىء بأسد يتقدم فى خفة صوب التمساح ، بعدها بدأت معركة وحشية بين الأسد والتمساح انتهت بمصرع التمساح — وفى صباح اليوم التالى عاد الزبير وصحبه الى حيث كان ينتظرهم باقى الرفاق واستأنفوا رحلتهم الى الخرطوم التى بلغوها فى السابع من ربيع الاول سنة ١٢٧٠ هـ الموافق الخامس عشر من اكتوبر سنة ١٨٥٨ م وكان الزبير قد جمع من تجارته مع أبى عمورى نحو ألف جنيه ، فما وصل الخرطوم حتى اشترى بهذا المبلغ قاربا حمل فيه من مختلف البضائع التى تروج فى بلاد الجنوب ، كما أنه استأجر لنفسه بعض الرجال وسلحهم بالبنادق كما كانت عادة التجار آنذاك(١٣) .

وقد كانت هذه الرحلة التى قام الزبير بها لونا من الوان المغامرة ، التى عبرت عن شكل من اشكال الحياة فى السودان لذلك فهى تعتبر صورة من الصور التى سوف تتكرر رؤيتها فى جميع رحلاته التى قام بها الى الجنوب .

الزبير في بلاد قولو(١٤) (١٢٧٥ هـ ـ ١٨٥٨ م)

حمل الزبير اثناء عودته من الخرطوم من البضائع التى تروج ببلاد الجنوب الشيء الكثير مثل الخرز بكافة أنواعه واشكاله واحجامه والوانه ، والودع ، والتصدير ، والقماش المصنوع من القطن وغير ذلك من البضائع للمقايضة عليها بريش النعام ، وسن الفيل ، والخرتيت ، والمطاط ، والحديد ، والذهب ، وغير ذلك من موارد البلاد كما انه اصطحب معه رجالا للقيام بأعمال الحماية وآخرين لحمل البضائع ، وغيرهم ليكونوا أدلاء ومرشدين عبر الطرق والمناطق التى يتجهون اليها .

وبدأ الزبير رحلة العودة متجها نحو الجنوب فى اتجاه مشرع الرق هو ومن معه ، ولكن لم يلبث ان اعترض طريقهم اثناء ابحارهم عبر مجارى أحد الانهار سد كبير من أم الصوف(٢٠) وكان عليهم لكى يواصلوا الرحلة ان يزيلوا هذا السد من النهر ، وظلوا اياما يحاولون ازالته ، ولكن دون جدوى ، وكاد اليأس يتسرب اليه لولا أن جاءهم فى النهاية رجل من قبيلة النوير ـ Nuer من العارفين بأسرار هذه البلاد فازاله لهم بالتعاون مع بقية الرجال فى سهولة ويسر ، وقد اخبرهم بأن من عادة القبائل هناك ان تعمد الى ربط الاعشاب الطافية ـ Weads بعضها الى بعض حتى يتكون منها جسر واحد تعبر عليه الاغنام ، هذا الى أنه فى موسم الأمطار تمتلىء الانهار بالمياه ، فاذا أتى فصل الصيف جفت هذه الأنهار ، فيترك الأهالى أغنامهم لرعى العشب على الشاطىء ، فكان التجار فى ذهابهم وايابهم فى النهر يعمدون الى صيد الأغنام والانتفاع بها ، لذا كان الأهالى يعملون على تقوية هذه السدود وتكثيفها حتى تقف حجر عثرة فى طريق التجارة فيأمنوا بذلك على أغنامهم من الهلاك .

استأنف الزبير الرحلة الى مشـــرع الرق ، وهناك استأجر بعضا من الرجال لحمل بضائعه برا في منطقة بحر الغزال وسار الزبير ومن معه ، فاجتـــازوا بلاد الجانكاه ــ Jauket او الجانقية والجور ــ Jur والبنقو ــ Bongo (١٥) حتى وصلوا بلاد قولو ــ Golo فرحب بهم ملكها كواكي ــ Kuwaki واكرم لقياهم وتاجر الزبير في هذه البلاد بما حملة معه من البضائع حتى اجتمع عنده من سن الفيل وريش النعام وغيرهما من موارد البلاد الشئ الكثير ، فارسلها مع ابن عمه محمد بن عبد الرحمن الى الخرطوم حيث باعها وعاد بكثير من البضائع في السابع عشر من ربيع اول سنة ١٢٧٦ هـ الموافق الرابع والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٥٩م ، وقد طابت للزبير الاقامة في هذه البلاد . واخذت تجارته في الاتساع والنمو حتى غادرها الى بلاد النيام نيام(١٦) .

وهكذا اصبح الزبير تاجرا موهوبا اقام تجارته على اســس غير أسس التجار العاديين ، واتخذ اساليب غير اساليبهم ، فلم يهاجم القرى الآمنة ولم يهاجم القرى الضعيفة بل قصد بلاد النيام نيام حيث يوجد اكلة لحوم البشر وهي كما يصفها الزبير البلاد التي ليس فيها مقابل(١٧) .

الزبير في بلاد النيام نيام (١٢٧٦ هـ ــ ١٨٥٩ م)

بلغ الزبير انه توجد الى الجنوب الغـربي من بلاد قولو ــ Golo بلاد واســـعة الاطراف كثيرة الخيرات تتميز بكثرة ابقارها وبقطعان الفيلة التي لا حصر لها وأن العاج لكثرته هناك يكاد الا تكون له قيمة تذكر . ومن ثم عزم على الرحيل الى هذه البلاد ، فما كاد يمضي على عودة ابن عمه من الخرطوم شهر حتى حزم بضائعه وحمل معه للسلطان هدية فاخرة ، وانطلق قاصدا

هذه البلاد . فبلغ عاصمتها دارتكمة بعد رحلة شاقة استغرقت خمسة وعشرين يوما . وكان يحكمها سلطان يسمى تكمة ويقيم في عشة كبيرة يحيط بها سياج من انياب الفيلة يبلغ عددها ما بين ثلاثة واربعة آلاف . في هذا المقر قابل الزبير السلطان وقدم له الهدايا التي جلبها معه ، واستأذنه في الاتجار في بلاده ، فاذن له ، ويبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته بالاتجار وسط هذه القبائل من اكلة لحوم البشر(١٨) .

وعلى هذه البلاد أطلق الجغرافيون العرب في العصور الوسطى اسم « نيام نيام » وبالتحديد شعوب هذه المناطق من سكان اواسط افريقية ، وكان أولئك الكتاب لا يميزون بهذا الاسم شعبا بذاته ، بل مجموعة سكان هذا الاقليم الاوسط الذي يشمل الكونغو واعالي النيل والذي اشتهر سكانه بهذا الاسم ، وهذه البلاد تشمل الجزء الجنوبي من حوض بحر الغزال المتاخم لأعالي روافد نهر الكونغو ، وهنا نجد مساحة واسعة جدا من السودان الجنوبي الغربي وفي الشمال الشرقي من الكونغو ، وهي بذلك تقع في مركز متوسط بالنسبة للقارة الافريقية في هضبة متوسطة الارتفاع ، وتحتلها مجموعة من الشعوب المختلفة من اشهرها قبائل مورو ، وماضي ، وبونجو ، ومندو ، والمكاركة ، والآزاندي ، والمجبيتو وغيرهم . هذه المساحة العظيمة من جملة الجهات الافريقية انتشر فيها ذباب « تسي تسي » المسبب لمرض النوم . وعلى الرغم من ذلك فقد احتشدت فيها في القرون الثلاثة الأخيرة جماعات مختلفة من اقاليم الكونغو واواسط افريقية ، ودارت بينها اشتباكات ومنازعات وأخذت جماعات تتشكل في مختلف الجهات ثم تتحلل ، تظهر ثم تختفي ، تستقل ثم تندمج ولاتزال آثار هذا التشتت والتمزق واضحة ، بحيث يصعب معها رسم خريطة لتوزيع الشعوب في هذا الاقليم الكبير .

وعلى فرض أن هناك منطقة انتشرت فيها ظاهرة النمنمية ، وأنها تمتد من الكونغو الى أهالى بحر الغزال ، فان اكبر الظن انها لم تكن يوما عادة شائعة في طول الاقليم وعرضه . وكثير من السكان ينكرون أن أمرا كهذا يمارسه احد ولا شك ان الاتصال بين الشعوب ، لابد انه قضى على هذه العادات في الجهات القليلة التي كانت تمارس فيها(١٩) .

ويقال ان أكل لحوم البشر في بلاد النمانم (النيام — نيام) ليس غذاء عاديا لهم كما يتوهم البعض . بل هو طريقة اتخذوها لبيان معزة احدهم عند الموت ويرونها اسمى شأنا من دفن الانسان في القبر أو احراقه بالنار مثلا ، ويرون في ذلك راحة لهم من عناء انشاء المقابر واحتياطاتها الصحية(٢٠) .

وكان من العسير على سلطان النيام نيام ان يفهم لماذا اهتم الزبير بالعاج وسعى الى جمعه ، فلما ابلغه انه يجمعه ليسحقه . لم يلبث عندما عادوا في العام التالى ، ان وجد الأهالى قد أحرقوا العاج كله . وكان من الواضح أن السلطان قد عمد الى هذا خوفا من أن يكون الزبير ومن معه قد خدعوه عندما قالوا له اننا نجمعه لنسحقه .

وكان الزبير ومن معه يقطنون طول فترة اقامتهم بداركمة في غشة بالقرب من مقر السلطان . وقد بنيت عشش زوجات السلطان بجواره في شبه نصف دائرة تحيط بأرض فضاء ممتدة . وتسلل ذات مساء أحد الحمير التي مع الزبير من مربطه ، واخذ طريقه الى مقر السلطان حيث اغراه بذلك مشهد الاذرة التي كان الأهالى قد تركوها هناك في الليلة الماضية ، ولما كانت انظار اهل بلاد النيام نيام لم تقع قط على صور مثل هذه الدواب كالجمال والخيل . فقد ذعرت زوجات السلطان لمرأى هذا الحمار وولين

من امامه الابنار فى ذعر وهياج ، وقد ظنوه رجلا مسحورا على صورة اخرى ولم يلبث السلطان ان شاركهم هو الآخر فى هذا الظن ، فامر وقد اخذ منه الغضب كل ماخذ بقتل الحيوان ويدق طبول الحرب لدعوة المحاربين من كل مكان لقتال الزبير ، وتحرج موقف الزبير ومن معه حتى بات يتهددهم خطر عظيم . ولكن الزبير، بما عرف عنه ، لم يتوان لحظة واحدة فى اصلاح الامور فأرسل الى السلطان احد المقربين اليه من اتباعه ومعه بندقيتان واربعون طلقة هدية من الزبير الى السلطان لكى يسترضيه ويتقى غضبه . غير انه ادار لرسول الزبير ظهره وابى ان يتقبل الهدية فلما سعى الزبير بنفسه وتقدم منه محييا ادار له ظهره مرة أخرى . وكانت هذه الحركة من عاداتهم فى اظهار الغضب والاستياء عندئذ خاطبه نورانجره(٢١) Nur Angra قائلا : ايها الملك العظيم ما الذى يغضبك منى وانا الذى طالما اصطدت لك القرود المكتنزة لتكون طعاما لك ى ولائمك العامرة اللذيذة ؟ عندئذ اجاب السلطان فى حدة قائلا : « وما الذى تنتظره منى غير الغضب وقد ارسلتم احد رجالكم بالليل الى حى زوجاتى ينتهك حرماتهن . فقال نورانجره Nur Angra بان الحمار لا يعدو ان يكون حيوانا كالبقر والغزال حتى هدأ اخيرا وخف غضبه ، عندما زادوا له الهدية الى ست بنادق تنازل له الزبير عنها مكرها .

وكان لسلطان تكمه مايقرب من الاربعمائة امرأة والاربعمائة من الابناء والبنات . فقام بزوج رانبوه كبرى بناته للزبير ، وكانت على قدر كبير من الجمال . ساعد هذا الزواج الزبير على توطيد مركزه بين أهالى البلاد ، ورفعته هذه المصاهرة الملكية فى انظار الاهالى ، وزادت تجارته رواجا واتساعا واستطاع فى وقت قصير أن يجمع الشىء الكبير من العاج وغيره من موارد الجنوب(٢٢) .

ولقد كانت رحلة الزبير الى هذه البلاد ذات أهمية من حيث انه :

أولا : استطاع ان يكتشف لنفسه اماكن جديدة للتجارة لم يطرقها احد من قبل .

ثانيا : كانت هذه البلاد تمثل مستودعا طبيعيا بكرا لحاصلات الجنوب من العاج وغيره ، التى لم تنلها أيدى التجار بسوء فكان هذا فتحا عظيما لزيادة حجم تجارته من هذه الموارد الطبيعية .

ثالثا : كان تقربه للسلطان وحبه له ثم تزوجه من ابنته عاملا مساعدا على تقوية مركزه وسط شعوب هذه البلاد واتساع مجال تجارته فيها .

الزبير والملك كريم (١٢٧٨ هـ ــ ١٨٦٢ م) :

بعد أن جمع الزبير الشيء الكثير من حاصلات بلاد النيام نيام استأذن السلطان تكمة فى الرحيل عن البلاد فرحل عنها فى السابع عشر من رمضان سنة ١٢٧٨ هـ الموافق الثامن عشر من مارس سنة ١٨٦٢ م قاصدا الخرطوم ومعه ما حمله من سلع البلاد وفى اثناء سيره مر بصاحبه على ابى عمورى فوجده متاهبا للسفر بتجارته الى الخرطوم فاتفق على الذهاب معه . وكان لابى عمورى زريبة قرب نهر البنقو(٢٣) الذى لم يسلكه أحد قبلهم على حد قوله ، فقاموا باجتيازه رغبة فى التخلص من مشقة نقل البضائع بالبر ، ولهذا الغرض اتموا بناء مركبين ووضعوا فيهما بضائعهما ورجالهما البالغ عددهم مائتين واربعة عشر رجلا ، ثم ساروا قاصدين مشرع الرق ومعهم من الزاد ما يكفيهم لمدة شهرين .

وبعد أن ساروا ثلاثة عشر يوما بلياليها اتسع مجرى النهر حتى صار أشبه ببحيرة واسعة منه بالنهر ، واختفى عن أعينهم

المجرى الأصلي للنهر ، فتاهوا في هذه البحيرة الواسعة مدة خمسة وسبعين يوما قاسوا خلالها الأهوال وهم تحت رحمة السماء ، وفي تلك الفترة نفذ زادهم جميعه ، ولم يصبح لديهم ما يأكلون من الطعام ، وفقدوا كل أمل في النجاة من الموت . الا ان الله أراد لهم النجاة ، فقد لاح لهم من بعيد دخان ، فأسرع الزبير ومعه علي أبي عموري ومعهما تسعة من الرجال في قارب صغير كانوا قد أتوا به معهم في المركبين الكبيرين - قاصدين جهة الدخان ، وما كادوا يبتعدون عن المركبين حتى أختفى الدخان تماما ثم غاب من أنظارهم ايضا المركبان ، فأصبحوا يسيرون علي غير هدى وطال بهم الحال حتى أشرفوا على الهلاك .

ولم ينقذهم من ذلك غير رؤية تمساح كبير ، كان يرقد تحت شجرة على تل في وسط الماء فاصطادوه برصاص بنادقهم ، ومن هناك انطلقوا بعد ذلك يبحثون عن المركبين وسط هذه البحيرة ، وظلوا على ذلك الحال لمدة اربعة أيام ، حتى عثروا عليهما أخيرا ، وهناك شاهدوا المأساة التي حدثت ، فقد وجدوا ثمانية عشر رجلا من رجالهم قد ماتوا جوعا ، وعندما علم واحد من رجالهم بنجاتهم توفى على الفور . وقد أخبرهم الرجال أنهم كانوا يرون الدخان كل يوم في آخر النهار ، فأيقن الزبير ومن معه بوجود بر قريب فانتقى اثنا عشر رجلا من اقوى الرجال وأنزلهم في القارب وتوجهوا معا الى جهة الدخان ، ولم تمض بضع ساعات على ابحارهم حتى اشرفوا على جزيرة واسعة هائلة . مأهولة بالناس وفيها من الأبقار مالا يحصى عدده ، فنزلوا الى البر . فوجدوا أن الدخان الذى كانوا يرونه هو دخان ارواث الأبقار التي كان يحرقها الأهلون في عصر كل يوم ليتخذوا رمادها فراشا لهم كعاداتهم(٢٤) .

وكان يسكن تلك القرية قوم من النوير(٢٥) فلما دخلوا الجزيرة اجتمع عليهم السكان ، فأخذوا يسألونهم عن هذه الملابس، ومن أين أتوا الى هذه الجزيرة ، وهم في كل هذا ينوون الغدر بهم . ولحسن حظ الزبير كان معه شخص مترجم على علم بلغة القوم ويعرف ملكهم واخبرهم الزبير على لسان مترجمه بأنه يعرف ملكهم « كريم » وانه يريد مقابلته ، فلما رأوا انه يعرف ملكهم ولغتهم رحبوا به هو وصحبه وأمنوهم على حمايتهم ، واكرموا ضيافتهم واشترى الزبير ثماني أبقار ذبحها وارسلها قطعا في القارب الى بقية الرفاق في المركبين وبعد ان أكلوا منها واستعادوا نشاطهم لحقوا بزملائهم في الجزيرة(٢٦) .

ذهب الزبير بعد ذلك لمقابلة الملك كريم ، ولما امتثل بين يديه حياه فرد عليه التحية ثم اخذ يسأله عن أمره والسبب الذى اتى به الى هذه الجزيرة ، فأجابه على جميع اسئلته . وسرعان ما انتشر خبر تواجدهم في الجزيرة الى جميع الاهلين ، واخذ كبار القوم وزعماؤهم يفدون الى الملك افواجا مطالبين بقتل الزبير والاستيلاء على أمواله ، فاذن لهم الملك في ذلك بعد تردد طويل . على ان يتم ذلك بعد خروجهم من داره ، وكان قد لفت نظرهم البضائع والاموال الكثيرة التى كانت تغص بها مراكبهم . غير أن الزبير وصحبه علموا بما كانوا يدبرون . ومن ثم اتخذوا حذرهم من ذلك وباتوا يحرسون أنفسهم بالتناوب . وحين جاءت نوبة الزبير في الهجيع الأول من الليل . شاهدا أسدا مقبلا من بعيد فرماه برصاص بندقيته ، فأرداه قتيلا ، ولما رأى الملك والسكان الأسد مقتولا فرحوا بذلك فرحا شديدا لان ذلك الأسد كان متسلطا عليهم يفترس كل من يصادفه منهم حتى لم يعد يجسر احد على الخروج من بيته ليلا ، أما الملك كريم فقد عظم سروره من قتل الزبير للأسد، حتى انه عقد له على احدى بناته ورغبه في الاقامة معه في

جزيرته . فاقام عنده شهرا كاملا حتى أشترى جميع ما يلزمه من المؤن ثم احتال على الملك وخرج من جزيرته بالمركبين ميمما شطر الخرطوم من جديد .

ولم تلبث الاقدار ان بدات تلعب بحياة الزبير ومن معه مرة اخرى ، فما كادوا يغيبون عن الجزيرة حتى ضلوا الطريق مرة اخرى فى نفس البحيرة المتسعة وتوالت الكوارث على الزبير ومن معه ، وقد ظلوا تائهين حتى نفد زادهم وطعامهم ، وتوالى بعد ذلك سقوط رجالهم صرعى الواحد تلو الآخر بسبب الجوع والانهاك والضعف الشديد الذى اتضح على وجوه الجميع عدا ستة من الرجال الذين اراد الله لهم النجاة مع الزبير وابو عمورى . فقد شاهدوا مركبا على بعد فاطلقوا عليها عيارا ناريا تصد الاشارة الى مكانهم لانقاذهم ، ولم يمض الا القليل من الوقت حتى اقتربت منهم تلك المركبة وبها عبد الرحمن ابو قرون من تجار بحر الغزال . الذى قدم لهم ما يلزمهم من الزاد والكسوة وقد كانوا على بعد خمسة ايام من مشرع الرق ، فساروا مبحرين اليه حتى وصلوه فى الثانى من صفر سنة ١٢٨٠ هـ الموافق التاسع عشر من يوليو سنة ١٨٦٣ م فاجتمع الناس حولهم يهنئونهم بسلامة العودة ويعزونهم فيما فقدوه من رجال ومتاع . ومن مشرع الرق اقلعت المراكب المقلة لهم الى الخرطوم مرة ثانية . فوصلوها فى السابع والعشرين من ربيع الأول من نفس السنة الموافق الحادى عشر من سبتمبر سنة ١٨٦٣ م وهناك مكثوا فى الخرطوم بضعة اشهر فباعوا فى خلالها تجارتهم ، واشتروا بثمنها تجارة اخرى مما يروج فى تلك البلاد وما يلزمهم من اسلحة وذخائر ورجال(٢٧) .

الزبير في بلاد النيام نيام ثانية (١٢٨٠ هـ ـــ ١٨٦٣ م) :

وفى ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٨٠ هـ الموافق التاسع والعشرين من ابريل سنة ١٨٦٤ م غادر الزبير الخرطوم فى طريقه الى بلاد النيام نيام ، فوصل بعد مسيرة ستة عشر يوما فى ٢٠ صفر سنة ١٢٨٠ هـ الموافق ٢٥ يولية ١٨٦٤ م الى قرية تقع على الطريق تسمى قرية شول(٢٨) ، وفى هذه القرية التقى الزبير بسيدة اوروبية نمساوية أو فرنسية ، لا تعرف على وجه التحديد جنسيتها ، وقد كانت فاتنة ، عذبة الحديث ، فائقة الثراء وتدعى بين الاهالى هناك باسم السنيورة(٢٩) .

وقد وقع الزبير عليها فى هذه القرية وهى قائمة أمام بيتها الكبير تذبح بعض الطيور لتنزع ريشها الامر الذى تعجب له الزبير كثيرا ، وكان يقيم فى هذه القرية وتحت امرتها مائة وخمسون من الجنود المسلحين بالبنادق . فلم يلبث الزبير ومن معه من أصحابه أن وافقوا على صيد اثنى عشر فيلا . اقنعوا هذه السيدة بمبادلة هذا العاج كله باسلحة رجالها .

اقام الزبير ومن معه فى هذه القرية أياما أخرى وقصدت السيدة الزبير فى ان يصطاد لها خرتيتا ، فلم يتردد نورانجره مرافق الزبير فى هذا الطلب واصطاد لها واحدا بالفعل ، فقد كان رجالها لا يجيدون الرماية واقل مهارة فى التصويب نحو الهدف ، وحدث اثناء اقامتهم هناك ان توفيت واحدة من خدمها وكلب لها فأمرت أن يحملا فى تابوتين الى الخرطوم ، ثم لم تلبث هى بعد ذلك ان شدت رحالها عائدة بدورها الى الخرطوم(٣٠) .

وفى ٢٠ صفر سنة ١٢٨١ هـ الموافق ٢٥ يوليو سنة ١٨٦٤ م وصل الزبير الى بلاد النيام نيام وقدم للســــلطان تكمة الذى

رحب كثيرا بعودته هو وزوجته الى بلاده ، مجموعة من الهدايا الفاخرة كان من بينها سلطانية شربة موشساة بالذهب سر بها سرورا بالغا . حرص بعد ذلك أن يضعها فوق رأسه في المناسبات الهامة كأنها تاج ثمين واحتفالا بعودة الزبير أولم السلطان له وليمة فاخرة لم يكف طوال الوليمة من الترحيب به ومن معه وعن ابداء اعجابه وزهوه بالتاج الجديد .

عاد الزبير بعد ذلك الى دار زوجته رانبوه وبدأ في الاتجار ، وكانت العادة قد جرت في تلك البلاد في أن يعرضوا للبيع في الاسواق اصحاب الجنايات كاللصوص والزناة حيث يذبحون كالنعاج ، وتباع لحومهم طعاما لمن يشترى . ولما بدأ الزبير يحس بحاجته لجمع عدد من الرجال حوله لتحقيق ما يجيش بصدره من آمال . رأى أن ينتهز هذه الفرصة ويفتدى من الذبح من يراه أهلا لحمل السلاح من بين هؤلاء المذنبين ، ففعل حتى اجتمع عنده خمسمائة رجل انقذهم من المصير الرهيب الذى كان ينتظرهم ثم سلحهم بالاسلحة . بعد ان دربهم على استعمالها ، فكان هذا بداية لعهد من القلاقل والمصاعب التى اكتوى بها الزبير في بلاد النيام نيام .

ساء الملك تكمة ان تنمو قوة الزبير الى هذا الحد وأوجس شرا من نواياه ، وهو يراه يصنع جيشا مسلحا لحسابه قد يكون خطرا على مملكته ، فاستشار كهنته الذين اشاروا عليه بقتل الزبير غير أن ابنته رانبوه اخبرت بذلك زوجها سرا ونصحته بالرحيل عن بلاد أبيها ، ولكن الزبير لم يكن ليميل الى الرحيل ، ومن ثم نشط لعلاج الموقف بطريقة أخرى ، وهي التزلف الى الملك تكمة بالهدايا الثمينة ، ولكن الموقف بعد ذلك لم يتغير . بالرغم من كل ما قدمه الزبير من هدايا . ولم يلبث ان وجد نفسه فعلا مضطرا الى الرحيل عن هذه البلاد التى لم يعد له فيها اقامة أو تجارة .

وقرر الزبير الرحيل فطلب من الملك ان يأذن له بالرحيل الى بلاد الملك دوية زاعما له انه قد بلغه كثرة العاج فى هذه البلاد ، ورغبته فى ان يذهب اليها برجاله لجمع ما يمكن جمعه منه . لكن تكمه لم يكن ساذجا الى الحد الذى يسمح للزبير فيه بالخروج من بلاده ،مصطحبا معه هذا الجيش الجديد . فقد كان همه ان يجرده من هذا الجيش فسمح له فقط ان يذهب وحده وان يترك الرجال من ورائه حتى يعود ، ولكن على الرغم من ذلك لم ييأس الزبير وقرر التحايل عليه ، فزعم له ان بلاد الملك دويه غير مأمونة الجانب ويســــودها الظلم والفوضى وانه يخاف من ان يراه اهلهـــــا ضعيفا فيقتلوه .

ونظرا لاصرار الزبير على السفر هو ورجاله تظاهر الملك بالموافقة ، واوعز الى جيشه ان يكمن سرا فى الطريق ويقتلوه هو ورجاله ، وما كاد الزبير يغادر البلاد حتى وجد كمينا من رجال تكمه يتربصون به فى الطريق ، ولكنه كان مستعدا لهذه المعركة المفاجئة ، فاطلق على رجال الملك تكمة نيرانا حامية لم يطيقوها ، فانهزموا امامه سريعا وهكذا فتح الطريق امام الزبير الى بلاد الملك دوية فمضى اليها هو ورجاله(٣١) .

الزبير فى بلاد الملك دوية (١٢٨١ هـ — ١٨٦٤ م) :

بعد ان انتهى الزبير من معركته مع جيش الســـلطان تكمة سار ومن معه الى بلاد الملك دوية . وكان هذا الاخير عدوا للملك تكمه ، فلما علم بما حدث بينه وبين الزبير خرج لملاقاته وتحيته على مسيرة اربع ساعات من عاصمته ، وانزله الى جواره ، وبنى له حصنا منيعا من الخشب ، وامده بالحبوب والمؤن ما يكفى رجاله لمدة طويلة .

أما الملك تكمه فلم يلبث أن ارسل جيشا جرارا بقيادة عمه مريوه(٣٢) اشـــاع الرعب والذعر في بلاد دوية ، فهب الاخير للاقاته والاستعداد للمعركة الفاصلة غير ان الخوف والقلق لم يلبثا أن استوليا عليه مقبل ان تبدأ المعركة فر هو ورجاله خلسة مستترين تحت جنح الظلام ، وترك الزبير وحيدا ، فلم اصبح الصباح تكشف له حرج موقفه الذى نجم عن هذا المازق . غير أن القدر شاء الا يتخلى عنه في تلك اللحظة ، قد ساق له النجاة في الساعات الأخيرة ، على صورة لم يتوقعها ابدا اذ وفد عليه من الملك تكمة وفد نقل له رسالة يبلغه فيها : « أن حرمة المصاهرة وسابق المودة تمنعان الملك من محاربتك ولكنه يرغب اليك ان تخرج من جميع بلاد الملك دوية التي اصبحت تحت ســـلطانه ، وتذهب الى حيث تشاء ولك الامان » فاجابهم الزبير الى ذلك ولم يتردد الزبير في قبول هذا العرض وفعلا جمع رجاله وخرج من بلاد الملك دوية قاصدا بلادا جديدة هي بلاد قولو ــ Golo حيث يقيم الملك عدوه شكو تدخلها في اول محرم سنة ١٢٨٢ هـ الموافق السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٦٥ م(٣٣) .

وهكذا لعبت حرمة المصـــاهرة دورا مهما في منع الســلطان تكمة من قتال الزبير كما أن الجبن والخوف منعا الملك دوية من قتال الملك تكمه .

« الزبير وعدوه شكو وابنه شيجا » (١٢٨٢ هـ ــ ١٨٦٥ م) :

ومرة أخرى نجد الزبير في بلاد قولو ــ Golo ففي المرة الأولى كان قد مر بها وهو في طريقه الى بلاد النيام نيام بقصد التجارة ، اما هذه المرة فقد دخلها هربا من أن يبطش به السلطان تكمه .

فلى أول محرم سنة ١٢٨٢ هـ الموافق السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٦٥ م دخل الزبير بلاد تولو وكان ملكها عدوه شكو قد سبق أن غدر بمنصور أحد أخوة الزبير وقتله هو ورفاقه الذى كان الزبير قد ارسلهم معه للاتجار فى بلاده كما أنه استولى على جميع اموالهم ، فكان طبيعيا ان يظن ان الزبير قد جاء للأخذ بثار اخيه ، والا يسمح له بدخول بلاده ، وعبثا حاول الزبير ان يتودد اليه بالهداية مؤكدا له ان لا قصد له من اللجوء الى بلاده سوى التجارة ، الا انه أصر على أن يغادرها ، وهدده بالحرب ان لم يفعل .

كان الفصــــــل عندئذ شتاء ، والمياه تغمر البلاد وهناك استحالة فى الرحيل من بلد لآخر . فساله الزبير ان يمهله الى ان ينقطع المطر وتفتح الطرق فرفض ، ومن ثم اخـــذ الزبير فى الاستعداد لحربه ، فقام ببناء قلعة حصينة على مساحة واسعة تقترب من ثلاثة افدنة ، واحاطها بسياج من الاشجار المتشابكة التى قصد أن تكون من الضخامة والقوة بحيث لا يؤثر فيها اطلاق الرصاص ، واستغرق ذلك ثلاثة أيام ولم يلبث عدوه شـــكو أن أرسل من يستفسر عن سبب انشاء الزبير لهذه التحصينات وهل هى موجهة ضده أم لا ؟ فاجابه الزبير بأن هذه القلعة قد بناها بقصد الحماية من الحيوانات الضارية التى تحوم حولهم ، غير أن هذا الرد لم يقتنع به عدوه شكو ، فارسل مرة اخرى الى الزبير يامره بالرحيل عن بلاده ، فرفض الزبير ذلك فى حزم .

وبدأ الملك فى جمع رجاله استعدادا للحرب . وقد رأى قبل أن يبدأ الهجوم أن يستعمل معهم طريق الحيلة والخديعة ، فارسل الى الزبير وصـــحبه ذات صـــباح خمسمائة من خدمه يحملون له زقاقا مليئة بالخمر علامة على الاحتفاء بهم راجيا أن يقبلهـــــا

عملا باصول الضـيافة العربية . غير ان الزبير رفض كل هذا وادرك ما يريده هذا الملك من وراء هذه الهدية(٣٤) .

وعلى الفور ارسل الزبير الى يونس ســـفيره لدى الملك عدوه شـكو يستعجله في الرجوع اليه ، ولعلا عاد يونس عدا الرجال الاربعة الذين كانوا معه ، فقد قتلوا بيد رجال عدوه شكو . وبدأ الزبير في الهجوم على قوات عدوه شكو واسـتمر القتال لبضـعة ايام انتهت بانتصار الزبير ومصرع عدوه شكو نفسه .

غير ان ابنه شيجا اخذ مكانه وواصل القتال فلم يلبث بعد معارك قصيرة متتالية ان آثر الفرار والتجأ الى جبل «سيراجو»(٣٥) على مدى تسعة ايام متتالية قام الزبير فيها بمهاجمة مواقع شيجا في هذا التل الحصين هجوما شديدا واستمر القتال بين الجانبين الى ان جرح ساق الزبير جرحا بليغا في المرة الثالثة ، فاضطر الى تاجيل الهجوم حتى يشفى من اصابته . وفي تلك الفترة هب احد رؤساء القبائل المجاورة الى معاونةالزبير وارشاده الى المسالك الخفية في الجبل التي يستطيع عن طريقها تطويق قوات شيجا والانتصار عليه فتتبعه هو ورفاقه لمدة ساعة ونصف في مسالك الجبل الى ان وصلوا منطقة تكثر فيها الصخور الضخمة الناتئة التي حاولوا ان يتسلقوها ففشلوا في ذلك مرتين وكانت هناك صخرة ضخمة عالية توجه اليها الزبير ومعه خمسة عشر رجلا وبداوا في الصعود مع خمسة من الرجال بينما ترك الباقين اسفل التل . وبعد ان اوصاهم ان يبداوا هجومهم في الصباح بمجرد ان يطلق النار ، وصل الزبير ومن معه الى قمة الصخرة مع اول خيوط الصباح ، وسرعان ما بدأت المعركة وهاجم رجال الزبير قوات شيجا من كل مكان ، واخذت النيران تنصب عليهم من كل صوب فتولاهم الذعر والاضطراب ، فولوا الادبار ، وتم للزبير النصر عليهم في هذه المعركة(٣٦) .

وبهذا الانتصار دان له حكم هذه البلاد وجميع البلاد المجاورة حتى بحر العرب ، واتخذ بايه التى عرفت بعد ذلك باسم « ديم الزبير »(٣٧) عاصمة له وبهذا أصبح ملكا ، وبدأ الناس يجتمعون حوله ويفدون عليه من جميع الجهات للانتظام فى خدمته . فجلب الاسلحة وجمع جيشا قويا ومضى يحكم البلاد طبقا لاحكام الدين الاسلامى . وبذلك بدأ العمران يغزو هذه المناطق حاملا معه للأهالى الامن والرفاهية والسلام(٣٨) .

تجدد النزاع بين الزبير والسلطان تكمه :

بعد ان تم النصر للزبير رحمة على محمد البلالى(٣٩) فى ربيع اول سنة ١٢٨٨ هالموافق ابريل سنة ١٨٧١ م وتمكن من بسط نفوذه على بحر الغزال وما جاورها ، وتكوينه مملكة عظيمة وجيشا قويا ، لم يرق هذا الانتصار وهذا الملك للسلطان تكمه ، وفى ذلك الوقت كانت شهرة الزبير كتاجر تفوق شهرة التجار الآخرين ، وقد اكتسب صداقة الزعماء وأهالى البلاد وكانت مصاهرته لهذا السلطان سببا فى علو نجمه وسمو مقامه(٤٠) ولذلك أعلن السلطان تكمة الحرب على الزبير . وكانت رانبوه مازالت فى عصمة الزبير يرسل لها والدها كل عام هدية من العاج تبلغ الخمسين قنطارا الى جوار مائتى زق من العسل ومائة اردب من السمسم ، فلما اشتهر ملك الزبير الى جواره بدأ يمتنع عن ارسال الهدايا الى ابنته ، ومناصبة الزبير العداء .

ففى أوائل سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م سير جيشا لمحاربته بقيادة عمه ماربوه الذى قام بالاغارة على أطراف مملكة الزبير ، غير أن الزبير لم يتحرك لقتاله الا بعد أن تاكد له أنه يريد الاستيلاء على مملكته ويجعله يعود تاجرا كما كان . كان هذا بعد

أن يتبادل الاثنان الرسل الذين أخبرهم السلطان تكمة أن الزبير يذهب ومن معه من حيث أتوا غير ان الزبير قال لهم « اذهبوا الى ملككم هذا وبلغوه بانني ما كنت لاتنازل عن ملك أسسته بسيفي لمجرد تهديد أو وعيد ، فان كان يستصغرني الى هذا الحد فليجرب معرفته التي ان كان قد استطاع ان ينتصر بها على حفنة من المتوحشين وان يلقى في قلوبهم الرعب فانه لن يستطيع أن يفعل بقوته شيئا أمام اثني عشر الفا من جنود جيش المتشوقين للقتال »(٤١) .

وهكذا بدأت الحرب بينه وبين السلطان تكمه . ولم تنته سريعا كما قرر هو بل استغرقت ثلاثة عشر شهرا باكملها فعلى الرغم من ان اسلحة رجال تكمه لم تتعد السهام والسيوف . فانهم كانوا يتبعون في نقل أخبارهم من قرية الى قرية طريقة الاشارة التي أرهقت قوات الزبير طويلا . وكانت طريقتهم في هذا أن يقف الرجال منهم في محطات تبعد بعضها عن البعض مسيرة ساعة ونصف فاذا ما رأى الرجل منهم في واحدة من هذه المحطات قوات الزبير وهي تشرع في الزحف بادر بقرع اداة خاصة تسمى الرونجا(٤٢) ، فتتلقى المحطة التالية هذه الاشارة وتقوم بدورها بترحيلها الى المحطة التي تليها ، وهكذا حتى تصل الى القرية المقصودة بالهجوم ، فيتم بذلك انذارها قبل وصول القوات بوقت طويل .

واستطاع الزبير في نهاية الأمر ان يخوض مع العدو بالرغم من نظام الاشارات هذا عدة معارك حاسمة انتهت بمقتل السلطان تكمه وعمه ماريوه ، ودان له ثمانية من كبار ملوك النيام نيام الذين كانوا في حروب مستمرة بعضهم ضد البعض فلما تولى أمرهم الزبير ألف بينهم ، وبسط الامن بين ربوعهم ، فصاروا يتعاملون فيما بينهم بالبيع والشراء والمصاهرة وسمع من بجوارهم من

لسود باخبار عدل الزبير ، وما نال الذين دخلوا تحت طاعته من
لراحة والامن وسعة العيش ، فاقبلوا عليه مقدمين فروض الطاعة
رغبتهم فى أن ينصب عليهم الزبير حكاما من قبله فاجابهم الى
لك واتسع نطاق ملكه اتساعا عظيما .

وعلى الرغم من ظروف الحروب التى خاضها مع العديد من
سلاطين وملوك الجنوب ، فانه لم يهمل أمر تجارته بل على
لعكس من ذلك تابعها فى توسيع كبير حتى انه قام برحلة طويلة
لى الجنوب والغرب من ديم الزبير استغرقت ثلاثة عشر شهرا
حتا من العاج فى تلك المناطق ، وفى هذه الرحلة وصل الى أرض
نيكى تيكى وهى على مسيرة تسعة أيام الى الغرب من اقليم
ونياتو وكان يقطنها قوم من الاقزام ذوى الاجسام الغليظة واللحى
لمسترسلة ، وكانوا يقصونها بطريقة معينة حتى لا تصل الى
لارض ، وكانت جماعة الزبير فى هذه الرحلة تتكون من خمسة
وسبعين رجلا وكانوا يقايضون بالخرز كل ما يلزمهم من الاقوات
وسن الفيل . وقد وصلوا فى احدى جولاتهم فى تلك المناطق
لى اقليم يسمى أبو دنجا(٤٣) ويقطنه هو الآخر قوم من الاقزام
زرعون الخرز فى الارض على انه حب من الحبوب ينبت بالزراعة،
علمهم الزبير واتباعه كيف يستخدمونه ، وكانوا يحبون بالاسلام
يحرصون على الصلاة وختان الصبية(٤٤) .

واذا القينا نظرة على حياة الزبير فى هذه المرحلة نجده
قد القت به ظروف حياته فى هذه الرحلة من عمره الى ميادين
القتال والحروب فعاش فيها باحساسه وانفعالاتها . ويتلخص
التغيير الذى حدث فى حياة الزبير فى تلك الفترة فى النقاط
الآتية :

اولاً : حقيقة يجب ان يذكرها التاريخ والمهتمون به هي أن الزبير كان ضمن اوائل التجار المغامرين الذين طرقوا ابواب الجنوب وسموا اليه مع بداية ازدهار وتجارة العاج ، وغيرها من حاصلاته طلبا للثروة والسلطان ولم يكن لأى فرد أن يقوم بذلك الا من توافرت لديه القوة والشجاعة . لأن ما عرف عن هذه البلاد بما تضمه من قبائل همجية اختص بعضها بعادات دنيئة منها الجنوح الى النمنمية كانت بمثابة العائق المثبط لهمم الكثيرين والتخلي عما يراودهم من افكار وذلك لعدم توافر الشجاعة والجراة لديهم . علاوة على الكثير من المساحات الشاسعة التي تكسوها الغابات الاستوائية والاجراش الموحشة ، وما تضمه هذه الغابات والاحراش من مخاطر واهوال يحسب لها الانسان الف حساب ، وقد كانت هذه الصفات متوافرة لدى الزبير بدرجة كبيرة .

ثانياً : ان من ينظر الى الجنوب بقبائله واحراشه وغاباته وحيواناته يشفق على نفسه من أن يجتازه منفردا خشية الوقوع ضحية الاخطار التي تكمن في تلك الأصقاع لذلك اصطحب التجار الذين ارتادوا هذه المناطق العديد من الاتباع السود الذين استأجروهم او اشتروهم بغرض الحماية لانفسهم من مخاطر الطرق ، وليكونوا لهم عونا في نقل ما يحملونه من بضائع ، وليتخذوا منهم مرشدين وأدلاء في رحلاتهم عبر هذه المناطق ، هكذا كان الهدف من شرائهم او استئجارهم . ولم يكن قصد جميع التجار استرقاقهم كما كان يعتقد . وهذا هو الذي فعله الزبير حينما قصد الجنوب مع رهط من هؤلاء فكانوا له خير عون ، وكان لهم نعم الأخ والصديق . لذا وجب أن ننفي بشدة ما التصق به من تهمة الاتجار في الرقيق . لأن الجنوب بحاصلاته وموارده مثل العاج وريش النعام وغيره كان متسعا لان يتجر فيه اى انسان دون ان

يمير انتباها لسلعة اخرى كالرقيق مثلا . وان وجد هناك من التجار من كان يتجر فى الرقيق بالبيع والشراء .

ثالثا : ان من يعرف الاصالة العربية العريقة التى انحدر منها الزبير يتأكد له مدى حرص هؤلاء القوم على احترام النفس البشرية ، وهذا يدفعنا للقول بأن القصد الذى انتهى اليه مؤرخى الغرب من ان رحلات الزبير الى الجنوب كان القصد منها الاتجار فى الرقيق(٤٥) ينتفى تماما أمام هذه الحقيقة التاريخية ، لذلك فان ما اشتراه الزبير من رجال سود اثناء اقامته ببلاد السلطان تكمه كان معظمهم من المجرمين والمنبوذين من المجتمع ، الذين كانوا ينتظرهم القتل عقابا لما اقترفوا من جرائم ثم التهام لحوم أجسادهم، فكان القصد من شرائهم هو انقاذ حياتهم أولا ، وفتح سبيل العيش الكريم امامهم . ولان معظمهم من اشداء القوم واصلبهم عودا فكان ان اشتراهم الزبير لكى يكون منهم جيشا مسلحا بالبنادق يستطيع حمايته وحماية تجارته من بطش سلاطين الجنوب، الذين ما برحوا يضيقون الخناق عليه فى كل مكان فيه امثال السلطان تكمه وعدوه شكو . وابنه شيجا ، وغيرهم ممن لم يذكرهم التاريخ .

رابعا : كان لطبيعة الزبير السمحة وما اتصف به من كرم ورجاحة فى العقل اثره فى طبع معاملاته وتصرفاته وسلوكه مع سلاطين هذه البلاد بالطابع المحمود الذى أدى به فى النهاية الى اكتساب صداقة هؤلاء الزعماء فى سهولة ويسر وأدت أيضا الى أن يعرض هؤلاء السلاطين على الزبير شرف تزويجه من بناتهم وانتسابهم اليه ، فقد رأيناه قد تزوج رانبوه ابنة السلطان تكمه وابنة الملك كريم . وبهذه الرابطة رابطة النسب وصلة الدم استطاع أن يكسب تأييد وصداقة هؤلاء الملوك والسلاطين ، فقد

منعت حرمة المصاهرة السلطان تكمه من قتال الزبير فى المرة الاولى .

خامسا : لم يقصد الزبير عندما دخل بلاد الملك عدوه شكو الانتقام لما حدث لاخيه ومن معه على يد هذا السلطان ، بل كان قصده التجارة ، ولكن اصرار عدوه شكو على ضرورة مغادرة الزبير لبلاده — فى وقت كانت فيه الامطار تهطل فيه بغزارة والطرق كلها مغلقة — مما ارغم الزبير على حربه انقاذا لنفسه ومن معه والاستيلاء على بلاده . بل كان هذا سببا فى تكوينه لمملكة عظيمة فى تلك المناطق مع جيش قوى وتجارة ناجحة رابحة .



هوامش الفصل الاول

(١) Shukry M.F. The Khedive Ismail and slavary in the Sudan (1869 — 1879) PP. 104, 147.

(٢) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٦ .

(٣) Jackson, H.C. : The black ivory and white PP. 5 — 6.

(٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٦ — ١٧ .

(٥) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٧ — ١٨ .

(٦) الجانكاه Janket ويسكنها قبائل الجانقى وهم فرع عظيم من الدنكا واكبر قبائل بحر الغزال وأشدهم بأسا وأطولهم قامة ومساكنهم السهول الواطئة الشمالية .

(٧) الجور : وبلادهم بين الدنكا والبنقو وهم يرجعون فى أنسابهم الى الشلك ويتكلمون لغتهم ولا يعنون باقتناء الابقار كغيرهم من السود بل يهتمون بالزراعة ويشتغلون بالحديد ولهم معرفة بحفر الخشب وعمل التماثيل .

(٨) الزريبة : هى فضاء مسور به مساكن يودع فيها التجار السلع والأمتعة والخيل والماشية الخاصة بهم .

(٩) سن الفيل : واكثر وروده من بحر الغزال وخط الاستواء وهى تختلف فى الجودة بحسب كبره وسلامته من التشقق وسن الانثى اطرى وأجود من سن الذكر .

(١٠) ريش النعام : وأكثره من أواسط السودان واجود انواعه الريش الأبيض ثم الاسود وكلاهما ريش الذكر ثم الربدة ولونه رمادى وهو ريش الانثى .

(١١) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٨ — ١٩ .

(١٢) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٣ ص ٦١ — ٦٢ .

(١٣) Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 9 — 12. (Golo)

(١٤) التولو : وهم من عرب قبائل البنقو ويشبهونهم في عوائدهم واخلاقهم وعــــــاداتهم .

(١٥) ام الصواف : وهي التسمية التي يطلقها سكان هذه المناطق على اشجار الغاب التي تنمو على ضفاف بحر الغزال وبحر العرب وكان يحدث ان تقلع الرياح التي تصاحب موسم الامطار هناك هذه الاشجار وتلقيها في النهر فتسحب مع مياهه الى أن تصل الى أحد منعرجاته التي تعوق تقدمها فتقف وسرعان ما تمتد جذورها الى اسفل حتى تلتصق بقاع النهر وهكذا تثبت في مجراه وتعوق بذورها اغصان الاشجار والأعشاب الطافية في المياه فتتجمع هذه من حولها ويتكون من الجميع سد عريض قد يمتد في النهر لعدة أميال طويلة .

(١٥م) البنقو Bongo ويســــكنون الســـهول المرتفعة جنوبهم وهم ارقى قبائل بحر الغزال بل هم في رأى كونفورث الالماني أرقى عقلا من سائر قبائل السود ، ويمتازون عنهم بالوداعة ولين الجانب وحب العمل والفرق بينهم وبين جيرانهم الدنكا في اللون كنسبة الفرق بين تربة القبيلة الواحدة وتربة الأخرى فتربة البنقو حمراء قاتمة فيها من الحديد وتربة الدنكا سوداء اذ لا حديد فيها . ولذلك ترى لون الدنكا أسود حالكا ولون البنقو احمر قاتما وهم يستخرجون الحديد ويشتغلون به

(١٦) Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 12 — 14.

(١٧) هـ . س جاكسون (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) غردون باشا ص ٦٥ — ٦٦ .

(١٨) Jackson, H.C. Op. Cit., P. 14.

(١٩) محمد عوض محمد (دكتور) : الشعوب والسلالات الافريقية ص ١٨٨ — ١٩٠ ، ١٩٢ .

(٢٠) ابراهيم فوزي : السودان بين يدي جوردون وكتشنر جـ ١ ص ٢٣ .

(٢١) نورانجره Nur Angra تميز بطول القامة والسواد الذي يضرب الى اللون الأسود النحاسي وعلى خديه ثلاثة خطوط طولية ، ويتميز بنظرة حادة صارمة تنم عن قدرة ونشاط ولكنه عندما يتحدث يبدو كأنه انسان مسالم طيب . وهو دنقلاوي كان قد احضر بواسطة ملك الشايقية الذي كان يعمل كسنجق ، ويدعي نورانجره أنه ينحدر من سلالة ملوك الشايقية عندما احضروه وهو طفل الى القاهرة . وقد حصل على كثير من السمعة والتوصية الطيبة من الحكومة بسبب اتصاله وارتباطه بكل من الزبير رحمه وابنه من بعده .

(٢٢) Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 14 — 17.

(٢٣) نهر البنقو : أحد فروع بحر الغزال .

(٢٤) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٣ — ٦٤ .

(٢٥) النورابين : وهم يسكنون بين بحر ست وبحر الغزال وفي بلادهم يتسع النيل وتكثر السدود والمستنقعات حتى أن بعضهم يسكنون الجزر فيعيشون على الاسماك والنباتات والطيور المائية .

(٢٦) نعوم شقير : نفس المرجع ج ٣ ص ٦٤ .

(٢٧) نعوم شقير : نفس المرجع ج ٣ ص ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢٨) شول : كانت امرأة من اثرياء قبيلة دنكاوية تسمى دنكا ومازال الأهالي حتى اليوم يتحدثون عن قوتها وبطشها بل عن بشاعة خلقتها أيضا .

(٢٩) السنيورة ، وهي الترجمة للكلمة الاسبانية — Senora ومعناها سيدة ويقابلها في اللغة الايطالية كلمة — Signora ومعناها أيضا السيدة .

(٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٣٦ — ٣٧ .

(٣١) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٣٧ — ٣٩ .

(٣٢) أومغبوه كما ورد في كتاب نعوم شقير ص ٦٦ سطر رقم ٥ .

(٣٣) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٦٦ .

(٣٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٠ — ٤١ .

(٣٥) سيراجو : وهو تل طويل يبلغ عرضه حوالي الميل ويتكون من صخور حادة ناتئة تتخللها هنا وهناك مناطق من الأرض الخصبة التي تتجمع فيها الأهالي ليقوموا بالزراعة حول مياه الينابيع المتفجرة التي كانوا يشربون منها ويسقون أرضهم .

(٣٦) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٤١ — ٤٣ .

(٣٧) ديم الزبير : وقد عرفت باسم بابه أما كلمة ديم — Duehm جمعها اللغوي دوهم — Dehm وهي كلمة يطلقها الخرطوميون على أسواق تجارة العبيد والعاج الكبيرة التي يقيمونها في الغرب ، وهي تعني الزريبة أما ديم الزبير فهي العاصمة التي اتخذها لملكه وبنى لنفسه فيها زريبة تقع على ارتفاع ٢٢٨٣ قدما فوق سطح البحر أو على ارتفاع ٤٦٤ قدما من زريبة باسيلي وغطاس و ٧٣٧ قدما من ارتفاع المستوطنة الرئيسية لغطاس Ghattas وهي أعظم ضياع أو مقاطعات تجار الرقيق . وقد عرفت أحيانا باسم ديم سليمان وهي مقسمة الى ثمانية أقسام كل قسم منها برأسه ناظر .

(٣٨) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٤٣ .

(٣٩) انظر تفاصيل موضوع حملة محمد البلالى الفصل الثانى .

(٤٠) عبد الرحمن زكى : أعلام الجيش والبحرية فى مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٢ .

(٤١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٣ — ٦٤ .

(٤٢) الرونجا : عبارة عن قطعة كبيرة من الخشب المجوف على هيئة البقرة أو الفيل تقرع بواسطة ثلاث شعب من الملاط ويستطاع بواسطتها أن توجه الى أبعاد شاسعة مختلف الاشارات كالدعوة للحرب او الحصاد أو صيد الفيلة وكان لهم فى هذا شفرة خاصة يفهمها الاهالى فى مختلف قراهم .

(٤٣) أبو دنجا : وهو اسم يطلق على شعب زنجى مختلف تماما على نمط شعوب النيام نيام ويجرى بالاقليم الذى يسكنه هولاء القوم نهر يطلق عليه الخرطوميون اسم بحر ابودنجا على مسيرة يومين ونصف من داربندا وكان هذا النهر معروفا جيدا للزبير وجماعته الذين كانوا يقومون بزيارة سنوية للاقليم الذى يسكنه هذا الشعب الذى يطلق عليه ابودنجا .

(٤٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٦٤ — ٦٥ .

(٤٥) انظر الفصل التالى تفاصيل موضوع تجارة الرقيق .

❋ ❋ ❋

الفصـــــل الثـــــانى

الدور الذى لعبه الزبير فى بحر الغزال وبــلاد شـــكا

الدور الذى لعبه الزبير فى بحر الغزال وبــلاد شــكا

لم يقتصر دور الزبير على المشاركة فى الاحداث التى وقعت فى بحر الغزال فقط ، بل تحمل اعباء فتح هذه المديرية وتأمينها من الاخطار التى كانت تحيط بها من كل جانب ، والعمل على عمارتها ونشر العدل والسلام بين ربوعها ، وهو بعمله هذا اضاف الى مصر اراضى جديدة لم تكن لها من قبل .

موقف الحكومة المصرية من تجارة الرقيق فى السودان :

كان الرق موجودا فى السودان قبل فتح محمد على ، وكان السودان يصدر الرق الى مصر وبلاد العرب قبل أن تدخل الجيوش المصرية مملكة سنار ، وكان العمل فى الحقول ورعاية الماشية من عمل الرقيق ، وليس من أعمال السادة العرب ، وكان الرق يمثل نظاما اجتماعيا ، واذا كان محمد على قد قرر فتح السودان لتزويد الجيش المصرى بحاجته من المحاربين من السودانيين(١) فان الحكومة المصرية توقفت بعد ذلك عن ارســال الغزوات الى السودان للحصول على الرقيق بعد ثبوت عدم امكان استخدامهم فى الجيش المصرى ، كما بدات تغير سياستها ، فاتجهت نحو

التوسع بغية محاربة هذه التجارة ، الا ان هذه السياسة لم لها النجاح الكامل وكان ذلك لاسباب كثيرة منها :

اولا : فى الوقت الذى بدات فيه مصر تنفذ هذه السيا كانت هنـــــاك بعض حـــكومات فى اوروبا لاتزال تمارس التجارة(٢) .

ثانيا : ظل عدد كبير من التجار الاوربيين يعارضـــــون حكوماتهم مدة ليست بالقصيرة على الرغم من وجود الاســـ البريطانى فى مياه المحيطين الهندى والاطلنطى لضبط السفن تحمل الرقيق ، وتقدم هؤلاء التجار الى المحاكمة .

ثالثا : كان الرق فى السودان جزءا من نظام اقتصادى عليه الحياة الاقتصادية فى هذا الجزء من العالم .

رابعا : بعد مراكز تجارة الرقيق عن حكومة القـــاهر وانعدام المواصلات الســـريعة مما جعل اشـــراف القاهرة سياسة الالغاء وامور الحكم فى السودان يكاد يكون منعدما(٢)

خامسا : استمرار الصياديين فى غزواتهم الموفقة مستخد الاسلحة النارية وهى اسلحة فتاكة ليس فى الامكان مقاومتها جانب الرقيق ، الذين كانوا يقاومون بعض المقـــاومة عندما الصيادون يستخدمون الحراب والسيوف .

لذلك لم يكتب النجاح لسياسة الحكومة المصــــرية ، و الحال على ما هو عليه بل ان الامور اخذت تسير من سيىء اسوأ ، وفى عهد محمد على ايضا اقترح احمد باشا المنكلى

عدة نظم لاحتكار تجارة النيل الابيض بواسطة الحكومة فى مصر ، ولكن محمد على لم يوافق عليها منعا لاحتجاجات الأوروبيين الذين بدأوا يمارسون تجارة العاج والمواد الاخرى المصرح بها ، وفى ظل حكم عباس الاول(٥) انشئت القنصليات الأجنبية وتبع ذلك تعمق التجار الاجانب نحو الجنوب بطريق النيل الأبيض ، وزيادة عددهم ، ونشاطهم الذى امتد الى نهر السوباط ، وبحر الغزال ، وغندكرو . وفى عهد سعيد(٦) التحق فى خدمتهم عدد كبير من السودانيين الفارين من دفع الضرائب الباهظة التى لم يكن فى مقدورهم تحملها ، وخاصة سكان دنقلة . انتهز التجار المصريون الفرصة فبداوا ينشئون الزرائب ، واستخدموا هذه العناصر الجديدة لحمايتهم وحماية تجارتهم ومحطاتهم وفى البداية كانت التجارة الشرعية فى مواد وحاصلات الجنوب هى المورد الاساسى فى عمليات الكسب ، ولكنهم سرعان ما ادركوا أن اصطياد الرقيق وتصديره للخارج أجدى وانفع من التجارة المصرح بها ، وتبعا لذلك اصبح التجار يقومون بغزواتهم بهدف اصطياد الرقيق من الزنوج مستندين فى ذلك الى زرائبهم التى اعتبروها كحصون لهم ، واستعان هؤلاء التجار سواء من العرب أو الاجانب بقبائل موالية للاغارة على قبائل اخرى معادية لها ، واصبحت المراكب تحمل بدلا من العاج الابيض عاجا أسود الا وهو الرقيق ، ومر الرحالة على هذه الاقاليم ، وهى خالية من سكانها الذين افقدهم هؤلاء التجار حريتهم وآدميتهم ، وجعلوهم سلعة تباع وتشترى ، وقد وصل هؤلاء التجار الى القمة من حيث الجشع وحب جمع المال وقد ذكر الرحالة والمكتشفون كل ذلك فى مذكراتهم وتقاريرهم التى قدموها لحكوماتهم(٧) .

تولى اسماعيل باشا(٨) حكم مصر ، وحالة تجارة الرقيق كما هى بعد أن فشلت الاجراءات التى اتخذها من سبقوه فى الحكم ، فعزم على المضى قدما فى سياسة الالغاء . وبدأ يتخذ

من الوسائل ما رآها كفيلة لتنفيذ السياسة وكان للفاعلية والجدية اللذين تميزت بهما جهود اسماعيل باشا . لتنفيذ ما اعتزم عليه . الفضل الأول فى الحد من هذه التجارة شيئا فشيئا ، بل انها كادت تختفى فى بعض المناطق بفضل هذه السياسة ، اما الاجراءات التى اتخذها اسماعيل باشا لتنفيذ سياسته فتتلخص فى الآتى :

أولا : فرض موسى حمد باشا (٩) اول حكمدار فى عهد اسماعيل باشا . ضريبة سميت « بالسوبركو » على كل بحار أو عامل على المراكب التى تسير فى النيل الابيض .

ثانيا : تشديد الرقابة على النيل بالوابورات الحكومية ، حتى لا تهرب المراكب المهربة من انظار الحكومة .

ثالثا : كان لضرورة السيطرة على المراكب القادمة من بحر الغزال ، وبحر الجبل ، ونهر السوباط . انشاء مدينة بها حماية قوية فى موقع استراتيجى يكون عند ملتقى هذه الطرق الملاحية الثلاث ، فكان انشاء فاشودة كعاصمة لمديرية البحر الابيض خطوة مهمة .

رابعا : تم حظر ارسال او توريد كافة انواع الاسلحة والذخائر الى هذه المناطق حتى لا يقوى اصحاب الزرائب على المقاومة .

خامسا : منع قناصل الدول الاوربية من اضفاء أى نوع من انواع الحماية على من يسىء استخدامها من التجار .

سادسا : العمل على شراء الزرائب من التجار ، وبلغ ما دفعته الحكومة فى عهد جعفر باشا مظهر(١٠) ما يزيد على المائة الف جنيه ، ولكنها لم تستطع الاستمرار فى المحافظة عليها .

سابعا : السيطرة على المنافذ الرئيسية لتصدير تجارة الرقيق بالحاق ميناءى سواكن ومصوع على البحر الاحمر بادارة السودان، وبذلك امكن ضبط الارساليات الكبيرة من الرقيق المصدر .

ولم يطق التجار الصبر على هذا الوضع ، بل اخذوا فى التحايل للتهرب من هذه الاجراءات فكان من نتيجة ذلك ان :

اولا : استمر التجار فى السيطرة على المنابع الرئيسية لهذه التجارة البشعة التى لم يكن لسلطة الحكومة فيها اى اثر .

ثانيا : بدأ التجار فى مراوغة الدوريات النهرية المسلحة التى عينتها الحكومة لضبط هؤلاء التجار ورقيقهم . وينزلون رقيقهم فى اماكن بعيدة من نقط المراقبة ، ويسوقون سلعتهم بعدها عبر الجزيرة الى الشرق عن طريق الموانىء الصغيرة التى لا تخضع لادارة الحكومة .

رابعا : التجأ بعض تجار الرقيق الى استخدام الرشوة لتسهيل اعمالهم ، وخضع لذلك بعض ضعاف النفوس من موظفى الحكومة بالسودان .

خامسا : اصبح من الصعب على الحكومة فرض سيطرتها على هذه البقاع الشاسعة التى تضم الغابات والاحراش الكثيفة والمجارى المائية المتسعة ، يضاف الى ذلك انعدام وسائل الاتصال والمواصلات بين هذه الاجزاء المتباعدة(١١) .

وعندما عين السير صمويل بيكر — S.S. Bakar (١٢) . حاكما لاعالى النيل نص فى البند الثانى من عقد استخدامه ، أن يكون القضاء على تجارة الرقيق من اختصاصه ، واستعمل السير صمويل بيكر اقسى وسائل العنف ضد تجار الرقيق ، مما اثار عليه ثائرة الاهالى الذين لهم مصالح فى استمرار هذه التجارة

البغيضـــــة ، ولكن ما انتهت فترة عقده مع الحكومة حتى أدى ذلك الى عودة الحال الى أسوأ ما كان عليه ، وفقدت الحكومة معظم نفوذها وسلطاتها فى تلك الانحاء ، فرأت الحكومة أنه لابد من ايجاد خلف قوى للسير صمويل بيكر يستطيع أن يجد مخرجا لهذه المشكلة المتفاقمة فى الشرق ، فكانت أن عينت جوردون — Gordon (١٣) حاكما على مديرية خط الاســـــتواء فى فبراير سنة ١٨٧٤ وبدأ جوردون منذ لحظة توليه زمام الامور فى هذه المنطقة فى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالقضاء على هذه التجارة فكانت كالآتى :

أولا : ادخال السفن الحكومية الى بحيرتى البرت وفيكتوريا لامكان مقاومة تجارة الرقيق ، وفتح أبواب البلاد للتجارة المصرح بهـــــــا .

ثانيا : اصـــدر تعليماته باحتكار تجارة العاج لحســــــاب الحكومة .

ثالثا : حظر الســـفر الى الجنوب لاى شــخص ماعدا من يحمل تصريحا بذلك .

رابعا : قام بحل الجماعات المسلحة داخل المديرية .

خامسا : قام كذلك بانشـــــاء عدد من النقط والمحطـــات العسكرية على طول النيل الابيض الاعلى .

سادسا : اصدرت الحكومة المصرية قرارا فى فبراير سنة ١٨٧٢ باحتكارها لكل أنواع التجارة فى اقاليم النيل العليا وعادت مشـــــكلة تجارة الرقيق الى ما كانت عليه ، عندما ترك جوردون وظيفته كحاكم لمديرية خط الاســـتواء واصـــاب الجهود المبذولة للقضاء عليها بعض الجمود والفتور ، ماعدا ما قام به الزبير ،

فقد قدم ولاءه للحكومة ، وامتنع عن ممارسة هذه التجارة واشترك مع اسماعيل باشا أيوب(١٤) في فتح سلطنة دارفور باعتبارها مركزا مهما من مراكز تجارة الرقيق(١٥) .

عزم الخديو اسماعيل باشا على مواصلة جهوده من أجل حسم أمر هذه المشكلة الشائكة بجانب ما ظهر من مشاكل أخرى من السودان في هذه الآونة ، وذلك انقاذا لجهوده السابقة ، وما انفقه من أموال طائلة في هذا السبيل ، كما ان تراجعه عن مواصلة هذا السعي كان يعني تنازله عن جزء كبير من نفوذه ، وكان الخديو مثله في ذلك كمثل رجل أعمال تعدى نشاطه حدود امكانياته واصبح مهددا بالافلاس ، ولكنه يصر على مواصلة نشاطه على أمل أن يواتيه الحظ ، فاذا كانت تجارة الرقيق لم تؤت اى ارباح فلان هناك مصادر طبيعية أخرى يمكن أن تاتى بعائد مثل تجارة العاج ، وعلى الرغم من أن الافيال كانت تصاد باعداد هائلة الا انه كان لايزال هناك المزيد من الفيلة ، كما أن الطلب شديد على العاج من اجل صناعة كرات البالياردو ، ومفاتيح البيانو ، والتماثيل، وكانت تجارة الصمغ العربى ، وريش النعام تدر ربحا وفيرا بالاضافة الى منتجات اخرى عندئذ خيل للخديو اسماعيل انه لا منقذ للبلاد من هذه المشكلة سوى صديقه جوردون ، فارسل اليه برقية في السابع عشر من يناير سنة ١٨٧٧م يستدعيه لهذا الغرض ، ولم يأت فبراير من نفس العام حتى كان جوردون في القاهرة ، كانت شروطه أن يكون حاكما على السودان كلها . مليون ميل مربع . وأن تكون له الحرية الكاملة في القضاء على تجارة الرقيق . فوافق الخديو على شروطه في الحال ، وكتب سير ايفلين بارنج(١٦) S. Evelen Barin الممثل البريطاني في القاهرة يقول حتى اذا افترضنا أن الخديو كان مخلصا في رغبته في القضاء على تجارة الرقيق واصلاح السودان ، فقد كان من المؤكد انه لا يستطيع تحقيق

ذلك . وكتب الخديو لجوردون يطلب منه استخدام كل ما منحه من وسائل القوة ، واتخاذ أى اجراء يراه ضروريا ، فكان هذا ما قام به جوردون فعلا فى السودان(١٧) .

وفى الرابع من صفر سنة ١٢٩٤ هـ الموافق الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٧٧ م صدر فرمان بتعيين جوردون حكدارا لعموم السودان(١٨) ووصل جوردون الى الخرطوم فى مايو سنة ١٨٧٧ م، وبدأ يمارس مهام وظيفته الجديدة باتخاذ عدة اجراءات منها :

اولا : طرد كل من شك فى اخلاصه من موظفى الحكومة بشأن تحرير الرقيق ، واستبدل بهم موظفين اوربيين(١٩)

ثانيا : استطاع بالتعاون مع رومولوجسى(٢٠) فى مطاردة تجار الرقيق بمنطقة بحر الغزال ، احد المراكز الرئيسية لهذه التجارة والقاء القبض على ثلاث وستين قافلة وتحرير اكثر من الفى فرد من الرقيق .

ثالثا : طرد حوالى اربعمائة وسبعين تاجرا للرقيق فى يوم واحد اثناء زيارته لأحد الاقاليم(٢١) .

وبينما جوردون يجتهد فى علاج مشكلة الرقيق ، كانت المفاوضات ماتزال قائمة بين الحكومتين البريطانية والمصرية منذ مدة أربع سنوات ، من أجل اتخاذ قرار حاسم للقضاء على هذه التجارة ، وقد انتهت هذه المفاوضات بابرام معاهدة الغاء الرقيق(٢٢) فى الرابع من اغسطس سنة ١٨٧٧ م(٢٣) .

ورغم كل هذه الجهود والاجراءات التى اتخذت من قبل « المسئولين فى كل من القاهرة والخرطوم » للقضاء على مشكلة تجارة الرقيق، الا أنها لم تسفر عن نتيجة كاملة للنجاح، بل استمر الكثير من التجار يمارسون هذه التجارة وزاد على ذلك انهم

كونوا فيما بينهم جماعات مسلحة أشبه بالعصابات لحماية متاجرهم، والضرب بها على الأيدى التى تمس تجارتهم بسوء ، فكان من نتيجة ذلك ان الحكومة رات انه لا حل لهذه المشكلة الا بضم هذه المناطق واخضاعها بالقوة العسكرية لسيطرة الحكومة . فكانت بداية ذلك ضم منطقة بحر الغزال .

التفكير فى ضم بحر الغزال(٢٤) :

اصبح ضم منطقة بحر الغزال امرا لا مناص منه ، وخصوصا عندما فشلت الجهود التى بذلتها الحكومة فى سبيل القضاء على تجارة الرقيق فى مناطق جنوب السودان ، وخاصة منطقة بحر الغزال باعتبارها احد المراكز الرئيسية لهذه التجارة التى يتجمع فيها كل من التجار والرقيق معا ، وقد ساعد على استفحال امر هذه التجارة بعدها عن مراكز السلطة الحكومية ، وضعف السيطرة على طرق تهريب الرقيق منها الى بقية اجزاء السودان وخارجها .

وحتى سنة ١٨٦٩ م الموافق سنة ١٢٨٦ هـ لم يكن الحكام المصريون فى السودان يميلون الى استخدام العنف فى محاربة تجارة الرقيق الا عند الضرورة القصوى ، وكان ذلك يتم بمنتهى المهارة والحكمة ، وذلك بدفع التجار بمهاجمة بعضهم البعض ، بدون ادنى تضحية من جانب الحكومة ، مؤكدين فى نفس الوقت سلطانهم عليهم . ولكن منذ هذه السنة احس تجار الرقيق فى بحر الغزال بقوتهم ، فرغبوا فى تحدى الحكومة المصرية ، بالامتناع عن دفع المبالغ السنوية المقررة عليهم للحكومة . وولوا امرهم الى الزبير رحمة ، الذى ذاعت شهرته فى جميع ارجاء السودان ، واصبح اكبر شخصية سودانية ظهرت فى القرن التاسع عشر(٢٥) .

وقد توالت بعد ذلك الاتهامات الموجهة ضـــــد الزبير على اعتبار انه المحرك لهذا العصيان ، وانه عندما أصبح التجار تحت قيادته رفضوا دفع الضريبة السنوية ، وساد شعور فى القاهرة فى هذه الآونة بان جرائم هؤلاء التجار قد استفحل امرها لدرجة يســـــتحقون معها القصاص . وكان للزبير احترامه وتقديره حين كان فى اوج قوته وعلى راس هذا التحالف الذى يجمع تجار الرقيق، كان يجب أن يتباهى بهذه البطانة من الاتباع ، كذلك تمرس على السلطة فى اقاليم واسعة بفضل جيش قوى . وفى أوائل سنة ١٨٦٩ م كان الزبير بالفعل الحاكم المستقل باقليم بحر الغزال وقد صمم الخديو اسماعيل على تاكيد حقوقه فى تلك الاصقاع وقمع ثورة هؤلاء التجار الذين تمردوا ورفضوا دفع الضرائب(٢٦)

وقد كان لظهور الزبير رحمة ، الذى كان معروفا بالباشا الأسود والملك والسيد لثلاثين محطة تجارية ، والذى عاش فى قصر باحدى مقاطعاته عيشة فيها ثراء الملوك مع عدد كبير من الزوجات والمحظيات ، مع قيام ثورة هؤلاء التجار ، من الأسباب القوية التى ادت بالحكومة الى تغيير سياستها تجاه هذه التجارة ، وجعلها تسرع الخطى فى ايجاد الوسائل الكفيلة باظهار سطوتها ونفوذها فى تلك المناطق(٢٧) يضاف الى ذلك ما كان ينقله الرحالة والمســـــتكشفون للحكومة من اخبار سيئة عن احوال اقليم بحر الغزال وما جاورها ، واستفحال أمر هذه التجارة بها ، لذلك صمم الخديو اسماعيل انه لابد من ضم الاراضى التى يتلاعب فيها هؤلاء التجار الى ممتلكاته ضما نهائيا ، وايجاد الحماية الكافية لها ، فكان ان أرسلت الحكومة حملة تحت قيادة محمد البلالى(٢٨) لهذا الغرض(٢٩) .

حمـــلة البـــلالى :

بدأ الزبير حياته كمحتسب بسيط ولكن ذكاءه وصـــــفات الزعامة والقيادة التى امتاز بها على من حوله جعلته يتقدم خطوات فى التجارة من ناحية ، والملك والسلطان من ناحية اخرى ، واصبح له بالتدريج شأن يختلف عما كان عليه أقرانه من التجار ، وصارت جهات بحر الغزال الغربية تحت نفوذه التجارى والادارى ، وعقد له التجار لواء الزعامة التى وصل اليها بأجتهاده وصفاته(٣٠) .

وســــرعان ما بدأت صفة الزبير كتاجر تختفى شيئا فشيئا لتخلى المكانه لصفته كحاكم لهذا الاقليم يبرم المعاهدات والاتفاقيات وتأتيه الوفود طمعا فى عدله وطلبا للطمانينة والسلام الذى اشاعه حكمه فى تلك الاقاليم التى اعتادت القسوة والظلم من قبل حكامها ، غير أن الزبير لم يكد يصبح الحاكم الحقيقى لاقليم بحر الغزال(٣١) حتى بعث الخديو بخطاب الى جعفر مظهر باشا حكمدار السودان تاريخه الثامن والعشرون من ذى الحجة سنة ١٢٨٥ هـ الموافق الثانى عشر من ابريل سنة ١٨٦٩ م يطالبه فيه بضم هذا الاقليم ، وكان جعفر باشا مظهر سبق أن اقترح ضمه لحاكم حكومة السودان فى خطابه للجناب العالى بتاريخ الخامس عشر من شوال سنة ١٢٨٥ الموافق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٩ م(٣٢) وطبقا لأوامر الخديو وضع الحكمدار الخطة لاخضاع اقليم بحر الغزال لسيطرة الحكومة وكلف بهذا العمل محمد البلالى وتدعيما لمركزه عينه الخديو مديرا على هذا الاقليم لتوطيد سلطة الحكومة المصرية به(٣٣) .

تحرك محمد البلالى من الخرطوم فى سنة ١٨٦٩ م قاصدا احتلال اقليم بحر الغزال ، وكان الجيش الذى وضعه الحكمدار تحت امرته يتكون من مائة وخمسين نفرا مسلحين من اتباع واقارب

البلالى نفسه بصفة عساكر ،شاة وعليهم ثلاثة رؤساء بلوكباشية من اقربائه ، وكذا مائتا نفر من جنود البيادة من قبل الحكومة تحت امرة مامور وضباط وتعيين كجوك علي اغا(٣٤) سربيادة لقسم بحر الغزال ، وهذا ما ورد ذكره بالخطاب الذى بعث به الخديو للحكمدار بتاريخ الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٨٥ هـ الموافق الثاني عشر من ابريل سنة ١٨٦٩ م(٣٥) الا أن سعد الدين يذكر أن هذا الجيش كان يتكون من مائتين من الجنود السودانيين بقيادة الصاغ محمد افندي منيب واربعمائة من العساكر الباشبوزق(٣٦) بقيادة اليوزباشي كوتشوك علي بالاضافة الى ستمائة رجل من الخطرية(٣٧) .

والملاحظ انه لم يات اى ذكر بالوثيقة « لمحمد افندى منيب » والمرجح انه قد تعين بعد ذلك على المائتى جندى السودانيين ، كما لم يذكر بالوثيقة الاربعمائة جندى الباشبوزق الذين تعينوا تحت قيادة اليوزباشي كوتشوك علي ولا للستمائة رجل الخطرية ، والمؤكد أن السلطات التي فوضها الخديو اسماعيل للحكمدار لاتخاذ كافة التدابير اللازمة لنجاح الحملة ادت بالحكمدارية الى اضافة هذه الأعداد من الجنود للحملة وتزويدهم باللازم من السلاح والذخائر والذين لم يرد ذكرهم بالوثيقة ، وهى التى ادت بالتالى الى هذا الفارق فى العدد والنوعية بين ما ذكرته الوثيقة وما ذكره سعد الدين فى كتابه . ولم تهمل هذه الوثيقة ذكر ما تعين لهؤلاء الجنود من المرتبات والمؤن اللازمة ، وقد سر الخديو اسماعيل من اجراءات التنفيذ هذه ، غير أنه حذر حكمدار السودان من التساهل فى قوة هذه الحملة ، حتى تستطيع رد أى هجوم قد يقوم به سلطان دارفور(٣٨) .

ابرق الخديو اسماعيل فى السادس عشر من جمادى الاول سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثالث والعشرين من اغسطس ١٨٦٩ م

يستفسر من الحكمدار عما تم بخصوص ارسال القوة العسكرية المعينة لضم اقليم بحر الغزال(٣٩) . ثم بعث ببرقيتين الى حكمدار السودان فى ٢٣ جمادى الثانى سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثانى عشر من اكتوبر سنة ١٨٩٦ م يستعجل فيها ارسال الموظفين والجنود والحكام المقرر ارسالهم الى اقليم بحر الغزال(٤٠) كما صدرت ارادة سنية فى التاسع والعشرين من جمادى الآخر سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثلاثين من اغسطس سنة ١٨٦٩ م الى حكمدار السودان بعدم التراخى او الاهمال فى تنفيذ الاوامر الخديوية ، وضرورة اعطاء الاوامر والتعليمات للحكام المرسلين الى جهة بحر الغزال لمعاملة الاهالى بالرفق واللين وعدم فرض الضرائب الباهظة التى تثقل كاهل السكان ، والعمل على استمالة السكان وجلب محبتهم نحو الحكومة(٤١) .

وقد قابل محمد البلالى أثناء وجوده فى القاهرة الخديو اسماعيل ، وقدم نفسه على أنه المالك الوحيد لمناجم النحاس الموجودة فى جنوب دارفور فى المنطقة المعروفة باسم حفرة النحاس(٤٢) ، وأنه قد حصل على تلك الارض عن طريق الهبة من سلطان دارفور ، وزين للحكومة وجوب احتلال اقليم بحر الغزال ووافقت الحكومة المصرية على ذلك الرأى ، ووضعت تحت امرته القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف(٤٣) .

وكانت حملة محمد البلالى أول عقبة حقيقية تواجه الزبير ، كما كانت اول اختبار لدهائه السياسى بعد ان استطاع البلالى تضليل الحكومة المصرية عن حقيقة الموقف فى اقليم بحر الغزال ، واقناعها بأن تطلق يده فى هذه المناطق ، فكان من الطبيعى ان يصطدم البلالى بقوة الزبير وسلطانه وحقه فى البلاد التى فتحها بسيفه(٤٤) .

ولم تلبث الحكومة المصرية أن تبينت أن كل اقوال البلالى لا تعدو أن تكون مجرد ادعاءات كاذبة لرجل مخادع ، فهو لا يمتلك ارضا فى هذه المنطقة ، كما أن سلطان دارفور لم يهبه أى قطعة من الارض ، ولقد تسبب البلالى بادعاءاته الكاذبة هذه فى كراهية جميع الاهالى هنالك له ، وذلك انه القى الشك فى صحة ملكيتهم للأرض التى بنوا عليها مساكنهم وزرائبهم(٤٥) .

وبوصول البلالى اسرع الزبير لاستقباله وتحيته ، فالتقيا عند مشرع الرق ، ولم يرتح اليه الزبير منذ اللحظة الاولى ، وكان اللقاء بينهما فاترا مملا ، وقد استطاع الزبير من خلال الفترة التى قضاها فى معسكره أن يدرك أن العلاقة بين البلالى وعجوك على اغا ليست على مايرام ، وان الخلاف بينهما قائم ومتجدد على الدوام . ولم يلبث الزبير أن زود محمد البلالى بكل ما يحتاج اليه من الطعام والشراب ، ثم قفل عائدا الى الغرب لكى يمهد الطريق أمامه ، غير أن البلالى عاد بعد ذلك فتوقف عند زريبة على أبو عمورى(٤٦) وهناك توفى اليوزباشى كجوك على اغا ، فاستولى على اسلحته وامواله بمجرد وفاته معلنا مصادرتها باسم الحكومة(٤٧) .

وفى البرقية التى أرسلها الحكمدار للخديو فى الخامس والعشرين من رجب سنة ١٢٨٧ هـ الموافق الثانى والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٠ م تؤكد أن وفاة كجوك على اغا كانت طبيعية فقد ذكر « سربيادة كجوك على أغا الذى .. توفى هناك بأجله الموعود »(٤٨) .

وهذا ينفى ما جاء فى كتاب سعد الدين من أن كجوك على اغا مات مسموما بيد البلالى ، رغم ما ذكر من أنه كان بينهما

خلافات حادة . وقد ساهمت الكراهية التي نشأت بين الاثنين اللذين وجدا للتعاون من أجل نجاح الحملة في فشلها وعدم تحقيقها للأهداف التي أرسلت من أجلها .

أهداف حمـــــلة البـــــلالي :

ـــ كانت حملة البلالي تهدف الى :

أولا : القضاء على النفوذ الفعلي لتجار الرقيق بمنطقة بحر الغزال ، وتأكيد سلطة الحكومة المزعزعة بها بضم هذه المنطقة الى الممتلكات المصرية ضما نهائيا .

ثانيا : القضاء على الزبير بما له من نفوذ في منطقة بحـــر الغزال ، ومصادرة أمواله وأملاكه باسم الحكومة التي رأت في وجوده خطرا على مصالحها في هذه المنطقة ، لأنه كان يمثل الزعيم السياسي والاداري لبقية التجار في هذه المنطقة ، فبتخلصها منه يكون من السهل التخلص من بقية التجار الا أنها عادت بعد ذلك وسلكت اتجاها عكسيا بعدما وجدت أن بقاء مصالحها في هذه المنطقة يعتمد اساسا على وجود الزبير ونفوذه وخاصة بعد فشل حملة البلالي .

ثالثا : تمكين محمد البلالي من مناجم النحاس الواقعة بمنطقة حفرة النحاس والتي ادعى ملكيتها عندما حظي بمقابلة الخديو في القاهرة .

والحقيقة أن هدف الحملة الرئيســي كان القضاء على الزبير أما بقية الأهداف فقد كانت تمثل أهدافا ثانوية لعدم ابراز الهدف الحقيقي ، والذي يؤكد ذلك هو الاهتمام الكبير الذي أولاه كل من الخديو والحكمدار في أعدادها وتجهيزها لمواجهـــــة قوة الزبير

العسكرية التى لم يكن هناك غيرها ، فقد بلغت جملة ما صرف على الحملة قبل ترحيلها من الخرطوم فى شهر صفر سنة ١٢٨٦ هـ الموافق مايو سنة ١٨٦٩ م ما يزيد على ثلاثة آلاف كيسة وكسور هذا غير ما تقرر لها من مصروفات سنوية تزيد على الفين واربعمائة كيسة وكسور(٤٩) .

بداية الصراع بين الزبير والبلالى :

استمرت حملة محمد البلالى فى تقدمها ، ولكنه تلكأ فى طريقه وعمل على الاجتماع بالتجار قبل ان يلتقى بالزبير وذلك للاستيلاء على امتعتهم واموالهم والبطش بهم ، ولم يكد يصل محمد البلالى الى الزريبة التى بناها له الزبير خارج « ديم الزبير » حتى يثبت للحكومة صدق اخلاصه وولائه وانه ليس متمردا ولا ثائرا ضدها . حتى أمر باستدعاء رؤساء الزرائب المجاورة له ، وطلب اليهم ان يقوموا بتسليمه ممتلكاتهم جميعها باسم الحكومة المصرية ، فرفضوا ذلك حتى يستشيروا شركاءهم اوصحاب الزرائب المقيمين فى الخرطوم ، الا ان بعضهم قد قبل فى نهاية الامر ان يتنازل للبلالى الذى كان يتحدث باسم الحكومة عن بضائعه . وطلبوا منه ان يستدعى الزبير الى مجلسهم مظهرين انهم سوف يرضون بما يرضى به الزبير ، وقبل أن يحضر الزبير لمقابلة البلالى اجتمع بالتجار واخبرهم أن البلالى لم ترسله الحكومة الا ليستغل مناجم النحاس ، وانه لا سلطان له عليهم ، ولا شأن له بامور بحر الغزال ، وفى هذا الاجتماع اقسم جميع التجار على اطاعة أوامر الزبير ، وعدم اطاعة أوامر البلالى ما لم يبرز لهم التعليمات المكتوبة التى زودته بها حكومة الخرطوم . وقد دفع الزبير الى عمل ذلك أن الحكمدار كتب اليه يبلغه ثقته فيه ، ويترك له حرية الموافقة على

ما يشير به البلالى او رفضه ، وكانما ادرك الحكمدار بعد أن سير البلالى فى قوة من الجيش النظامى ، أن السلطان الفعلى بمديرية بحر الغزال هو الزبير ومن حوله من التجار ، فاراد الحكمدار برسالته(٥٠) هذه استرضاء الزبير التى حاول فيها أن يقسم شئون هذه المنطقة بين الرجلين ، وأن يعهد الى البلالى بمهمة استغلال مناجم منطقة « حفرة النحاس » والقضاء على تجارة الرقيق(٥١) ، ومن المؤكد أنه لم يحدث خطأ من جانب الحكمدار عندما قام بتقسيم شئون المنطقة بين الرجلين والدلائل التى تثبت صحة ذلك هى :

أولا : ان الحكمدار ادرك بعد فترة من وصول الحملة ان البلالى لن يستطيع انجاز المهمة الرئيسية الموكولة للحملة ، وهى القضاء على تجار الرقيق بهذه المنطقة وعلى راسهم الزبير ، بجانب تاسيس مديرية بهذه المنطقة واستغلال مناجم النحاس ، فقسم شئون هذه المنطقة بينه وبين الزبير كى يكسب جانب الزبير وقواته للحملة محققا بذلك اهدافا ثلاثة هى :

الأول : عدم تعرض الزبير للحملة .

الثانى : الاستعانة به فى القضاء على بقية تجار الرقيق .

الثالث : قيام البلالى باستغلال مناجم النحاس لصالح الحكومة .

ثانيا : ان الحكمدار بعدما وصلته الاخبار السيئة عن احوال الحملة وخاصة وفاة كجوك على اغا ، والخلافات التى نشبت بينه وبين البلالى ، وقيام البلالى بالاستيلاء على اموال وبضائع التجار دون وجه حق ومناصبتهم العداء ، والوقوف فى وجه الزبير رغم مساعدته له مخالفا تعليمات الحكومية الخاصة باسترضاء

الاهالى وجلب محبتهم لها . رأى من الصواب تقسيم شئون المنطقة بين الرجلين .

ثالثا : لم يكن بمستطاع الخديو ولا الحكمدار ولا البلالى انكار قوة ونفوذ الزبير على بقية التجار فى هذه المنطقة لذا رأى الحكمدار ان من مصلحة الحكومة عمل ذلك .

رابعا : لم يخالف الحكمدار اوامر الخديو عندما فعل ذلك لان الخديو حمله مسئولية فشل هذه الحملة وفوضه فى اتخاذ ما يراه مناسبا من اجراءات لنجاحها .

خامسا : لم يكن الحكمدار يتصرف بمفرده بل كان يبلغ الخديو أولا بأول بأخبار الحملة والاجراءات التى يتخذها حيالها ثم تأتيه بعد ذلك التعليمات .

سادسا : ان هذا الاجراء الذى اتخذه الحكمدار لم يكن ليتنافى مع أوامر الخديو ولا الاهداف التى ارسلت من اجلها الحملة بل سيكون عاملا مساعدا على نجاح الحملة فى تحقيق هذه الاهداف لو ان البلالى التزم بتنفيذه .

وفى الاجتماع الذى عقده البلالى . طلب من الزبير تسليم اسلحته متعللا بأنها اوامر جعفر باشا مظهر(٥٢) الذى عينه حاكما على بحر الغزال ، ولكن الزبير رفض ذلك ما لم يظهر لهم مرسوم تعيينه هذا ، فراوغ فى الاجابة ، فابرز الزبير له خطاب الحكمدارية اليه ، وعرفه انه بالرغم من انه ضلل الحكومة بمعلوماته الكاذبة فانه لن يتوانى فى تنفيذ أوامر الحكمدار بتقديم كل مساعدة ممكنة له فيما يختص باستغلاله لمناجم النحاس فقط ، وابلغه بانه لن يسمح له بمخاطبة رؤساء التجار الخاضعين لحكمه رأسا ما لم يسمح هو لهم بذلك . بعد ذلك اراد البلالى ان يبيع بضائع كجوك

على اغا التى صادرها باسم الحكومة ، وتوزيع ثمنها على جنوده الا ان الزبير ومن معه اجبروه على حفظ ثمن هذه البضاعة التى بلغت سبعة واربعين قنطارا لابنه فى حجرة خاصـــــة حتى يصل من الخرطوم لاســـتلامها ، واثارت تصـــرفات الزبير ضيق البلالى وحنقه الشديد ، غير انه لم يجد امامه من وســـيلة ســـوى التســـليم بالامر الواقع ، ورحل عائدا معه الى ديم الزبير وقد اضـــمر فى نفســـه البطش به عن طريق الحيلة والدهاء ، فلم يبال الزبير بذلك وبنى له زريبة خاصـــة ، وامر ان توزع على رجاله الملابس والاقوات ، كما ســـلم البلالى الفا وخمسمائة كيس من الذهب ، ومثلها من النحاس المستخرج من مناجم حفرة النحاس(٥٣) .

فى هذا الوقت كان الزبير يحتفظ لنفســـه وتحت يده بجيش قوى وافر العدد والعدة يمكنه من مواجهة البلالى وتحـــدياته ، وكان يتكون من الأفراد الذين افتداهم الزبير وانقذهم من احكام الموت الصادرة ضـــدهم اثناء وجوده فى بلاد النيام نيام ، وهم الذين نبذهم المجتمع نتيجة الجرائم التى ارتكبوها ، فكون منهم الزبير جيشا لحمايته وحمـــاية تجارته . اما الفئة الثانية التى ضـــمها جيشـــه فكانوا من العبيد الذين التقى بهم اثناء زيارته الاولى للمناطق الواقعة غرب بحـر الغزال ، وهم الذين آثروا الفرار من اســـيادهم ، واقبلوا عليه يطلبون الانضـمام اليه ، ولـــكن اســـيادهم لم يرضـــوا عن ذلك وعملوا على حرب الزبير ، فطلب الزبير من العبيد العودة الى اســـيادهم فابوا ذلك وصـــمموا على قتل ســـادتهم ان هم عادوا ، فاضطر الزبير لمراضاة الجماعتين بان يبادل على هؤلاء العبيد بعدد مماثل من اتباعه وبذلك تم حل المشكلة . وسلح الزبير حوالى ســـتمائة منهم وجعل قيادتهم لرابح(٥٤) وبهم احرز الكثير من الانتصارات ، وام

يلبث اقارب هؤلاء واصدقاؤهم ان انضـــموا لجيش الزبير بعد ان ذاع حسن معاملته لرجاله في جميع الجهات ، وهكذا تجمع للزبير جيش كبير بلغ تعداده حوالي اربعة آلاف رجل تحت قيادة قوادهم وزعمائهم ، والجميـــع يخضــــعون للقيادة العليا التي وضعها الزبير في يد رابح ، وحين حدث الخلاف الذي تقدم ذكره بين البلالي والزبير ، عمد البلالي الى اغراء جنود الزبير بتركه والتمرد عليه واعدا اياهم بمنحهم الكثير من الامتيازات في مقابل هذا ، ورغم كل ما قدمه لهم الزبير فقد خدع الكثير منهم بوعود البلالي ، ولما كان الزبير غير مستعد للتضحية بجنوده هؤلاء ، فقد بذل كل ما في وســـــعه لملاينة البلالي بالهدايا والقول الطيب ليعيد اليه رجاله فرفض ، عندئذ عرف أنه لا مفر من اســــتخدام القوة والحيلة لاجباره على ذلك .. فانطلق بجواده ، ومعه اثنان من اخلص رجاله هما جاك ودوليب نحو زريبة البـــلالي . وفي الطريق أطلع صـــــاحبيه على خطته ، وما بلغ زريبة البلالي حتى اقتحم الزبير عليه غرفته وهو جالس . وخيره بين أن يرد له رجاله او أن تصـــــعد روحه الى بارئها مصــــوبا مسدسه الى راســــه وهو واقف الى جواره ، غير أن البلالي كان قد اشـــار بيده الى خادمه ، فهدده الزبير بأن يأمر خادمه بالانصــــراف وأن يعيد اليه رجاله ، والا قتله بمســــدسه ، فخضـــــع البلالي لطلب الزبير . ولم يترك الزبير البلالي حتى اقبل واحد من رجاله عليه يبلغه نبأ اطـــلاق ســـراحهم ، عندئذ اســـرع الزبير بمغادرة معســـــكر البلالي عائدا الى زريبته ، وفي اثناء عودته علم ان رجاله مشتبكون مع رجال البلالي ، فاتجه نحو ساحة المعركة ، ففوجيء برجال البلالي وهم عائدون من المعركة التي انتهت بهزيمتهم يطلقون عليه الرصـــاص ، فاشـــتبك معهم الزبير بمن معه من الرجال الذين بلغو حوالي ثلاثين رجلا بينما كان رجال البلالي اكثر عددا وعدة . ولم تلبث الامدادات ان وصلت لنجدة الزبير ،

فاستطاع بعد جهد يسير ان يوقع بالاعداء هزيمة ثانية . انتهت بمصرع تسعة عشر رجلا من رجال البلالى مقابل تسعة من رجال الزبير . وبعد هذه الهزيمة حرص البلالى على مهادنة الزبير ولكى يامن جانبه قام بتوقيع معاهدة سلام معه ، وارسل يطلب من الحكمدار سرا بعض النجدات نجاءت بعد حوالى العام من يوم حدوث المعركة(٥٥) .

وعندما وردت اخبار هذه المعركة الى الخرطوم ارسل الحكمدار معاونا من الحكمدارية وكاتبا مع بلوك من العساكر الجهادية واسلحة وذخائر وطاقم مدفع بذخيرته لأجل تحقيق النصر فى هذه المعركة(٥٦) .

ولم تكد تصل البلالى الامدادية التى طلبها وهى عبارة عن فرقتين من الجنود معهما مدفع واحد حتى بدأوا فى اطلاقه فى الهواء ، فراع الاهالى الذين لم يشاهدوا المدفع من قبل واقتنعوا تماما بأن البلالى هو ممثل الحكومة الفعلى برغم انه لم يتلق أمرا بتعيينه حاكما على بحر الغزال ، ثم لم يلبث البلالى أن دعا الزبير للاجتماع به لتوقيع معاهدة السلام التى بينهما ، وبعد انتهاء الاجتماع اعلن البلالى عن عزمه على الارتحال لمحاربة تجار الرقيق والقضاء على هذه التجارة البغيضة تنفيذا لاوامر الحكومة التى ابلغ بها اخيرا ، فعرض الزبير عليه كل مساعدة ممكنة واتفق الاثنان على أن يقوم الزبير بتوديعه وحماية مؤخرة قواته ، بعد أن يعلمه بموعد قيامه . وكانت الخطة ان يرسل البلالى رجاله قبله ثم يلحق هو بهم بعد ذلك ، ولكنه اخل باتفاقه ورحل بعد عدة ساعات من رحيل رجاله مخفيا ذلك عن الزبير . وكان النبأ قد وصل الى علم الزبير قبل أن يقارب اليوم على الانتهاء فلم يمنعه هذا من ضرورة توديعه واللحاق به قبل

حلول الظلام ، ولكن الزبير فوجىء بمرض جواده ، وكان سريعا فتبدد بذلك كل أمل في اللحاق به ولكن الاقدار كانت تدخر له مفاجأة كبرى ، فقد كان البلالي واثقا من أن الزبير سوف يتبعه لتوديعه ، لذلك خلف وراءه في الطريق الذي قدر له انه سوف يسلكه كمينا من اربعين رجلا أوصاهم بقتله واللحاق به(٥٧) ولكن كتب للزبير النجاة من مكيدة البلالي . وكان البلالي قد وصـــــل الى قرية موجومنجي ــ Mugmngi واخذ في مهاجمة التجار الا ان رجاله أشاروا عليه بمهاجمة الزبير اولا والقبض عليه فاذا ما تم له ذلك فان جميع الزرائب الاخرى سوف تستسلم له(٥٨) ، وهكذا تنكر البلالي لمعاهدة السلام التي وقعها مع الزبير ، بل زاد على ذلك انه حاول اغتياله بغتة مما لوث صفحته في هذه المنطقة .

المعركة الفاصلة ونهاية الصراع بين الزبير والبلالي

وقتله في (سنة ١٢٨٦ هـ ــ سنة ١٨٦٩ م) :

بدا كل من الزبير والبلالي باعداد نفســــه وقواته للمعركة الفاصلة ، فوضع البلالي الخطة لمهاجمة الزبير في اكثر من مكان لتضليله عن اتجاه الهجوم الرئيسي له ، وفي نفس الوقت لكي يتجنب المواجهة المباشرة معه حتى لا يتعرض لخسائر أكثر سواء في الافراد أو المعدات ، وكانت خطة البلالي ترمى الى مهاجمة مخازن ومستودعات الزبير التي يحتفظ فيها بأســلحته وذخيرته ومؤنه حتى يمكن له احداث اكبر خسائر ممكنة بها دون أن يتعرض له الزبير ، حينئذ يمكنه اجبار الزبير على الاستسلام اذا ما فكر في مهاجمته لأنه لن يكون لديه من المؤن او الاسلحة والذخائر ما يكفي لصموده امام البلالي كثيرا . وطبقا لهذه الخطة عهد البلالي لاحد تجار الرقيق وهو جلجاوى بمهاجمة مخزن من مخازن الزبير

كان قد تركه فى حراســــــة عشــرين رجلا ، وكان الهدف من ذلك هو العمل على شغل الزبير ريثما يتم البلالى هجومه الرئيسى على عاصمة الزبير بعد احراقها ، الا أن هذا الجرس على قلته استطاع أن يصد هذا الهجوم ، ونجحت الخطة فما علم الزبير بنبأ هذا الهجوم على مخزنه ومصرع ابن عمه عبد الله بن الزبير ، حتى أســـــرع بالتوجه على رأس مائة رجل الى هناك لتأديب جلجاوى ، وما كاد الزبير يعيد الأمور الى نصابها ويؤمن مخزنه ، حتى يلغه عن طريق عيونه ورجاله أن البلالى يســـــتعد لمهاجمة عاصمته منتهزا فرصة انشغاله فى الهجوم الذى شـنه جلجاوى فاسرع الزبير على رأس قوة من جيشه الى عاصمته فرأى النار مشتعلة فيها والحرائق التى نجح رجال البلالى فى اشعالها هنا وهناك تلتهم كل مخازنه وتأتى عليها ، وعلى الرغم من أن الحرائق ملأت المدينة كلها فانها لم تصل الى مخازن السلاح والذخيرة ، التى كانت موجودة تحت سطح الأرض(٥٩) ونجت بذلك من الحريق وبقيت كما هى ، ولو كان قد توصل الى علم البلالى وجودها فى هذا المكان ، لكانت النتيجة قد تغيرت لصـالحه وقد دلت هذه العملية التى تشبه عمليات قوات الكوماندوز فى الجيوش الحديثة على مدى ضعف المعلومات التى استقاها أو جمعها جواسيس البلالى من عاصمة الزبير ، فكانت هذه بمثابة ضربة قاصمة للخطة التى رسمها البلالى للقضاء على الزبير وشل فاعلية قواته معنويا .

استطاع الزبير بعدما رأى الحرائق التى أشــــعلها رجال البلالى فى المدينة ، والهجوم الذى قام به جلجاوى على أحـــــد مخازنه ، أن يدرى تفاصــــــيل الخطة التى رســــمها البلالى التى كانت تهدف الى مهاجمة المدينة بقواته بعد أن تكون الحرائق قد أتت على جميع ما بها من مخازن وقلاع لا تستطيع قوات الزبير

ولا اي قوات اخرى الاحتماء فيها او المدافعة عنها ، ولكن الزبير وطد العزم على الانتقام لما اصـــــابه على يد البلالى ورجاله ، ورغم قلة قواته التى لم تكن تتجـــــاوز الثلثمائة رجل ، فانه لم يستسلم لليأس والتشاؤم ، بل اسرع فى تقسيم قواته الى خمسة اقسام بثها فى كل جانب من المدينة حتى ينخدع العدو بقواته ، وقد دلت هذه الافكار على ان الزبير كان يتمتع بفكر عســـــكرى متقدم اكتسبه بخبرته الطويلة فى المعارك والحروب التى مرت به دون دراســـــة .

ارسل الزبير عيونه يستطلعون له الاخبار ، فعادوا واخبروه بان البلالى قد قرر مهاجمته خلال ساعات الفجر مســــتترا فى الظلام ، وفى مســـــاء ذلك اليوم ظهرت قوات البلالى التى قدر الزبير عددها من وثيقة وقعت فى يده بحوالى اربعة آلاف رجل مزودين بالعتاد والذخـــيرة تحت قيادته ، حينئذ وقع الرعب فى قلوب رجال الزبير ، وساءه ان يحدث هذا لرجاله . فى وقت اقتربت فيه المعركة . فنشط للمرور عليهم فى مراكزهم وتشجيعهم، وتقوية عزائمهم للقتال ، ثم امر باعدام ما تبقى لديه من العـــــاج خشية ان يقع غنيمة فى يد البلالى ، وكان يقدر بحوالى ســـــتة قناطير . والحقيقة ان الزبير نفسه كان متخوفا من هذه المعركة نظرا لعدم تســــــاوى القوتين سواء من حيث العدد او التسليح ، خشى الزبير على مصير رجاله ، وكيف فكر البلالى فى مهاجمته رغم ان الاوامر الصادرة له من جعفر باشـــا مظهر واضــــحة ومحددة . بعد ان وصـــــلته النجدة الاخيرة . وتقضى بمهاجمة تجار الرقيق فقط ، وقام الزبير بتقديم كل مســــاعدة ممكنة له لتنفيذ ما امر به ، وبهذا يكون البلالى هو المخالف لأوامر الحكومة . ولو ان رجال الزبير كانوا ينظرون الى البلالى بعد وصــــول النجدة اليه على انه الممثل الفعلى للحكومة ، التى لم يكونوا يرغبون

فى تحديها او التمرد عليها حتى لا يتهموا بالعصـــــيان أو الثورة على قوات الخديو واستقر راى الزبير على تسليم نفســـــه ، ثم سار بعد ذلك فى اتجاه قوات البلالى لتنفيذ ما عزم عليه ، ولكنه ما كاد يقترب حتى وجد نفسه أمام ميمنة قواته ، وبمجرد أن رأوه ظنوا انه قد اتى لمهاجمتهم ، فأطلقوا الرصاص عليه . فأسرع رجاله لنجدته من كل مكان ، وهاجم موسى ود الحاجى احد قواد الزبير جيش البلالى فدب الذعر فى صفوفه ، وعمت الفوضى ، وفقد البلالى كل سيطرة على قواته ، لأن اوامره لم تصـــــل اليهم . وبعد ان أيقن من هزيمته فر هاربا الى دارموفيو، وفى اليوم التالى اقبل حامد ابن عم الزبير على رأس ثمانمائة رجل ، وبعده اقبل رابح وكان فى مهمة فارسله الزبير فى اثر البلالى ، فادركه عند ديم جوجو بالقرب من دارموفيو وهناك دارت معركة بين الاثنين انتهت بمصـــــرع البلالى والتخلص منه نهائيا ، وبذا طويت صفحة البلالى فى بحر الغزال الى الابد(٦٠) .

وبهذا الانتصار الذى حققه الزبير على حملة البلالى ، أكد دون تردد أنه الرجل الاول بمنطقة بحر الغزال الذى له السيطرة الادارية والعسكرية ، كما عكس مقتل البلالى وهزيمة الحملة اثره السيىء فى دوائر الحكومة بكل من القاهرة والخرطوم نتيجة ما يأتى :

أولا : فشل الحملة فى تحقيق الاهداف التى ارسلت من أجلها برغم الاهتمام الواضـــــح الذى اولته الحكومة فى امدادها وتجهيزها من حيث العدد والسلاح والذخائر .

ثانيا : فشل قادة الحملة فى توجيهها التوجيه السديد الذى يحقق أهدافها التى ترمى أســــــاسا الى تأكيد ســـلطة الحكومة وسيطرتها السياسية والادارية والعسكرية فى هذه المنطقة نتيجة

سيطرة روح العداء والجفاء بين البلالي وكجوك على أغا واختلاف الرأى وعدم الانسجام الكامل بينهما .

ثالثا : حرص البلالى على تحقيق مصالحه الذاتية ، التى كانت هدفا من أهداف الحملة ، وهى العمل على الاستيلاء على الاراضى التى ادعى ملكيتها فى المنطقة المسماة بحفرة النحاس جنوبى دارفور واستغلالها لصالحه دون الاهتمام بتحقيق الأهداف الجوهرية للحملة .

رابعا : اكدت هذه الهزيمة سيطرة الزبير العسكرية والادارية فى هذه المنطقة ، وأنه الرجل الذى يجب أن تحرص الحكومة على اكتساب تأييده لها واستشارته فيما يجب ان تفعله مستقبلا حتى لا تتعرض مصالحها للانهيار فى هذه المنطقة .

التحقيق فى مقتـــــل البـــــلالى :

وصلت ابناء انتصار جيش الزبير ، ومقتل البلالى ، وهزيمة جيشه الى حكمدار السودان بالخرطوم فاسرع الى مكان الحادث معاون من الحكمدارية ، ومعه بلوك من العساكر لاجراء التحقيق فى أمر مقتل البلالى وعصيان الزبير ، وعندما وصل الى منطقة بحر الغزال كان التجار هم سادة الموقف ، فقام بما ندب من أجله من تحقيقات وأرسل تحرياته الى الخرطوم(٦١) .

وفى الوقت التى أبلغت فيه الخرطوم بنتائج المعارك الناشبة بين الزبير والبلالى ، بعث الزبير بنبأ انتصاره على البلالى الى الحكمدار شارحا تفاصيل ما دار بينه وبين هذا الرجل مبينا تعديه ومحاربته له دون وجه حق . وكان الحكمدار قد سبق أن نصح الحكومة المصرية بضرورة عدم اظهار العداوة للزبير الذى شاع

خبر انتصاره فى ارجاء السودان كلها مما أدى الى زيادة عدد اتباعه وبالتالى زيادة عدد جيشـــــه حتى انه بلغ فى نهاية سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢م اثنى عشر الف رجل ، واصبح اقليم بحر الغزال كله يدين له بالولاء(٦٢) .

وصلت التحقيقات التى اجراها المعاون الى الخرطوم(٦٣) وقد ورد للمعية من آدم باشا(٦٤) القائم بعمل مدير عموم قبلى السودان فى السابع عشر من جمادى الآخر سنة ١٢٨٩ هـ الموافق عشرين من اغسطس سنة ١٨٧٢م بطلب التنبيه الى مديرية كردفان بارسال عساكر ، وذخيرة ، ومدافع الى مشارع الزبير لضبطه بما معه فى مشارعه ، وارساله لأجل التحقيق معه فيما نســـب اليه لأن المسافة من الخرطوم بعيدة كاشارة مدير عموم قبلى السودان فى كتابه والى المعية الســـنية بتاريخ الخامس والعشـــرين سنة ١٢٨٩ هـ الموافق ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٢م الذى شرح فيه تفصيلا قصة البلالى منذ توجيهه الى بحر الغزال حتى مصرعه على يد جيش الزبير ، كما اشاد بقوة الزبير العسكرية ونفوذه الواسع فى منطقة بحر الغزال ، واوضح كذلك مدى التعب والمشـــقات التى سوف يتحملها الجنود اذا ما ارســـلوا للقبض على الزبير هذا غير ما يحتاجون اليه من المصاريف، فضلا عما يترتب على ذهابهم الى خراب هذه المناطق نتيجة المعارك التى قد تنشب بينهم وبين قوات الزبير، وقد اوصى المدير اخيرا بالكتابة للزبير للحضور للخرطوم للنظر فى اسباب حدوث تلك الواقعة والتحقيق معه فى ذلك(٦٥) وقد كان هذا الخطاب بمثابة وثيقة تشرح تفصيلا ما حدث منذ مجىء البلالى وحملته حتى مصرعه .

وجد الزبير ان هذه التحقيقات اذا ما ســـارت فى طريقها الرسمى فسوف تعده الحكومة ثائرا ، ولا تستطيع ان تدرك الظروف التى تحت ضغطها دافع عن نفسه وامواله ، فرأى أن يوســـط

« حســـــين بك خليفة العيادى » مدير بربر ودنقلة آنذاك لدى الحكومة ، فشرح له الحالة شرحا وافيا ، واظهر الخضــــوع والامتثال لسلطان الحكومة ، مما كان الزبير يريد أن تنسب اليه الثورة أو العصيان(٦٦) .

ونتيجة هذه الوساطة ، راى الخديو أن يعفو عنه ، وأصدر أوامره الى مدير قبلي السودان باعطاء الزبير الأمان ، اذا ما حضر للخرطوم ، ولادامى لحضوره مصر(٦٧) وذلك بتاريخ الســابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٧٢ م .

وفى نفس الوقت وصلت برقية من خيرى باشا(٦٨) مهردار الخديو الى مدير عموم قبلي السودان بتاريخ السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٧٢ م يبلغه فيها بالموافقة على ما جاء فى برقيته الى المعية بتاريخ الخامس والعشــــرين من شعبان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الخامس والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٢ م فيما يتعلق بمأمورية بحر الغزال(٦٩) .

اطمأن الزبير الى جــانب الحكومة بخصوص مســــئوليته عن مصرع البلالى ، الا انه حتى هذه اللحظة لم يضــمن جانب أقارب البلالى نفسه ، ففى السابع عشر من ربيع أول سنة ١٢٩٠هـ الموافق السادس عشر من سنة ١٨٧٣ م أبلغت المعية السنية مديرية عموم قبلي السودان بأن جماعة من أقارب البـــلالى قد حضروا الى مصر للشكوى فى مقتل البلالى ، وأنه بعد عرض الموضوع تم ابلاغهم بانتهاء التحقيق فيه وانه لم تكن هنـــاك أى مسئولية على شـخص معين لذلك فلادامى لوجودهم بمصـــر بل العودة الى بلادهم(٧٠) .

لم يكتفى الخديو بالعفو عن الزبير بل راى فيه الرجل القوى الملم باحوال وشئون منطقة بحر الغزال ، وانه يمكن للحكومة ان تستعين به فى توطيد سـلطاتها وسيطرتها المزعزعة فى هذه المنطقة ، ولذلك صدرت الاوامر من القاهرة لاسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان بتشكيل مديرية بحر الغزال ، وتعيين الزبير مديرا عليها وبحث أمور هذه المديرية الجـديدة وما يلزمها من المستخدمين من الجنود والموظفين مع الزبير لحين حضوره الى الخرطوم وقد ارسل الحكمدار هذه التعليمات الى الزبير مع رسول خاص بطريق كردفان ـ دارفور ، ولكن الرسول تأخر فى الطريق لان عربان الرزيقات تصدوا له أثناء توجهه الى الزبير ، وفى هذه الاثناء كان الزبير قد صمم على الذهاب بنفسه الى الخرطوم ، لاعلان ولائه واخلاصه حسب ما اتفق عليه مع الحكومة ، فسير قبل قيامه بعض مراكبه تحمل السن والريش وغيرها ريثما يتم استعداده هو للسـفر . وقبل أن يغادر مقره علم أن عربان الرزيقات(٧١) قد اغاروا على حدود منطقة نفوذه ، وقطعوا الطريق الذى بينه وبين دارفور ، فراى أن يقوم بتأديبهم اولا ، ثم يواصل سيره شمالا الى كردفان ومنها الى الخرطوم ، الا أن الأمور سارت على غير ما اراد ، بل قادته الى حرب الرزيقات(٧٢) .

وفى غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من اغسطس سنة ١٨٧٣ م بعث مدير عموم قبلى السودان بمكاتبة الى المعية السنية أوضح فيها تعذر حضور الزبير للخرطوم لبحث مسالة تنصيبه على مديرية بحر الغزال اذا وافق على شـروط الحكومة ، وبحث مسالة المبالغ التى صرفها على العسـاكر الطوبجية بجهة بحر الغزال بسبب قطع عربان الرزيقات الطريق عليه وقيامهم بارتكاب الحوادث وبعض الامور غير اللائقة(٧٣) .

ارسل الزبير مندوبا عنه الى الخرطوم يحمل بعض الهدايا ومبلغ ثلاثة آلاف جنيه الى مدير عموم قبلي السودان على سبيل الهدية ، وعندما وصلت هذه الهدايا والمبلغ المذكور مع الرسول الى الخرطوم قام الحكمدار بابلاغ القاهرة بما أرسـسـسله الزبير يستفسرها عن كيفية التصرف ، فجاءه رد القاهرة باعادة الهدايا والمبلغ المذكور الى الزبير وشكره باسم الجناب العالي الخديو ورضاه عنه وبابلاغه باستغلال هذا المبلغ في انشاء مكتبة ومسجد باسمه في منطقة بحر الغزال كي يستفيد منها الناس هناك(٧٤) .

قيام الزبير بتنظيم امور مديرية بحر الغزال :

بدأ الخديو يغير من طريقة معاملته للزبير فترك سـسـسياسة العنف التي تمثلت في حملة البلالي التي سبق الاشارة اليها . وبدا يسلك في معاملته سياسة اللين والدهاء ، فعفا عنه وعينه مديرا على بحر الغزال ، فشرع الزبير في اعادة تنظيم الأمور للمديرية الجديدة ، وبحث وسائل العمل على تمدينها وتأسيسها ، ولم يلبث ان وفد عليه الناس من جميع جهات المديرية يطلبون الانتظام في جيشه اوالاتجار في بلاده . فكان لهم ما أرادوا . وساد البلاد الهدوء والسكينة(٧٥) .

رأى الزبير انه لا ضرورة للابقاء على هذه القوة الكبيرة من جيشه متجمعة في مكان واحد ، بل انه في سبيل نشر السلام والأمن في ربوع وأنحاء البلاد لابد من العمل على توزيعها في انحاء الاقليم فأبقى على ثمانية آلاف رجل في « سابونجا ـ Sabunga بينما قام بتوزيع باقي الجيش على بقية المناطق ، في مجموعات يتراوح عددها ما بين خمسين ، ومائة ، ومائة وخمسين رجلا ، فوضع مجموعات منهم في باية(٧٦) ـ Baia ، بونت ـ Bunet . . وأبودنجا(٧٧) ـ Abu Dinga

وقد احاط الزبير نفسه ببلاط لا يقل في روعته من بلاط الملوك، وكان سكنه الخاص يتألف من عدة ابنية ضخمة مربعة الشـــكل متينة البناء يحيطها سور مرتفع ويقف على ابوابها الحراس على تمام الاهبة ليلا ونهارا ، وكانت هناك حجرات خاصة مزودة باغلى الطنافس والرياش ، معدة لاستقبال ضيوف الزبير يقودهم اليها عبيده وغلمانه وقد ارتدوا ابهى الحلل ، وخلف ستار ضخم فى احدى الحجرات الداخلية كان يوجد عرش الزبير حيث يجلس وقد حف به عدد من الاتباع على استعداد لتلبية اشارته فى اى وقت بينما يجلس جماعة من الفقهاء على ديوان خارج الستار(٧٧) .

دور الزبير فى فتح شكا(٧٨) وتاديب عرب الرزيقات :

بعد ان تم للزبير الانتصار على ملوك وسلاطين بلاد النيام نيام « وما جاورها وخضوع تلك البلاد حتى بحر العرب لحكمه ، واتخاذه باية التى عرفت فيما بعد باسم ديم الزبير عاصمة له ساد السلام والامن فى البلاد ، فبدأ يتجه الى الاهتمام بشئون التجارة بالاقليم ، التى كانت قد توقفت حركتها بسبب الحروب المتوالية التى خاضها . واتجه اهتمامه فى هذه الفترة الى فتح طريق جديد للتجارة بدلا من طريق النيل . الذى كانت الرحلة فيه تعترضها الكثير من المصاعب ، كان الطريق الجديد الذى سعى الزبير الى فتحه هو الطريق البرى الواصـــــل بين بحر الغزال وكردفان والمار ببلاد شــــكا موطن عرب الرزيقات ، وكان لهذا اهمية كبيرة نظرا لبعد طريق النيل وكثرة اخطاره ومشاقه ففى مارس سنة ١٨٦٦م الموافق شوال سنة ١٢٨٢ هـ بدأ الزبير فى الاتصال بمشايخ عرب الرزيقات المقيمين على طريق التجارة ، وذلك من اجل عقد معاهدة معهم لفتح هذا الطريق وحمايته حتى تستطيع قوافل التجارة ان تعبر فى امان ، وذلك فى مقابل رسوم

محدودة يدفعونها للزبير ولعرب الرزيقات ، فاوفد الزبير لهم رسلا بالهدايا ، فجاء اليه مشايخهم واقسموا له على القرآن بالمحافظة على هذه المعاهدة ، ولم يلبث هذا الطريق لقصره وسهولته وأمنه أن جذب اليه العديد من قوافل التجارة من كل مكان حاملين معهم الكثير من البضائع التى تروج فى المناطق التى خضعت لحكم الزبير ، فازدهرت التجارة فى البلاد وانتعشت الأسواق وتجمع الناس حول الزبير . وظلت هذه المعاهدة سارية المفعول بين مشايخ عرب الرزيقات والزبير لمدة طويلة . الى أن نقضوا هذه المعاهدة بعد انتصاره على البلالى ، وفى اثناء حربه مع الملك « تكمه » وهى الحرب الثانية . قطعوا الطريق وقتلوا بعض التجار فارسل لهم الزبير رسلا يسالهم تفسيرا لما حدث ، ولكنهم لم يجيبوا بشىء عليه سوى السباب والشتم ، واقسموا الا يدعوا مسافرا واحدا يمر الى بلاده عن طريق بلادهم الا قتلوه وسلبوه أمواله(٧٩) .

وامعانا فى تحديهم قطعوا الطريق على رسول حكومة الخرطوم ، الذى اوفدته الى الزبير حاملا معه التعليمات الجديدة الخاصة بتشكيل مديرية بحر الغزال ، وتعيينه هو مديرا عليها . فى هذا الوقت كان الزبير نفسه يستعد للسفر للخرطوم لتقديم ولائه للحكومة ، الا أنه علم قبل ان يغادر مقره أن عرب الرزيقات اغاروا على حدود منطقة نفوذه وقطعوا الطريق ما بينه وبين دارفور حينئذ رأى الزبير أن من الصواب أن يقوم بتأديبهم أولا ثم يكمل مسيرته الى كردفان ومنها الى الخرطوم(٨٠) .

وقد تعمد عرب الرزيقات نقض معاهدتهم مع الزبير عقب انتصاره على البلالى وفى اثناء حربه الثانية مع الملك « تكمه » للأسباب الآتية :

أولا : كان معنى انتصار الزبير على حملة البلالي هو تأكيدا لسيطرته ونفوذه السياسي والاداري على منطقة بحر الغزال دون غيره وهو الشيء الذي لم يكن عرب الرزيقات يستحسونه مخافة ان تمتد سيطرته على بلادهم .

ثانيا : انه في سيطرة الزبير السياسية والادارية على منطقة بحر الغزال وامكان سيطرته على جميع المناشــــط التجــارية والاقتصادية الواردة أو الصادرة للاقليم ، في ذلك تقليم لنشاطهم ونفوذهم التجاري في هذه المنطقة التي كان لهم تعاملاتهم التجارية معها منذ مدة طويلة .

ثالثا : رأى عرب الرزيقات ان نصيبهم من الضرائب المفروضة على قوافل التجارة والتجار طبقا للمعاهدة التي عقدوها مع الزبير لم تعد مناسبة نظرا لزيادة عدد هذه القوافل نتيجة الاستقرار والهدوء الذي ساد منطقة بحر الغزال وما جاورها ، فكان هدفهم هو الانفراد بالسيطرة على طرق التجارة بنقض المعاهدة .

رابعا : كان التوقيت الذي اختاروه لنقض المعـــاهدة فيه حرج لموقف الزبير وخاصـــــة أنه كان في حرب مع الملك تكمه ، فكانوا يريدون له الهزيمة حتى لا تتسع مناطق سيطرته ونفوذه السياسي والتجاري على حساب مصـــــالحهم التجارية في هذه المناطق .

خامسا : كان من المؤكد انهم يريدون الوقيعـة بين الزبير وسلطان دارفور لكي يتخلصوا من الزبير اذا ما فكر في غزو بلادهم التي كان السلطان يعتبرها جزءا من مملكة دارفور .

رأى الزبير ان يستعين بالسلطان ابراهيم سلطان دارفور في تأديب هؤلاء العرب حتى يثوبوا الى رشدهم ، فارســـــل الى

السلطان خطابا في أول جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٣ يخبره فيهم بنقضهم للمعاهدة التي عقدها معهم ، وقيامهم بقطع الطريق على قوافل التجارة لبعض التجار وطلب منه امداده بسرية من جيشه كي يستعين بها في تأديب هؤلاء العرب او ان يتحمل مصاريف الحملة الذي يعدها هو لتأديب هولاء العرب ، وقد خاطب الزبير السلطان قبل ان يفعل اى شيء لسببين هما :

اولا : حرص الزبير على مشاعر السلطان الذي كان يعتبر بلاد الرزيقات جزءا من مملكته .

وثانيهما : تعريف السلطان بالدور الذي يجب أن يؤديه تجاه هؤلاء العرب بتأديبهم أو تقديم المعونة لمن يستطيع ذلك ، لأن الزبير كان يخشى ان يقوم بتاديب هؤلاء العرب دون علم السلطان ، فيعتبر ذلك السلطان تحديا وتعديا على سلطته(٨١) .

ولكن السلطان لم يجب على هذا الخطاب ، فلم يلبث الزبير ان وجه خطابا آخر للسلطان في غرة جمادى الآخر سنة ١٢٩٥ هـ الموافق السادس والعشرين من يوليه سنة ١٨٧٣ م مذكرا اياه بأنه ليس له اطماع شخصية في هذه البلاد وانما الهدف من ذلك تأمين حياة الأهلين فيها بما يوفر لهم القيام بنشاطهم التجارى ، وتوفير جو السلام هناك بالقضاء على الخارجين وقطاع الطرق من عرب الرزيقات ومن على شاكلتهم ، ويكرر طلبه الاول بخصوص امداده بالمساعدات العسكرية اللازمة من جنود وأسلحة وذخائر للاستعانة بها في تأديب هؤلاء العرب . وقد حمل الزبير السلطان مسئولية ما يسفك من دماء المسلمين على يد عرب الرزيقات ، اذا لم يؤد واجبه نحو قتالهم والقضاء على صلفهم وغرورهم وتوفير جو الأمن والسلام في هذه البقاع(٨٢) .

وينبغي الا نفصل بين تمرد عرب الرزيقات على الزبير ، وضرورة تدخل السلطان ابراهيم للقضاء على هذا التمرد او الاعمال الاجرامية التي كانوا يقومون بها ضـــد التجار والتجارة وذلك للأسباب الآتية:

اولا : كان السلطان يعتبر بلاد الرزيقات (شكلا) جزءا من سلطنة دارفور وان لم تكن تحت حكمه او سلطته وان كان التاريخ قد شهد فترات انضمام وانفصال لهذه البلاد مع سلطنة دارفور ، لذلك فقد اعتبر الزبير السلطان مسئولا عن كبح جماح هؤلاء العرب وكسر شوكتهم .

ثانيا : كان الزبير يريد من قيام السلطان بتاديب هؤلاء العرب اختبار مدى صـــلة او عدم صـــلة السلطان بهذه الأعمال التي يقوم بها عرب الرزيقات وقد ثبت للزبير مدى الكراهية التي يكنها السلطان له وصلته بهذه الاعمال عندما وجه اليه اكثر من خطاب ولم يجبه السلطان عليها .

ثالثا : كان الزبير يريد من وراء مطالبة السلطان بتاديب هؤلاء العـــرب او تقديم ما يمكنه من مســـاعدات لتاديبهم ، وقطع خط الرجعة عليهم حتى لا يتحالفوا مع السلطان ضده كذلك ، فقد رأى الزبير ان المصالح التجارية لمديرية بحر الغزال وسلطنة دارفور مصلحة مشتركة ينبغي ان يعمل هو والسلطان معا كيد واحدة للقضاء على الأخطار التي تحدق بهما .

اندلاع الحرب بين الزبير وعرب الرزيقات :

أخذ الزبير في اســـتكمال استعداداته الحربية تمهيدا لغزو بلاد الرزيقات ، فجهز ما يقرب من أربعة آلاف رجل وتقدم شمالا قاصدا شكا مقر عرب الرزيقات . وكان مقررا ان تقطع الحملة

هذه المسافة في خمسة عشر يوما ، ولكن نظرا لهطول الأمطار ، فقد أدى ذلك الى ابطاء سير الحملة ، فاستغرقت أربعين يوما حتى وصلت جنوبي شكا بعد أن استنزفت معظم مؤنها ، وماتت من رجال الزبير مالا يقل عن الستمائة رجل ، عندما اقتربت قوات الزبير من عرب الرزيقـــات شنوا عليهم هجوما بقوات كثيرة العدد(٨٣) .

ورغم تفوق الزبير في العدد ، فان تقدمهم كان بطيئا . وذلك لأن عرب الرزيقات كانوا يستعملون الخيل في قتالهم ، ولم يكن رجال الزبير قد اعتادوا هذا النوع من الحرب الســـريعة الخاطفة واستمرت المعارك بين الجانبين ابتداء من العاشر من يوليو حتى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣م وهو اليوم الذى استطاعت فيه قوات الزبير أن تضع حدا لهذا الصراع بانزال الهزيمة الساحقة بعرب الرزيقات . وقد ساعدهم في ذلك طبيعة بلادهم التي كانت تخلو من الأنهار ، مما يضـــطرهم الى الالتجاء الى بحر الغزال طلبا للماء ، وعندما فطن الزبير الى هذا الأمر رأى أن يكمن لهم بقواته عند شاطىء هذا النهر وأخذهم على غرة بعد أن أعياه قتالهم ، وتمكن الزبير بذلك من انزال الهزيمة بهم وقتل الكثير منهم ، والاستيلاء على الكثير من الغنائم من سلاح وذخائر ومؤن ، والواقع أن جيش الزبير لم يستطع التغلب على عرب الرزيقات ، الا بعد أن بلغت خسائره أكثر من سبعمائة رجل بسبب مهارتهم في استخدام الجياد السريعة وفنون الحرب ، بالاضافة الى تمددهم الانقضـــاض على قوات الزبير ومهاجمتها على حين غرة من جهة لا يتوقعون أن يهاجموهم منها . وهكذا كان الأمر منذ بداية الحرب الى أن استطاع الزبير الانتصار عليهم ودخول بلادهم وادخالهم تحت طاعته وحكمه(٨٤) .

بعد هزيمة عرب الرزيقات ودخول الزبير شكا في غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من اغسطس سنة ١٨٧٣ م ، فر عدد من مشايخهم والتجأوا الى السلطان ابراهيم سلطان دارفور . بثوا له شكواهم من احتلال الزبير وجيشـــه لبلادهم وعاهدوه على الخضوع له ،بعد أن كانت بلادهم مستقلة عن دارفور منذ ثلاثين عاما فرحب السلطان بهذا الذى رد الى مملكته ما فقدته منذ مدة ، وكان طبيعى أن يحمى السلطان جارا التجأ اليه ، واحتمى فيه(٨٥) .

ابرق الزبير في الثامن والعشرين من شعبان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م غداة انتصاره على عرب الرزيقات الى مدير عموم قبلى السودان يشـــرح له تفاصيل المعارك التى دارت بينه وبين عرب الرزيقات ونبأ انتصاره عليهم ويطلب منه ارسال اورطتين عساكر واوردى باشـــبوزق للاقامة بمركز شكا على أن يرســـل بدلا منهم أربع أورطات من العســـاكر المستجدين . وقد صدق يوزباشى لبلوك ووكيل الاوردى الباشبوزق على ما رواه الزبير ، للمحافظة على الامن بها ، وقد قام الحكمدار في غاية شـــعبان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثانى والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٣ م بعرض ما ذكر على خيرى باشا مقترحا ضرورة التأكيد من صدق رواية الزبير قبل ارساله للنجدة التى طلبها . كما اوضح الحكمدار انه أمر الزبير بالابقاء على العســـاكر ومن معهم بجهة مؤمنة وتنصيب وكيل على جهة شكا من طرفه ممن يراه صالحا لذلك(٨٦) .

وفى الثانى من رمضـــــان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الرابع والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٣ م أبلغ خيرى باشا مدير عموم قبلى السودان بالموافقة على مطالب الزبير وارسال اورطة عساكر

جهادية واوردى باشبوزق ومدفعين وتبليغه ممنونية الحضـــــرة الخديوية والانعام عليه برتبة قائمقام(٨٧) مكافأة له مع البقاء بجهة شكا لقمع العصاة والعمل على تأمين تلك الجهات ثم الحضــور للخرطوم بعد ذلك للمداولة فى أمر تلك الجهات(٨٨) .

وقد وجد الحكمدار بعض الصعوبة فى توفير ما يحتاج اليه الزبير من العســاكر والمدافع رغم موافقة الحضرة الخديوية من الخرطوم ، فأرسل الى خيرى باشا فى الرابع من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السادس والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٣ م يقترح ارسال القوة المطلوبة من مديرية كردفان وذلك لقربها من شكا وتوافر ادوات ووسائل ترحيل العساكر بها او الانتظار ريثما يحضر الزبير الى الخرطوم للمداولة معه فى أمر هذه العساكر وتسليمها له(٨٩) ، فجاءت الموافقة على اقتراحات الحكمدار فى السادس من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثامن والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٣ م(٩٠) .

وفى الثامن من شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من نوفمبر سنة ١٨٧٣ م أبرق خيرى باشا الى مدير عموم السودان يطلب منه تعـــريفه باســـماء أصـــحاب المشـــارع ببحر الغزال الذين لم يقدموا المســـاعدة للزبير فى حربه ضد عرب الرزيقات . وذلك تمهيدا لتكليف الزبير بطردهم من هذه المناطق بعد حضوره للخرطوم(٩١) . وفى العاشر من شوال سنة ١٢٩٠هـ الموافق الثانى من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م ابرق مدير عموم قبلى السودان لخيرى باشا موضحا له اسماء اصـــحاب المشـــارع الذين لم يقدموا مساعدتهم للزبير اثناء حربه مع الرزيقات(٩٢) .

وكان خيرى باشا قبل ان يصله هذا الخطاب الأخير قد أبرق لمدير عموم قبلى السودان فى الثامن من شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من نوفمبر سنة ١٨٧٣ م بتعليمات تقضى بضرورة اجابة الزبير لجميع مطالبه ومحاولة استمالته بكل الطرق ، وتشويقه وترغيبه من جهة الحكومة عند حضوره للخرطوم للتشاور والتباحث بشأن المناطق الجديدة(٩٣) .

وفى الثانى من ذى القعدة سنة ١٢٩ هـ الموافق الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٢ م أبرق خيرى باشا الى حكمدار السودان يؤكد له ما سبق بخصوص استعمال الحزم والاحتياط باجراء كافة الوسائل والوسايط اللازمة لاستمالة الزبير لجانب الحكومة وتجنب ما يغيره من جهتها والاحسان عليه برتبة القائمقام وتقليده مديرا على جهة بحر الغزال ، وارسال مقدار من العساكر والجبخانة لاعانته فى ذلك(٩٤) . وفى السادس من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من ديسمبر ١٨٧٣ م أبرق حكمدار السودان الى خيرى باشا يعلمه بانه كتب الى مدير مديرية كردفان بارسال أربعة بلوكات جهادية ومائة خيل باشبوزق، ومدفع بجبخانة كافية للزبير بجهة شكا هذا بخلاف ما عنده من بلوك جهادية ومدفع ومائة نفر باشبوزق بالاضافة الى ما تحت يده من قوات أخرى ، وانه سوف يرسل للزبير الفرمان العالى بالرتبة التى منح اياها . كما ان التعليمات اللازمة لادارة المديرية وتنظيمها ارسلت اليه(٩٥) .

الزبير وعبد الله التعايشى :

كان من بين الاسرى الذين وقعوا فى يد الزبير بحلة السروج(٩٧) رجل يدعى عبد الله ود محمد آدم توشين لم يتردد الزبير فى الامر باعدامه أول الأمر ، ولكن العلماء المرافقين للزبير

اعترضوا حين أمر الزبير باعدام عبد الله بحجة ان الشرع لا يجيز له قتل أسير من أسرى الحرب ، فضلا عن ان السياسة تنكر عليه اعدام رجل يعتقد الناس فى صلاحه ويؤدى الى اعتقاد الناس ان الزبير رجل طاغية . وأمام هذه الاسباب عفا عنه الزبير . وعند فتح دار نور طلب عبد الله من الزبير ان يقطعه قطعة من الارض ، فاقطعه الزبير اياها على ان يكف عما فيه من الدجل والشعوذة ولم يمض سوى القليل حتى بعث للزبير بكتاب وهو فى دارا يقول له فيه : « رأيت فى الحلم انك انت المهدى المنتظر وانى أحد اتباعك فأخبرنى ان كنت مهدى الزمان لاتبعك » فرد عليه الزبير بالرد التالى « استقم كما أمرتك والا أعملت السيف فى رقبتك اننى لست بالمهدي المنتظر ، وانما أنا واحد من جنود الله يحارب من طغى وتمرد » ورغم ذلك لم يكف عبد الله عن الدجل والشعوذة حتى اشتهر أمره مع محمد أحمد المهدى فى جزيرة آبا(٩٨) .

هذا ما كان من أمر رجل احترف الشعوذة والاتجار بدين الله وعلمه لينال قوت يومه ، وكاد أن يختفى اسمه من الوجود عندما أمر باعدامه بعد ان اسره واودعه السجن فى شكا جنوبى دارفور سنة ١٨٧٤ م لولا ان منعه العلماء من ذلك باسم الدين والسياسة(٩٩) .

الزبير والشيخان منزل وعليان :

بعد ان دخل الزبير بلاد الرزيقات فاتحا منتصرا فى غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من اغسطس سنة ١٨٧٣ م فر هذان الشيخان ، والتجآ الى السلطان ابراهيم فى الفاشر عاصمة دارفور للاحتماء به وكان الشيخ عليان هذا واحدا من عبيد الزبير ، اثرى بعد ذلك ثراء فاحشا بسبب اشتغاله

بالتجارة مع الزبير . وقد عمدا هذان الشيخان الى اثارة ثائرة من تبقى حيا من مشايخ عرب الرزيقات على الزبير للتمرد عليه قبل التجائهما للسلطان ابراهيم سلطان دارفور(١٠٠) .

وحين بلغ مسامع الزبير ذلك . ارسل الى السلطان ابراهيم خطابا فى الخامس عشر من رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثامن من سبتمبر سنة ١٨٧٣ م يشرح له فيه :

اولا : موقف عرب الرزيقات قبل نشوب الحرب بينهم وبينه وتعمدهم نهب اموال التجار وقتل البعض الآخر ومنعهم من المرور الى منطقة بحر الغزال ، وعدم استجابتهم للانذارات المختلفة التى وجهها اليهم الزبير حتى يكفوا عما يفعلوا بالمسلمين .

ثانيا : تفاخر هؤلاء العرب بما يملكون من فرسان وجياد سريعة واسلحة لا قبل للزبير بها . قبل أن يعول على حربهم .

ثالثا : تفاصيل المعارك التى دارت بين قواته وعرب الرزيقات والتى انتهت بهزيمتهم .

رابعا : المعلومات التى وصلته عن التجاء الشيخين منزل وعليان له وتحريضهما له على الدخول فى حرب مع الزبير لاستعادة بلادهم .

خامسا : مدى الخطر الذى سوف يلحق به وببلاده ، اذا ما اخذ بكلام هذين الشيخين ودخل فى حرب معه فانه بذلك سوف يقع فى حرب مع الدولة المصرية ذات القوة الغالبة والمدد غير المنقطع وان الهزيمة سوف تلحق به .

سادسا : ضرورة تسليم الشيخين منزل وعليان له وارسالهما تحت حراسة مشددة كى يستطيع أن يستخلص منهما حقوق المسلمين التى اهدراها .

سابعا : اوضح له فى خاتمة الخطاب ما كان من عظيم المودة وحسن العلاقة بين كل من خديو مصر ووالده السلطان حسين ، وطالبه بضـــرورة استمراره فى نفس العلاقة ، والا يعمل على افسادها(١٠١) .

وعلى الرغم مما ورد فى هذا الخطاب من جملة نصــــائح وتحذيرات . فان السلطان ابراهيم ظل حاقدا على الزبير لدخوله بلاد عرب الرزيقات التى كان يعتبرها جزءا من مملكته ، فلم يرد على خطاب الزبير . بل ارسل الى الشيخ مادبو بن على(١٠٢) وغيره من مشايخ عرب الرزيقات خطابا مشحونا بالسباب والشتم فى الزبير يقول لهم فيه : « لا تظنوا اننى اترك البلاد لهذا الطاغية الجلابى ، وها انذا اعد الجيوش للزحف عليه وطرده من البـلاد بالخزى والخسران »(١٠٣) .

وقد وقع هذا الخطاب فى يد الزبير . وبعد اطلاعه عليه ارسل للسلطان خطابا مؤرخ فى الواحد والعشرين من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثانى عشر من نوفمبر سنة ١٨٧٣ م يطلب منه فيه :

أولا : ابداء الاسباب التى دعته الى الاكثار من الفاظ الشتم والسباب ضده فى خطابه للشيخ مادبو بن على حيث اتهمه بانه طاغ وجلابى اى ظالم وتاجر رقيق ، واوضح له ان دخوله بلاد عرب الرزيقات كان من اجل تاديبهم نتيجة الاعمال التى اقترفوها ضد قوافل التجارة والتجار .

ثانيا : تسليم الشيخين منزل وعليان ، سببى الفتنة والوقيعة كما سبق أن طلب ذلك فى خطابه السابق .

ثالثا : عدم المخاطرة بدخول حرب ضده والا تســـتلحقه الهزيمة .

رابعا : عدم توقع خروجه (أى الزبير) من بلاد الرزيقات بالقوة أو الحرب ، بل أن اراد السلطان ذلك فيكون بالتراضى والاتفاق بينه وبين السلطان وجناب الخديو ، على شرط دفع نفقات الحملة ، فاذا فعل ذلك وأمره الخديو برفع يده من البـــلاد . فحينذاك سوف يخرج منها(١٠٤) .

وقد ذكر عبد الرحمن زكى أن الزبير اراد بهذه الحيلة فى المراسلات السياسية ان يضع السلطان أمام الأمر الواقع ، وأن يثقل عليه بالمطالب فلا يستطيع تنفيذها . حينئذ يجد الزبير سببا فى قتاله وغزو دارفور(١٠٥) .

من المؤكد أن الزبير لم يكن يريد ذلك . بل تمسادى عرب الرزيقات فى أعمالهم الاستفزازية واحترامه لسيادة السلطان على الأراضى التى كان يدعى ملكيتها وهى شكا .. هى التى دفعته الى الكتابة الى السلطان لكى يقوم بتأديبهم أو يقدم ما يمكنه من المساعدة للزبير لكى يقوم بتأديبهم . ولكن السلطان لم يأبه بكل هذا ، فكان من الزبير أن قام بهذا العمل منفردا حتى أمكن الأمن والسلام أن يعودا لهذه البلاد . وأن تستمر حركة التجار دون توقف وهى عصب الحياة وشريانها فى هذا الوقت . وقد كان الدافع لقيام الزبير بمراسلة الســـلطان فى المرة التالية هو الفتنة التى بثها للسلطان كل من الشـــيخين منزل وعليان ، والتى كان من نتيجتها وقوع الحرب بين الزبير والسلطان كما سيجىء فى الفصل التالى .

تعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا :

(سنة ١٢٩٠ هـ ـ سنة ١٨٧٣ م) :

اراد الزبير ان يستوثق من معاونة الحكومة له ، وأنها لن تسدد له طعنة من الخلف ، وهو يقاتل عرب الرزيقات ، فأرسل الى حكمدار السودان الجديد اسماعيل باشا أيوب يبلغه بتفاصيل ما حدث ، ويطلب منه ان يرسل حاكما يتولى حكم البلاد التي فتحها في بحر الغزال وتخدم دارفور (شكا) بالنيابة عن خديو مصر(١٠٦) وختم رسالته « فاذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد عدت أنا الى تجارتي تاركا كل ما انفقت من الاموال في الفتح هدية لحكومتي السنية ، وانتظرت مكافأتها الادبية حسبما تقتضيه عدالتها وكرمها »(١٠٧) . وقد قام الحكمدار بابلاغ القاهرة برغبة الزبير ، فلم تلبث الحكومة المصرية أن بعثت الى الحكمدار ببرقية في الحادي عشر من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق السابع والعشرين من فبراير سنة ١٨٧٤ م تمنح فيها الزبير الرتبة الثانية مع لقب بك مع التوصية بابلاغه هذه الرتبة واعتباره بها اعتبارا من تاريخ صدورها(١٠٨) . وقام الحكمدار بابلاغه بما جاء ببرقية الحكومة بعد توجيه شكر جناب الخديو له على حسن ولائه ورغبته في وضع البلاد التي فتحها بين يديه ليولي عليها من يشاء . مانحا اياه الرتبة الثانية مع لقب بك ويتولى أمر مديرية بحر الغزال وشكا نظير جزية يدفعها لخزانة الحكومة المصرية قدرها ١٥,٠٠٠ جنيه سنويا . فقبل الزبير دفع هذه الجزية وتولى أمر البلاد رسميا وشرعيا ، وشرع في تنظيمها وعمارتها والعمل على اشاعة العدل بما يتناسب مع سمة الحكم المصري في هذه البقاع ، ولكن السلطان ابراهيم لم يطق صبرا على بقائه في شكا فلم يلبث أن أصدر أوامره الى أحمد شطه قائده في دارا التي تقع على الحدود الجنوبية لملكته ، وسعد النور قائده في الشرق . فأخذا

في حشد الجيوش واعداد العدة لاخراج الزبير من شكا . ولكن حركات هذين القائدين لم تغب عن عيون رجال الزبير فكان رجاله يبلغونه اولا باول بهذه التحركات ، فيقوم بابلاغها بالتالي الى الحكمدار في الخرطوم ، فيرفعها الى الخديو اسماعيل في القاهرة(١٠٩) .

ومما يذكر ان حكمدار السودان كان قد بعث الى خيرى باشا ببرقية في السادس من ذي القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م يستأذنه في الكتابة الى سلطان دارفور لتبليغه بأن الزبير قد صار تعيينه بصفة رسمية مديرا على جهات بحر الغزال وبحر العرب والقبائل التابعين لها حتى لا يظن السلطان بأن الزبير يقيم بجهة شكا من تلقاء نفسه ، كما ابلغ الحكمدار خير باشا بانه قد تأكد على الزبير بعدم التعدي على حدود دارفور حتى يكون هناك مودة وحسن جوار ولا تنقطع التجارة بين البلاد . وقد جاء رد خيرى باشا في التاسع من ذي القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م بعدم الكتابة للسلطان في هذا الخصوص وذلك حسب ما تقتضيه الارادة السنية(١١٠) .

هذه هي قصة الزبير منذ غادر مقره في بحر الغزال لتأديب عرب الرزيقات ، وفتح الطريق بين مديريته ومديرية كردفان ليحضر بعدها الى الخرطوم ، حيث يتفق مع الحكمدار على ادارة مديريته الجديدة ، ولكن الظروف ساقته من حرب عرب الرزيقات الى حرب مع سلطنة دارفور .



هوامش الفصـــــل الثاني

(١) مكي شبيكة (دكتور) : السودان عبر القرون ص ١٦٤ .

(٢) مثل الحكومة البلجيكية والبرتغالية .

(٣) زاهر رياض (دكتور) الســـــودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال ص ٨٥ ـــ ٨٦ .

(٤) أحمد باشا المنكلي : تولى منصب الحكمدارية في السودان في عهد محمد علي من سنة ١٨٤٣ م الى سنة ١٨٤٥ م الموافق سنة (١٢٥٩ هـ ـــ ١٢٦١ هـ) .

(٥) عباس الاول : حكم مصر بعد محمد علي ابتداء من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٥٢ م . وفي عهده الغي احتكار الحكومة لتجارة الصمغ ، وضعفت سلطة الحكومة على الســـــودان التي لم تتعد جنوب الخرطوم حتى زالت نهائيا في الأجزاء البعيدة حين ظهرت الجماعات المسلحة وانتشرت الزرائب والمحطات التي انشأها التجار الأوربيون وغيرهم .

(٦) سعيد باشا : حكم مصر ابتداء من سنة ١٨٥٤ حتى ١٨٦٣ م وحاول سعيد باشا اصلاح الحالة التي انهارت حتى كادت تعود الى ما كانت عليه قبل محمد علي وذلك بسبب ضعف الدولة العثمانية .

(٧) مكي شبيكة : (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٨) اسماعيل باشا : وهو ثاني انجال ابراهيم باشا ، تولى الحكم بعد وفاة سعيد باشا من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٧٩ م وقد اختلفت سياسته عن كل من سبقوه، فاتجه نحو ادخال مصر ضمن نطاق الدول الأوربية ، فتدخل الحضارة الأوروبية اليها ، بمظهرها المدنية والتقدم وخاصة بعد أن حصل على فرمان الوراثة الصلبية على مصر وجميع ملحقاتها في سنة ١٨٦٦ م .

(٩) موسى حمدي باشا : تولى الحكمدارية سنة ١٨٦٢ م ولمدة ثلاث سنوات انتهت بوفاته في ٦ مارس سنة ١٨٦٥ وقد سر الخديو اسماعيل باشا من اعماله وفي عهده صارت السودان في احسن حال .

(١٠) جعفر باشا مظهر : تولى حكمدارية السودان من ١٨٦٦م الى ١٨٧١ م الموافق ١٢٨٢ — ١٢٨٧ هـ فى عهد الخديو اسماعيل باشا أنعم عليه الخديو برتبة اللواء وبالنيشان المجيدى الثانى وسمى جعفر باشا مظهر حاكما عاما للسودان .

(١١) مكى شبيكة (دكتور) السودان فى قرن ص ص ٨٠ — ٨٢ .

(١٢) السير صمويل بيكر : — S.S. Bakar ولد سير صمويل هوايت بيكر فى ٨ يونيو سنة ١٨١١ ونشأ فى مزرعة ابيه واتم علومه فى فرانكفورت بالمانيا حيث هوى الصيد واستخدام السلاح النارى الى درجة الاجادة ثم سافر الى جزيرة سيلان حيث قضى زهرة شبابه (١٨٤٥ — ١٨٥٥ م) وبدأ فى عام ١٨٦١ رحلته الكشفية من القاهرة للبحث عن منابع النيل وكشف بحيرة البرت فى ١٨٦٤ م ، وبعودته الى لندن احتفلت به الجمعية الجغرافية ومنحته ميداليتها الذهبية كما منحته الحكومة لقب فارس . وقام بمهمته الشهيرة فى اعالى النيل ١٨٦٩ — ١٨٧٣ م ثم خدم الامبراطورية البريطانية كمستشار لها فى قبرص ، وتوفى فى ٣٠ ديسمبر ١٨٩٣ م .

(١٣) ولد شارلس جورج جوردون فى مدينة ولويش بانجلترا سنة ١٨٣٣ م، وانتظم فى سلك العسكرية بعد أن درس علومها فى المدارس الحربية سنة ١٨٥٢ ، واشترك فى حصار باستبول سنة ١٨٥٥م وفى ١٨٦٠ سافر الى حرب الصين وبقى هناك الى سنة ١٨٦٥ م ، ثم عاد الى انجلترا وقد رقى الى رتبة الكولونيل فى الجيش ، وفى ١٨٧١ اثنى عليه ولى عهد انجلترا عند مروره من مصر قاصدا الى الهند امام الخديو اسماعيل ، واشار بترقيته وتعيينه مكان صمويل بيكر حاكما بمديرية خط الاستواء فصدرت الاوامر بتعيينه .

(١٤) اسماعيل باشا أيوب : تولى حكمدارية السودان (١٢٨٩ — ١٢٩٣ هـ) (١٨٧٣ — ١٨٧٧ م) قسمت البلاد فى عهده الى مديريات وجعل كل مدير مسئولا عن مديريته ومستقلا عن باقى الحكمدارية وفى عهده تم فتح سلطنة دارفور بفضل مساعدة الزبير باشا رحمة للحكومة .

(١٥) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٨٦ — ٨٧ .

(١٦) ايفلين بارنج : وهو القنصل العام لانجلترا فى مصر وقد عرف فيما بعد باسم اللورد كرومر .

(١٧) Moorehead, Alam : The White Nile PP. 183 — 185.

(١٨) شوقى الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ص ٢٣١ انظر الوثيقة رقم (١٠) بملحق وثائق نفس الكتاب .

(١٩) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٧ .

(٢٠) رومولو جسى Romolo Gessi وهو ايطالى الجنسية ولد فى سنة ١٨٣٢ م فى القسطنطينية لام امريكية واب ايطالى وكان قصير القامة ، قوى البنية ، هادئا ، صلبا ، عبقريا بفطرته فى اعمال الميكانيكيا ، شغل كثيرا من الوظائف السياسية البسيطة ، وكان مترجما للقوات الملكية فى كريما ، وكان يعمل فى المدفعية الملكية وبينه وبين جوردون شبه كبير فكلاهما رجل حرب وكان جسى قد التحق بخدمة الحكومة المصرية فى السودان ومكث فى منطقة بحر الغزال عاما أو أكثر بعد رحيل جوردون ، وفى اثناء عودته الى الخرطوم وبرفقته ٤٠٠٠ شخص تعثرت الرحلة لمدة ثلاثة شهور مخيفة فى منطقة السدود مات اثناءها اغلب رجاله ، اما هو فقد مات فور وصوله لمصر . وكان جسى قد دخل السودان برأس مال قدره عشرة جنيهات فقط وخرج منها ومعه ٥٠٠,٠٠٠ الف جنيه وعشرة آلاف أوقية من الذهب هذا الاشياء الفضية الا أن رفاقه اقتسموها عندما فاضت روحه عند وصوله السويس فى ٢٨ مارس سنه ١٨٨١ م الموافق ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢١) جاكسون هـ . س : (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) ، جوردون باشا ص ص ٥٥ ــ ٥٦ .

(٢٢) معاهدة الغاء تجارة الرقيق : واهم ما جاء بها :

١ ــ منع تصدير الرقيق

٢ ــ انزال العقوبة بالمتجرين وتسليم الأجانب منهم الى قناصلهم من أجل محاكمتهم .

٣ ــ تزويد الرقيق المحرر بأوراق العتق .

٤ ــ استخدام الرقيق المحرر فى اعمال مناسبة .

٥ ــ اهتمام الحكومة بتربية أولادهم .

٦ ــ اعطاء الطرادات البريطانية حق تفتيش سفن مصر فى البحر الأحمر وخليج عدن .

٧ ــ تحريم بيع الرقيق فى مدى سبعة أعوام .

(٢٣) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢٤) منطقة بحر الغزال : وهى من مديريات السودان ومن أهم مدنها واو التى تقع على نحو ١١٤ ميلا من مشرع الريك وهى عاصمة البلاد بعد الفتح الاخير وكذلك ديم الزبير وهى عاصمة البلاد فى الفتح الأول وبها حفرة النحاس .

(٢٥) محمد صبرى (دكتور) : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٢١ .

(٢٦) Churchill, W. : The River war P. 16.

(٢٧) Sparrow, G : Gordon Mandarin and Pasha P. 94.

(٢٨) ورد ذكره في بعض الوثائق على أنه « محمد البلالي » وفي البعض الآخر ذكر انه محمد الهلالي .

(٢٩) Duncan, J.S.R. : A Record of a Chievement P. 12.

(٣٠) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٥٤ .

(٣٢) انظر الوثيقة رقم (١) دفتر رقم (٥٧٢) عابدين صادر معية سنية/ مكاتبات تركي ص ص ١٦٨ ، ١٨٤ مكاتبة رقم (٤) .

(٣٣) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٣ .

(٣٤) كجوك علي اغا او كوتشوك علي : كما ورد ذكره في بعض الوثائق .

(٣٥) انظر الوثيقة رقم (١) .

(٣٦) العساكر الباشبوزق اي الجنود غير النظاميين .

(٣٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٣٨) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٣٩) انظر الوثيقة رقم (٢) دفتر رقم (٧) عابدين صادر تلغرافات شفرة/ تركي ص (٢٢/٢٤) تلغراف رقم (٣٣٠) .

(٤٠) انظر الوثيقة رقم (٣) دفتر رقم (٨) عابدين صادر تلغرافات عربي شفرة ص (١٣/٢٥) تلغراف رقم ١٥٣ .

(٤١) انظر الوثيقة رقم (٤) دفتر رقم (٥٨٣) صادر معية سنية مكاتبات تركي ص (١٤) مكاتبة رقم (١) .

(٤٢) حفرة النحاس : تقع على مسيرة ستة أيام الى الشمال من منطقة منجة .. وعلى الحدود الجنوبية لدارفور وكان النحاس ينقل منها الى الأسواق على صورة حلقات رفيعة المقطع متعددة الزوايا يتراوح وزنها ما بين خمسة وخمسين رطلا أو ما يزيد ، أو صورة أشكال بيضاوية الشكل غير منتظمة الطرق . وكانت المائة رطل من النحاس تساوي ألفا وخمسمائة قرش اي ما يوازي خمسة عشر جنيها انجليزيا وكان بالغ النقاء حتى أنه يفوق ذلك المستورد من أوربا ، وكان بالامكان استخراج تسعة وتسعين قنطارا من النحاس من المائة قنطار من النحاس الخام ، ولم يكن هذا العمل شاقا ، فقد كان من بين اتباع الزبير من اعتاد العمل في هذه المناجم وكان الزبير قد أرسل عينة من النحاس المستخرج الى

القاهرة لفحصها عندما عين مديرا لبحر الغزال فوجدوا أن النحاس المستخرج منها نقي وصالح للاستغلال ، وكان بعض الاهالي يستخرجونه بالطرق البدائية ويستخدمونه بعد ذلك في عمليات المقايضة .

(٤٣) شوقي الجمل (دكتور) : تاريخ سودان وادي النيل جـ ٢ ص ١٧٠ .

(٤٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ١٥٤ — ١٥٥ .

Schweinfurth, G. ; The heart of Africa PP. 195 — 197 (٤٥)

(٤٦) تقع على مسيرة خمسة ايام من ديم الزبير .

(٤٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٦ — ٤٧ .

(٤٨) انظر الوثيقة رقم (٥) دفتر رقم (١٢) وارد عابدين تلغرافات عربي ص (١٨/٣٦) تلغراف رقم (٢٨٠) .

(٤٩) انظر الوثيقة رقم (٦) دفتر رقم (١٨٥) وارد عابدين معية سنية مكاتبات ص (٤٢) مكاتبة رقم (٨) .

(٥٠) لم يتم العثور على هذه الرسالة ضمن الوثائق المحفوظة بدار الوثائق التاريخية أو في مراجع السودان .

(٥١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٤٧ — ٤٨ ، ١٥٥ .

(٥٢) جعفر باشا مظهر : (١٢٨٢ — ١٢٨٧ هـ الموافق ١٨٦٦ — ١٨٧١ م) انعم عليه اسماعيل باشا برتبة اللواء والنيشان المجيدي الثاني وسمي جعفر باشا مظهر حاكما عاما للسودان فدخل الخرطوم في ٧ شوال ١٢٨٢ هـ الموافق ٥ مارس ١٨٦٦ م وحدث في عهده غلاء فاحش بالخرطوم حتى هاج الناس ، وفي ١٨٦٦ م ذهب الى سنار فازوغلي وكردفان فاستطلع أحوالها وعاد الى الخرطوم وطلب رد العساكر السودانية الى مصر وفي ١٨٦٧ م ارسله اسماعيل باشا في مهمة الى البحر الأحمر فعاد منها في سنة ١٨٦٨ م وفي عهده كانت حملة البسلاي المشهورة واكتشاف سير صمويل بيكر لبحيرة البرت .

(٥٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٤٨ — ٤٩ .

(٥٤) رابح فضل الله : ولد في حي سلامة باشا بالخرطوم سنة ١٨٤٦ م منحدرا من قبيلة الهمج ، وكان والده فضل الله يعمل في الجيش المصري ، وعلى يدي المصريين من موظفي الحكومة بالخرطوم تعلم رابح القراءة والعلوم الاولية كما حفظ القرآن ، وحين اشتد ساعده عمل في الشركات حتى وصل الى وكيل شركة وهي الشركات التي كونها تجار الرقيق ، ولقد لمع اسم رابح مقترنا باسم الزبير لانه كان سيفه المنتصر في حروبه في كل من بحر الغزال ودارفور وحين حضور

الزبير الى مصر نراه يقلص لابن زعيمه سليمان فى حروبه ضد السيطرة الأجنبية فى السودان ، ولكن حين اغمد سليمان سيفه واستكان لوعود روموللو جسى بالعفو عنه نخاطبه وذكره بوالده المعتقل فى مصر ثم لوى زمام فرسه الى غرب السودان ومعه اربعمائة والف فارس .

(٥٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٤٩ ـ ٥٢ .

(٥٦) انظر ملحق الوثائق الوثيقة رقم (٦) .

(٥٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٥٨) Jackson, H.C : the black ivory and white PP. 48 — 44.

(٥٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٥٤ .

(٦٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٥٤ ـ ٦٠ .

(٦١) مكى شبيكه (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦٢) شوقى الجمل (دكتور) : المرجة السابق ص ١٧٢ .

(٦٣) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦٤) آدم باشا : كان من اعظم ضباط الجيش المصرى المنظم وقد تربى فى مصر ورافق ابراهيم باشا الى بلاد الشام فاشتهر بالبسالة والاقدام وذهب لكسلا لاخماد ثورة بها وهو عربى الجنسية وابوه محمد ضو البيت شيخ عربان دار حامد بكردفان .

(٦٥) انظر الوثيقة رقم (٧) دفتر رقم (١٨٦٤) وارد معية سنية مكاتبات ص (٢٨) مكتابة رقم (٤) .

(٦٦) مكى شبيكة (دكتور) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦٧) انظر الوثيقه رقم (٨) دفتر رقم (١٨٧٢) وارد معية سنية مكاتبات عربى (١٧) مكاتبة رقم (٧٨) .

(٦٨) خيرى باشا : كان يشغل وظيفة مهردار الخديو اسماعيل باشا .

(٦٩) انظر الوثيقة رقم (٩) دفتر رقم (١٤) صادر عابدين تلغرافات من (٢٣/٤٥) تلغراف رقم (٣١٦) .

(٧٠) انظر الوثيقة رقم (١٠) دفتر رقم (١٨٦١) صادر معية سنية عربى مكاتبات ص (٧١) مكاتبة رقم (١٧) .

(٧١) عرب الرزيقات : اذا اخترقنا حدود كردفان الجنوبية دار الحمر الى دارفور ،دخلنا بلاد الرزيقات نجد عرب الرزيقات الذين يمثلون اكثر قبائل دارفور ثروة واقواهم نفوذا ، وأوطانهم تقع فى اقصى الجنوب الشرقى لدارفور بين

الحمر شرقا ، وقبائل الهبانية غربا ، والدنكا جنوبا ، وينقسم الرزيقات الى ثلاثة اقسام هم الماهرية والمحاميد والنوايبة ، وهناك ثلاثة قبائل بهذا الاسم في شمال دارفور كلها تعمل برعي الابل ، وبعضها يعيش على حدود دار واداي ، وهذا ما يحمل على الظن من أن شعبة من كل من هذه القبائل الثلاث قد هاجرت الى الجنوب وعاشت في أوطانهم متجاورة ، ثم اتحدت فكونت قبيلة الرزيقات التي أصبحت من أعظم واشهر قبائل القارة .

(٧٢) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٨٤ — ٨٥ .

(٧٣) انظر الوثيقة رقم (١١) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد معية سنية مكاتبات ص (٣) مكاتبة رقم (٦٤) .

(٧٤) انظر الوثيقة رقم (١٢) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركي ص ص (٥/١٠ ، ٦/١١ ، ٦/١٢ ، ٧/١٣ ، ٧/١٤) تلغرافه رقم (٧) .

(٧٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٢.

(٧٦) بقبة : وهي التي اتخذها الزبير عاصمة له في بحر الغزال وعرفت فيما بعد باسم ديم الزبير ثم بديم سليمان الزبير الفصل الأول .

(٧٧) Jackson, H.C. : Op. Cit., P. 51.

(٧٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق السابق ص ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٧٩) شكا : عاصمة بلاد الرزيقات واحد مراكز تجارة الرقيق المهمة .

(٨٠) نعوم شقير : المرجع السابق ص ص ٦٦ — ٦٩ .

(٨١) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٥ .

(٨٢) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ، ص ٦٩ .

(٨٢م) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : الاجوبة السديدة في تهديد وانذار أهل المكيدة ص ص ٢ — ٤ .

(٨٣) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٦ .

(٨٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٦٧ — ٦٨ .

(٨٥) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٨٦ — ٨٧ .

(٨٦) انظر الوثيقة رقم (١٣) دفتر رقم (٢١) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٢٨/٥٥ ، ٢٨/٥٦) .

(٨٧) قائمقام : وهي تعادل رتبة العقيد في الرتب الحديثة .

(٨٨) انظر الوثيقة رقم (١٤) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (١٧/٣٣ ، ٧/٣٤) تلغراف رقم (٢٠٠) .

(٨٩) انظر الوثيقة رقم (١٥) دفتر رقم (٢١) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٣٠/٥٩ ، ٣٠/٦٠) تلغراف رقم (٣٥٨) .

(٩٠) انظر الوثيقة رقم (١٦) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغرافات شفرة ص ص (١٧/٣٤ ، ١٨/٣٥) تلغراف رقم (٢٠٧) .

(٩١) انظر الوثيقة رقم (١٧) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٢٧/٥٣) تلغراف رقم (٣٤٨) .

(٩٢) انظر الوثيقة رقم (١٨) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (١/٢) تلغراف رقم (٨) .

(٩٣) انظر الوثيقة رقم (١٩) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٢٦/٥٣ ، ٢٧/٥٣) تلغراف رقم (٣٤٦) .

(٩٤) انظر الوثيقة رقم (٢٠) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٤٢/٨٣ ، ٤٢/٨٤) تلغراف رقم (٥٠٦) .

(٩٥) انظر الوثيقة رقم (٢١) دفتر رقم (٢٢) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٢٦/٥١ ، ٢٦/٥٢) تلغراف رقم (٢٧٤) .

(٩٦) عبد الله التعايشي : وهو من قبيلة التعايشة من فرع الجبارات من بطن يقال له أبو سرة وجده يدعى أحمد تعايشي ، وقد كان جده هذا في عجليجة من أعمال شكا لما تولى الخلافة في عهد المهدية أمر أصحابه بعمل قبة فوق ضريحه ودعا الناس لزيارته . وكان عبد الله يعرف بعلى الكرار من بلاد الترى الذي تقع بين واداي وتزوج بأكثر من امرأة منهن أرملة ولدت له عبد الله سنة ١٢٦٦ هـ الموافق ١٨٥٠ م كان والده يؤمه المرضى وذوو الاسقام يلتمسون عنده الشفاء بما يتلوه من القرآن فلما تقدم به السن قام عبد الله مقامه في هذه الصناعة إلى أن دعاه عرب الرزيقات عند نشوب الحرب بينهم وبين الزبير لقراءة الاسماء لهم لعلها تقبض على سلاح الزبير ورجاله فلا يطلق النار في ساحة الحرب وتعاهدوا له في مقابل هذا ببقرة حلوب وقد نشأ عبد الله هذا ولم تكن له رغبة في التعليم ولم يحفظ القرآن إلا بعد جهد شديد .

(٩٧) حلة السروج : تقع بين مركز شكا ودارا ببلاد دارفور .

(٩٨) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ص ٧٠ — ٧٢ .

(٩٩) Henderson, K.D.D. : The Sudan Republic P. 35.

(١٠٠) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٧٢ .

(١٠١) الزبير رحمة (جمعة ياسين عبد محمد) : المرجع السابق ص ص ٤ — ٦

(١٠٢) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ص ٧٣ .

(١٠٣) ماتيو بن على : شيخ مشايخ قبيله عرب الزريقات

(١٠٤) الزبير رحمة (جمعة ياسين حمد محمد) : المرجع السابق ص ص ٦ — ١٠

(١٠٥) عبد الرحمن زكى : أعلام الجيش والبحرية فى مصر أثناء القرن التاسع عشر جـ ١ ص ٩٣ .

(١٠٦) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق جـ ١ ص ٩٣ .

(١٠٧) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ص ٧٤ .

(١٠٨) شوقى الجمل (دكتور) : المرجع السابق جـ ٢ ص ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(١٠٩) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ص ٧٤ .

(١١٠) انظر الوثيقة رقم (٢٢) دفتر رقم (٢٢) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص (٢٦/٥٢) تلغراف رقم (٢٧٠) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٣) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربى ص (٤٤/٨٨) تلغراف رقم (٥٢٦) .



الفصـــل الثـــالث

الدور الذى لعبه الزبير فى فتح دارفور

الدور الذى لعبه الزبير فى فتح دارفور

اولا : الأسباب التى ادت لغزو سلطنة دارفور :

اتسمت العلاقات بين مصر ودارفور(١) لفترة غير قصيرة تمتد الى ما قبل تولى محمد على الحكم فى مصر بالطابع العدائى . وكان من أسباب ذلك هو طموح محمد على نفسه ومن تولى من بعده الحكم فى مصر — حتى قدوم الخديو اسماعيل باشا — فى ضم هذه السلطنة الى الممتلكات المصرية فى السودان(٢) وظلت فكرة غزو سلطنة دارفور ، واخضاعها لسلطة الحكومة المصرية هدفا واملا يراودان كل من تولى حكم مصر ، الا ان الجهود التى كانت تبذل فى هذا السبيل كانت تتعثر فى اغلب الأحيان لأسباب كثيرة منها سياسة الحذر التى اتبعها كل من تولى حكم دارفور من السلاطين فى اقامة اى نوع من العلاقات مع حكام مصر خشية اتاحة الفرصة أمام هؤلاء للتدخل فى الشئون الخاصة بالسلطنة .

وفى أواخر القرن التاسع عشر تجمعت الأسباب القوية التى جسدت فكرة غزو دارفور ، وضرورة اخراجها الى مجال التنفيذ الفعلى . ففى سنة ١٨٧٤ م ساعدت عدة عوامل وعجلت بسقوط هذه السلطنة فكانت فترة حكم الخديو اسماعيل هى الفترة

التى شهدت نهاية الماضى الطويل لسلطنة دارفور ، ويمكن ايجاز هذه الاسباب فى النقاط الآتية :

أولا : الحاجة الى الغاء تجارة الرقيق فى السودان الغربى (دارفور وما جاورها)

ثانيا : الخوف من أن تصبح دارفور بسرعة مركزا لتجمع تجار الرقيق — وهم غير المرغوب فيهم والمتذمرون — مما يهدد سلطة حكومة الخديو فى السودان .

ثالثا : قوة الزبير رحمة كتاجر الآخذة فى النمو والازدياد(٣) .

رابعا : قبائل الرصاة التى تعيش بكردفان لم تكن لتكترث بالحدود السياسية ، بل تهرب خارج تلك الحدود عند مطالبتها بدفع الضرائب ، أو عند اقترافها اعمالا تستحق العقاب .

خامسا : كانت حكومة دارفور قد بلغت درجة كبيرة من الضعف ، وكان النزاع على السلطة فيها قد بلغ درجة خطيرة(٤) .

وفى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م كانت السلطات فى القاهرة متمسكة بالرأى القائل بأن غزو دارفور سوف يضع النهاية السريعة لتجارة الرقيق . وكان يشارك فى هذا الرأى من كان على دراسة تامة بحجم وأبعاد مشكلة الرق وتجار الرقيق فى هذا الجزء من افريقيا . وكانت الرقابة المحكمة على النيل الأبيض هى التى أغلقت هذا الممر الرئيسى فى وجه تجار الرقيق . وتحت ادارة كل من سير صمويل بيكر S.S. Bakar وجوردون Gordon أمكن طرد تجار الرقيق من اعالى النيل والتجأ عدد كبير من هؤلاء التجار الى دارفور حيث شجعهم هناك على الاستمرار فى تجارتهم سلطان الفوراويين حسين بن

الفضل(٥) . الذى كان معظم دخله يعتمد على تجارة الرقيق بعد ذلك أصبحت دارفور هى الملجأ الأمين لتجارة الرقيق فى غرب السودان ، وكانت عمليات تهريب الرقيق الى السودان ومصر مستمرة . لذلك كان القصد الرئيسى هو وقف عمليات التهريب هذه فعمد جوردون الى اقامة بعض النقط العسكرية على طول نهر السوباط مع اتخاذ بعض الاجراءات العسكرية ضد هؤلاء التجار . وبالرغم من ذلك فان التجار كانوا يقومون بتهريب رقيقهم خلال كردفان الى النيل الأبيض أو عبر صحراء مصر ، وقد تأكد وثبت فى الأذهان أن اخضاع تجارة الرقيق لن يكون ذا فاعلية ، الا اذا تم غزو سلطنة دارفور وفتحها أمام التجارة المشروعة وبهذا العمل سوف تقوم مصر بأداء خدمة عظيمة للانسانية . وقد كانت سلطنة دارفور لمدة طويلة تحوطها الكراهية من جانب العالم الخارجى نظرا لكونها مركزا لهذه التجارة المقوتة . وبعد اتمام فتحها والقضاء على هذه التجارة سوف تكون محطا للتأثيرات الحضارية الوافدة والمفيدة من جميع أرجاء العالم الخارجى .

وفى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م أصبح جزء من دارفور مكانا يجتمع فيه أغلب تجار الرقيق الذين أستاءوا من الاجراءات التى اتخذها ضدهم الخديو اسماعيل باشا . وكان الخوف من أن يقوم هؤلاء التجار والمؤيدون لسلطان دارفور بمحاولة الثورة ضد الحكومة اذا دعت الضرورة الى ذلك . ولم يكن هناك شك فى أن سياسة حكومة الخرطوم فى القضاء على تجارة الرقيق سوف تؤثر على ايرادات سلطان دارفور حسين بن الفضل وبالتالى على التحالف القائم بينه وبين تجار الرقيق . لذلك كان هذا الغزو ضروريا للاعتبارات السابقة ، وأيضا لمواجهة قوة الزبير التى استفحلت فى اقليم بحر الغزال ، وخصوصا بعد فشل البلالى فى حملته التى انتهت بمصرعه فى سنة ١٨٦٩ م الموافق ١٢٨٦ هـ

والتى أصبح للزبير بعدها مكانة وسلطة واسعة بين اتباعه وتجار الرقيق فى بحر الغزال . فكان أسقاط الزبير وضم مملكة دارفور الى مصر هما عين ما تريده حكومة الخديو فى القاهرة .

وبرغم ان ضم دارفور لم يكن من بين اهداف حملة البلالى بل كان الهدف كما سبق من هذه الحملة هو اسقاط الزبير ، والقضاء على ما لتجار الرقيق من نفوذ فى بحر الغزال . .ورغم ذلك كان السلطان حسين على علم بهذه المغامرة التى سوف تقدم عليها الحكومة . فاستعد للموقف واخذ حذره للدفاع عن نفسه وبلاده اذا ما حاول البلالى غزوها . وقد وصلت الى القاهرة انباء هزيمة البلالى مما جعل الادارة فى مصر تثور . ومع ذلك لم يتخذ جعفر باشا مظهر حكمدار السودان من جانبه اية اجراءات ضد الزبير . وفى سنة ١٨٧١ م عين اسماعيل باشا ايوب حاكما عاما للسودان وظهر أن هناك استعدادات تتخذ لارسال حملة ضد الزبير . وقد خاف الزبير انتقام الخديو منه لذا فقد عمل على تهدئة سلطات الخرطوم بكل وسيلة ، واعتذر عن اعماله السابقة ، وتوسل بكل تواضع طالبا العفو والسماح لحادثة البلالى ، ووعد فى مقابل ذلك بمهاجمة حدود دارفور ولما رأى اسماعيل باشا ايوب منه ذلك تخلى عن استعداداته العسكرية ، وكتب الى القاهرة فى افضلية حضور الزبير اليها للتشاور ، وكانت الادارة فى كل من القاهرة والخرطوم تنتظر تطور الاحداث فى بحر الغزال قبل القيام باى عمل مضاد ضد الزبير(٦) .

وقد ظهر أن الحكومة فى القاهرة كانت تخطط سياستها فى السودان لهدفين :

اولا : غزو سلطنة دارفور وضمها الى الممتلكات المصرية فى السودان ، وبذا يمكنها القضاء على اهم مراكز التجارة غير الشرعية (تجارة الرقيق) .

ثانيا : القضاء على الزبير رحمة وما له من نفوذ وسيطرة فى منطقة بحر الغزال ، وبذلك يمكنها ان تحكمها دون ادنى ازعاج من اى جانب .

استطلاع احوال دارفور الداخلية :

فحتى هذا الوقت لم يكن يعرف عن دارفور سوى القليل من المعلومات الغامضة المستقاة من اصحاب القوافل التجارية وغير ذلك من المصادر المختلفة . لذا فقد رأت الحكومة المصرية انه لابد من العمل على استكشاف احوالها الداخلية بكل الطرق المتيسرة تمهيدا لغزوها . فطلبت من جعفر باشا مظهر اثناء حكمداريته على السودان بحث مسألة مدى صعوبة او سهولة الطريق المؤدية الى دارفور مع بحث احوال هذه السلطنة ذاتها . فاطلع جعفر باشا مظهر على رحلة التونسى باللغة الفرنسية التى ارسلت للقاهرة لترجمتها . ولكن القاهرة اجابت بانها مترجمة ، والمعلومات التى وردت بها قديمة وغير موثوق بها . لذلك ارسلت بعثة برئاسة القائمقام محمد نادى باشا الى دارفور . فى التقرير الذى قدمه عن هذه الرحلة — ويقع فى اثنتى عشرة صفحة — وصفا لما شاهده من ابتداء قيامه من جهة أبو حراز حتى وصوله الى الفاشر مركز حكومة دارفور ، وما جرى أثناء اقامته بتلك الجهات من محادثات ونحوه وما سمعه من الاخبار والروايات كما هو مشروح تفصيلا بالاصـــــل . كذلك كيفية معاملته هو ومن معه اثناء اقامتهم لدى السلطان ، وتضمن التقرير ايضا وصفا للطرق والدروب وحالتها ، والبلدان التى مر بها ، والمسافات التى قطعها بساعات السير . واشار نادى باشا فى تقريره أيضا لظاهرة تجمع مياه الأمطار فى اشجار التبلدى المحفورة الوسط(٧) .

وعن قوة وزير السلطان العسكرية ، وعن جيش دارفور ومدى بدائيته واسلحته التى لا تخرج عن مجرد سيوف ورماح وجانب ضئيل من الاسلحة النارية . كما تكلم عن الاحتياطات المشددة التى اتخذت معه وعدم السماح له بحرية الانتقال او التجول . ونظام التشريفات السلطانية ، كما اشار الى استفسارات السلطان عن مصر وعن نواياها تجاه دارفور فأجابه بانها طيبة . وقد قدر نادى باشا ان حملة من الفى رجل يمكنها فتح دارفور . ويستنتج من التقرير بصفة عامة بان غزو دارفور ممكن لعدم فرض السلطان لسلطته على جميع بقاع دارفور وكذلك لضعف جيشه(٨) .وقد اعتبرت المعلومات التى وردت بتقرير نادى باشا يمكن الأخذ بصحتها الى حد بعيد . الا انها لم تكن الصورة المنشودة التى تريدها حكومة القاهرة عن احوال دارفور .

ثانيا : اسباب النزاع الذى نشا بين الزبير والسلطان ابراهيم :

١ ــ الدوافع السياسية والعسكرية :

كان هناك ما يشبه الاتفاق بين الزبير رحمة ومشايخ عرب الرزيقات استمر منذ مارس ١٨٦٠ م الموافق سنة ١٢٧٧ م وذلك من اجل فتح طريق للقوافل خلال اراضى الرزيقات من بحر الغزال الى شكا ، وكان فتح هذا الطريق من الاهمية بمكان بالنسبة للزبير باعتباره التاجر الأول فى بحر الغزال ، وخاصة بعد اغلاق طريق النيل الأبيض امام التجارة غير المشروعة (الرقيق) بعد المحاولات التى قام بها جوردون خلال فترة ادارته للسودان فى الاقاليم الاستوائية . ومع ذلك فعندما نشبت الحرب بين الزبير والسلطان تكمه فى سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م(٩) نقض مشايخ عرب الرزيقات عهدهم مع الزبير فسلبوا ونهبوا واغتصبوا حراس الطرق حتى مدينة شكا . وبعد انتهاء هذه الحرب فى

سنة ۱۸۷۳ م الموافق سنة ۱۲۹۰ هـ حاول الزبير اعادة فتح الطريق الى شكا ، ولكن محاولاته باءت بالفشل ، حينئذ استغاث الزبير بسلطان دارفور(۱۰) — الذي كان قد بسط نفوذه حديثا فى بلاد الرزيقات فى سنة ۱۸۷۳ م الموافقة سنة ۱۲۹۰ هـ — من تصرفات عرب الرزيقات وطلب مساعدته . ولكن استغاثته التى عبر عنها فى صورة رسائل للسلطان لم تلق اى صدى لديه .
قام الزبير فى الاشهر التى تلت ذلك بمهاجمة بلاد الرزيقات ، وسقطت مدينة شكا فى يده وانهزم عرب الرزيقات ، وفى ساعات الحرب استدار الزبير للسلطان ابراهيم يطلب مساعدته ولكنه لم ينجده بأى شيء وتبع ذلك قصة فرار الشيخين منزل وعليان ورفض السلطان تسليمهما للزبير(۱۱) . وقد استاء السلطان من فقد مدينة شكا أهم مركز تجارى ، واعتبر كل اقليم الرزيقات جزءا من الاراضى التى تحت سيطرته ولذلك طلب السلطان من الزبير سرعة اخلاء شكا .

وفى نوفمبر سنة ۱۸۷۳ م الموافق رمضان سنة ۱۲۹۰ هـ كان واضحا ان السلطان يريد الحرب وان الزبير قرر أن يستميل لتأييده حكومة الخديو ، وظهر ان السلطان ابراهيم كان لديه ما يكفيه من السلاح والبارود ، وان الزبير على علم بأن دارفور تستطيع أن تحشد جيشا ضخما فى ميدان القتال ، وقرر الزبير فى نفس الوقت أن يكون تدخل سلطة حكومة السودان مؤكدا فى حالة ما اذا نشبت الحرب بينه وبين السلطان لأنه بذلك سوف يضمن الا تسدد الحكومة له طعنة من الخلف ، كما أن فرصة انتصاره على السلطان سوف تكون اكثر تأكيدا . كل هذه المعاني كانت تدور فى ذهن الزبير منذ ارادت الحكومة اضافة دارفور الى ممتلكاتها فى السودان . وفى نفس الوقت كانت القاهرة والخرطوم حريصتين على الا تدع الزبير ينفرد بثمار انتصارات جديدة فى

دارفور . لذلك حاول الزبير أن يضمن التوصية الحسنة والتأييد من جانب حاكم عام السـودان . وفي نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ أرسل الزبير خطابا الى اسماعيل باشا أيوب يحمل أخبار انتصاره على عرب الرزيقات واحتلاله لمدينة شكا . وقد تقدم بالنيابة عمن اشتركوا معه في فتح هذه البلاد هدية للحكومة الخديوية ، وطلب ارسال مدير يتولى بالنيابة عن الحكومة المصرية حكم هذه الاجزاء ، أملا في أن يتوجه هو لتجارته ويستعيد مكانته كتاجر وفي نفس الوقت أبلغ السلطان ابراهيم بأن قواته لن تخلي مدينة شكا حتى يعلن السلطان خضوعه لحكومة الخديو في القاهرة . ولكن السلطان اسـتغاث بحكومة القاهرة ، وحاول ان يمنع بشتى الطرق اي تحالف بين جيش الزبير وقوات الحكومة . منها انه ارسل الكثير من الهدايا النفيسة الى القاهرة واخذ يتوسل لدى الخديو ليعمل على وقف هذه الحرب التي بدأت أو أوشكت دون أدنى سبب يذكر من وجهة نظره ، ومع ذلك ذهبت هذه التوسلات هباء دون اي اعتبار لما قدمه . وكانت حكومة القاهرة قد سال لعابها وطمعت في غزو دارفور . وحان الوقت لأن يكون هذا الغزو في يدها ، ولكن اذا سـمح الزبير — الذي ذاعت شهرته — لنفسه أن يخوض غمار هذه الحرب بمفرده ، فان هذا يعني عدم استجابته للاهتمامات المصرية التي كانت تهدف الى الاشتراك في هذه الحرب . وكان يبدو أن هنالك ترحيبا بخطة الزبير التي تهدف الى اشـراك الحكومة في هذه الحرب ، وان اسماعيل باشا أيوب قد نصـح الحكومة بقبول العروض التي قدمها الزبير . وانه أوصى باسناد ادارة كل من شكا وبحر الغزال اليه في مقابل جزية سنوية يدفعها للحكومة .

وفي نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ رقى الزبير الى رتبة البيك ، واسند اليه حكم اقليم شكا وبحر الغزال ، وقد تحددت الجزية بما يوازي ١٥,٠٠٠ جنيه سـنويا يدفعها

للحكومة . وعندما اقتربت الأمور من نهايتها تمكن الزبير من أن يعتمد على تأييد حكومة الخديو فى القاهرة مصمما على الاستيلاء على دارفور(١٢) .

ويمكننا ايجاز أوجه الخلاف بين الزبير والسلطان ، التى كانت سببا فى اندلاع الحرب بين الاثنين فى النقاط التالية :

أولا : رفض السلطان مد يد المساعدة للزبير أثناء حربه مع عرب الرزيقات وتعاون السلطان معهم ضد الزبير ، وكذلك رفضه تسليم مشايخهم للزبير .

ثانيا : شعور السلطان ابراهيم بأن احتلال الزبير لبلاد شكا التى اعتبرها جزءا من بلاده فيه مساس لسيادته على أراضيه .

ثالثا : رفض الاستجابة للنداءات التى وجهها له الزبير بالكف عن التعاون مع عرب الرزيقات ، فكان هذا بمثابة تحقير من السلطان لهذه النداءات التى بعث له بها الزبير فى صورة خطابات .

وقد قيل أن الزبير اراد بهذه الحيلة فى المراسلات أن يضع سلطان دارفور امام الأمر الواقع ، وأن يثقل عليه بالمطالب فلا يستطيع له تلبية أو تنفيذا . حينئذ يجد الزبير سببا فى قتال عرب الرزيقات وغزو دارفور(١٣) .

ولم يكن صحيحا ان يضع الزبير السلطان فى دائرة مغلقة لا يستطيع الخروج منها او أنه تعمد ذلك ، بل كان القصد الرئيسى من وراء رسائله للسلطان وخاصة الأولى منها هو توجيه النصح والارشاد له والتذرع بالصبر والاناة فى فهم حقيقة الموقف حتى لا يقع فريسة للفتن التى كان يبثها له زعماء عرب الرزيقات ، ويدخل فى حرب لا يعلم نتائجها مع الزبير نفسه والحكومة الخديوية . ولكن عندما لم يستجب السلطان لهذه النصائح

والارشادات والتوجيهات بدأ أسلوب هذه المراسلات يأخذ أسلوبا آخر وشكلا آخر من جانب الزبير .

٢ ــ الاســــباب الاقتصــــادية :

يضاف الى الدوافع السياسية والعسكرية التى تولد عنها النزاع بين الزبير والسلطان والتى ادت الى قيام الحرب بينهما ، دوافع اقتصادية شاركت فى نشأة هذا النزاع ، ذلك أن الفوراويين كانوا يعتمدون على حوض بحر الغزال كمجال حيوى لهم لاصطياد الرقيق وجمع العاج . ووجدوا أن فى سيطرة الزبير على هذا الجزء الذى يعتبرونه من مناطق نفوذهم حرمانا لهم من مصــــادر تجارتهم الرئيسية . فكان لا مناص من وقوع الحرب بينهم وبين الزبير بسبب ذلك . وقد أوجدت سيطرة الزبير على هذه المناطق (بحر الغزال وشكا) مجالا حيويا خارجا عن سلطان الحكومة فى الجانب الغربى للســــودان . ولم تلبث أن فتحت أبوابها لهجرة المغامرين من تجار الاقاليم التى تسيطرُ عليها ادارة الســـودان . حيث اشتدت موجة التنكيل بالأهالى على يد الموظفين من المصريين والأجانب وعملائهم تنفيذا لمعاهدة منع تجارة الرقيق تنفيذا صارما دون مراعاة لمصلحة الاهالى الذين كانوا يعتمدون اعتمادا كليا بحكم العادات الموروثة على خدمة الرقيق . وقد وجد التجار المهاجرون فى المناطق التى سيطر عليها الزبير متنفسا لكربتهم ولو ترك الامر للزبير ليعمل وفق طريقته الخاصة ، ولم تضع الحكومة فى وجهه العراقيل ولم تغدر حكومة جوردون بابنه لاستطاع الزبير منع هذه التجارة المقوتة فى فترة قصيرة فى الوقت الذى يعمل فيه على تغيير الاتجاهات المحلية والتوسع الاقتصادى على المستوى الذى ينتقل فيه الرقيق الى مركز ييسر له الحرية فى العمل كما يشاء وبالأجر الذى يرتضــــيه لنفسه مادام المال متوافرا لمواجهة ذلك التطور(١٤) .

قيام الحرب بين الزبير والسلطان ومشاركة الحكومة فيها :

في أواخر سنة ١٨٧٣ م الموافق سنة ١٢٩٠ هـ تصدت القوات المصرية في السودان لقافلة من الرقيق كانت قادمة من دارفور مغضب لهذا السلطان ابراهيم ووجد الفرصة سانحة أمامه للانتقام من الزبير ، فهاجم بقواته أطراف البلاد الواقعة تحت حكم الزبير واستطاع أن يدمر ما كان فيها من مخازن للتجارة والغلال . كان هذا ما ينتظره الزبير منذ أمد طويل لذا فقد سارع باستئذان اسماعيل باشا أيوب في بدء الهجوم على سلطنة دارفور فلم يتردد في الأذن له بذلك(١٥) .

وكان هذا يغار من مجد الزبير ويسألته (اسماعيل باشا أيوب) فأراد أن يشترك معه في الفتح ، وعندما طلب الزبير منه المدد بعث اليه ما لم يزد على ٣٨٠ جنديا وثلاثة مدافع(١٦) . وقد ذكر عبد الرحمن زكي أن الحكومة المصرية أمدت الزبير بخمسة آلاف بندقية ومائة الف خرطوشة(١٧) . وهو ما لم تؤكده بقية المصادر . ولكن الحكمدار خشى أن يترك للزبير بمفرده فخر الاستيلاء على هذه البلاد وحده ، فوجهت الحكومة حملة أخرى تحت قيادة الحكمدار مؤلفة من ٢٫٢٠٠ مقاتل من الجنود السودانية والمصرية والتركية والمغاربة والمتطوعين ، وأربعة مدافع جبلية وبعض الأسلحة الأخرى . ووكل اليها أمر الزحف الى دارفور من الشرق بينما وكل للزبير أمر الزحف على دارفور من الجنوب على أن تلتقي الحملتان في الفاشر عاصمة الاقليم(١٨) .

استعد السلطان ابراهيم للحرب ضد الزبير وسمح لرجاله باصطياد الرقيق من بحر الغزال الذي كان ضمن الممتلكات المصرية(١٩) . وفي أوائل سنة ١٢٩٠ هـ الموافق سنة ١٨٧٣ م

توغل كل من الزبير والنور بيك عنقرة الى ان بلغا حدود دارفور . فى هذا الوقت كان عرب الرزيقات قد تصدوا بالاعتداء على قافلة تجارية تمر بالطريق ما بين دارفور وبحر الغزال فقتلوا رجالها ونساءها ونهبوا متاعها ، فطلب الزبير من السلطان تعويضا عما لحق بهذه القافلة من اضرار فرفض طلبه هذا(٢٠) .

وفى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة ١٨٧٤ م ارسل السلطان وزيريه احمد شطه وسعد النور ومعهما جملة مقاديم من امرائه على راس قوة مكونة من ١٠ آلاف رجل وقرابة ثلاثة مدافع لمحاربة الزبير ، والاستيلاء على شكا واسترداد بلاد عرب الرزيقات . وقد اعتدى هؤلاء على عســـــاكر الحكومة ونشبت بينهم معركة لمدة ساعة ونصف حتى قتل فيها احمد شطه وجملة من أمرائهم ومقاديم جيوشهم وعدد كبير من عساكرهم وفر الباقون ، وقد قتل من عساكر الحكومة وعساكر الزبير ما لا يزيد على المائتى نفر ، واخيرا انتصر الزبير عليهم واستولى على ثلاثة مدافع وبعض الأسلحة . اما البيرق والدرع والخوذة والســـــيف الخاصة بالوزير المقتول . فقد ارسلها مع افادة بتفاصيل ما حدث للحكمدار وطلب منه ارسال امدادية من العساكر والذخيرة وقد قام الحكمدار بارسال الامدادات التى طلبها الزبير ، ولكنها لم تصله الا بعد انتهاء المعركة بيومين(٢١) . وقد دار قتال عنيف بين الطرفين فى معركتين متواليتين كان النصر فى الثانية من نصيب الزبير وكان مصير جيش دارفور الهزيمة الكاملة بعد ان سقط قائدا الجيش فى هذه المعركة(٢٢) .

ويذكر سعد الدين على لسان الزبير نفسه فيقول : « فجرت بينى وبينهما واقعتان كانت العاقبة لى فى كلتيهما ، وفى الثانية قتل احمد شطه وسعد النور وأبيد جيشهما . عندئذ فتح أمامى الطريق

الى دارا فتقدمت اليها واحتللتها وعنيت بتحصينها تحصينا قويا منيعا »(٢٣) .

وبعد هذه الواقعة قام الزبير بارسال اسراه من الفوراويين الى الخرطوم ، وطلب سرعة ارسال الامدادات اليه . وقد اعتبر الفوراويين أسرى حرب ومعتدين وذلك منذ اصبحت شكا وبحر الغزال من الاقاليم التابعة للحكم المصرى (٢٤) .

وصدر فى هذا الخصوص ارادة سنية الى حكمدار السودان بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة ١٨٧٤ م تشير الى انه نتيجة الاعتداء الذى قام به الفوراويون فان جهات دارفور وجميع ملحقاتها صارت تعلق الحكومة الخديوية لذلك وجب اتخاذ الاجراءات اللازمة للاستيلاء عليها . واعدت فرقتان لهذا الغرض لدخولها من جهتى كردفان وبحر الغزال ، وتشكيل مديريات فى الجهات التى يتم الاستيلاء عليها أولا بأول وتعيين المديرين اللازمين لها مع تبليغ شكر الجناب العالى للزبير والانعام عليه بالرتبة الثانية(٢٥) .

وكتب الزبير بعد انتصاره فى هذه المعركة خطابا الى السلطان ابراهيم بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٧٤ م يذكره فيه بما يأتى :

١ — ما قام به عرب الرزيقات من الأعمال العدوانية ضده وضد الحكومة الخديوية وموقفه السلبى من كل هذا .

٢ — ما قام به الزبير نفسه من جهود فى سبيل فتح بلاد الرزيقات واحتلالها منعا لتعديات هؤلاء العربان على التجارة والتجار .

٣ ـــ ما ارسله اليه من رسائل واهماله الرد عليها وخاصة التى طلب فيها الزبير النجدة والمساعدة ضد الرزيقات .

٤ ـــ ما كان من حسن العلاقة والجوار بين آبائه سلاطين دارفور والدولة المصرية وضرورة استمرار هذه العلاقة الطيبة .

وفى نهاية خطابه لم ينس الزبير ان يدعوه للتسليم وان يروى له تفاصيل المعركة التى دارت بين جيشه واكابر قواده فى ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ يناير سنة ١٨٧٤ م زيادة فى التشفى فيه واظهارا لقوته(٢٦) .

وفى الوقت نفسه ارسل الزبير خطابا آخر لعلماء دارفور بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٧٤ م حرصا منه على ان يبادر هؤلاء العلماء باقناع السلطان بالعدول عما يدور فى نفسه من ضرورة استمرار الحرب بينه وبين الزبير والجنوح الى السلم حقنا لدماء المسلمين ، ومنعا لضياع أموالهم . وقد رأى الزبير ان تاثير هؤلاء العلماء قد يكون أكثر وقعا فى نفس السلطان منه هو شخصيا على اساس أن هؤلاء يمثلون الدين ورأيهم فى ذلك هو رأى الدين . وقد شرح لهم الزبير فى خطابه الهدف الذى جاء به الى بلاد الرزيقات ، واعاد عليهم ما كتبه الى السلطان حبا منه فى رفع الحرب ، وحقنا لدماء المسلمين. ثم ختمه بقوله : « فالأمل من حضراتكم يا علماء الاسلام ان تفيدونا عما دعا سلطانكم الى محاربتنا وهلاك عساكر المسلمين منا ومنه . فان كان له وجه شرعى فى ذلك ونحن المخالفين للشريعة فنحن نشكره على ما أجراه ونطلب منه المغفرة وان كان هو المخالف فكفى بالله شهيدا بيننا وبينه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم »(٢٧) .

ويبدو ان الحكومة الخديوية كانت تخشى تدخل موظفى الدول الاجنبية فى هذا الموضوع نتيجة الاجراءات التى تتخذها للاستيلاء

على دارفور ، لذلك فراها ترسل الى حكمدار السودان تلغرافين بتاريخ ٢٣ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير ١٨٧٤ م تعلمه بما يجب التصريح به لموظفى الدول الاجنبية والسياح الأجانب عن تدخل الحكومة الخديوية فى دارفور بأن سبب ذلك هو حرص الحكومة على منع تجارة الرقيق فى هذا الاقليم ولو بالحرب ورد عدوان هؤلاء الفوراويين على حدود الممتلكات المصرية فى السودان(٢٨) .

الاتصالات بين القاهرة والخرطوم :

بلغ مدير كردفان بعد ذلك ان السلطان اعتراه قلق عظيم من حركات الزبير واستمر فى جمع الجيوش الكثيرة لمقاومته ، وانه عازم على تولى قيادتها ضد الزبير بك كما انه قام بسد الطريق ما بينه وبين كردفان ، ونتيجة لذلك أصبح احتمال وقوع الحرب بين السلطان والزبير امرا لا مفر منه ، فابلغ مدير كردفان حكمدار السودان بهذه الأخبار ، ورأى الأخير ان يبعث بنجدات للزبير على سبيل الاحتياط . وعندما بدأت الوقائع بين عساكر الزبير وعساكر السلطان ابلغ الحكمدار الحكومة الخديوية فى القاهرة بذلك(٢٩) .

ففى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة ١٨٧٤ م بعث برسالتين الى المعية السنية شرح فيهما الحالة شرحا وافيا بناء على ما أبلغه به مدير كردفان ، وأوضح الحكمدار فى برقيته ايضا انه أمر بتجهيز ثلاثة بلوكات من العساكر . ومائة عسكرى خيالة باشبوزق ومدفع لارسالهم الى الزبير . كما انه كتب الى مدير كردفان ليبعث للزبير بمائة خيال ومدفع ، وبوصول هذه الامدادية للزبير بك يصير جملة الموجود بطرفه من القوات

اورطة بيادة مستكملة، واربعمائة خيال ، واربعة مدافع ، هذا بخلاف الموجود من جماعته وعساكره وعساكر التجار الموجودين معه . كما أنه اشار بأنه أمر الزبير بأن يكتفى بالمحافظة على مديريته بحر الغزال فقط(٣٠) .

وفى الخامس والعشرين من نفس الشهر وردت للحكمدارية برقية توضح ضرورة نجدة الزبير بك باللازم من العساكر والمدافع والذخيرة والتنبيه عليه بالدخول فى حدود دارفور وسوق العساكر فى المحلات التى يوجد بها مياه ، وعمل اللازم نحو فتح الطريق ما بين بحر الغزال وكردفان اذا كان مسدودا(٣١) .

وفى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٧ فبراير سنة ١٨٧٤ م بعث الحكمدار للمعية بتلغرافين يطلب فيهما الامدادات اللازمة لنجدة الزبير ولاعداد الحملة المزمع ارسالها لفتح دارفور ، وما يلزم لهذه الحملة من عساكر وأسلحة وذخائر ومهمات ومؤن واموال ووسائل نقل من خيول وجمال ، كما شرح صعوبة الطرق وقلة المياه بها(٣٢) . وفى تلغراف يحمل نفس التاريخ طلب الحكمدار من القاهرة الموافقة على قيامه بنفسه الى كردفان للاشراف على اعداد الحملة المزمع ارسالها لغزو دارفور من جهة الشرق ، وتعيين محمد سعيد وكيلا عنه بالحكمدارية اثناء غيابه(٣٣) .

ابرق ايضا الحكمدار يقترح ارسال الامدادات التى طلبها للزبير بطريقى سواكن وكورسكو ابى حمد وذلك لصعوبة توفير وسائل النقل اللازمة من مركز واحد(٣٤) . كما اخبر الحكمدار خيرى باشا بأن الطريق ما بين الخرطوم وكردفان مفتوح أما طريق كردفان دارفور فهو مغلق(٣٥) . وفى الثامن والعشرين من ذى

الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ م وردت للحكمدار برقية تحمل اوامر له بعدم مبارحته الخرطوم انتظارا لما سوف يصدر له من أوامر وتعليمات بعد ذلك(٣٦) . وفى ٢٩ ذى الحجة رد الحكمدار بالموافقة على ما جاء بهذه البرقية من تعليمات وجدد طلبه من القاهرة بخصوص تعيينه على قيادة الجيش المتوجه لفتح دارفور لتشهيل وتسهيل كافة المصاعب التى قد تعترض امداد هذا الجيش(٣٧) .

وفى السادس من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٣ فبراير سنة ١٨٧٤ م اجابت القاهرة على الحكمدار فى برقيـــة مجملة بخصوص مطالبه من العساكر والاسلحة والمؤن والاموال من أجل الامداد لغزو دارفور ، الا انها رات ان يؤجل غزو دارفور من جهة كردفان فى الوقت الحالى . وكانت الخطة التى وضـــــعت للاستيلاء على سلطنة دارفور تقوم على أساس مهاجمتها من جهتى كردفان وبحر الغزال ولكن رؤى الاكتفاء بالهجوم عليها من جهة بحر الغزال بصفة مؤقتة(٣٨) .

وقد اجاب الحكمدار على هذه البرقية فى الثامن من نفس الشهر بما يفيد استيعابه للتعليمات التى ارسلت اليه ، كما أوضح مدى المصاريف الباهظة التى ستتكلفها اقامة العساكر المرسلة الى بحر الغزال ، وهو امر ليس فى مستطاع ميزانية هذه المديرية الوفاء به ، ولا حتى الزبير بك لذلك اقترح على الحكومة ان يرسل العساكر للزبير بالتدريج وكلما طلب ذلك مع احالة مصاريفهم على الحكمدارية ، وقد أوضح انه عرض على الزبير بك تعليمات الحكومة ليبدى رأيه فيها(٣٩) .

وقد وافقت الحكومة على مقترحات الحكمدار بوقف ارسال العساكر الباشبوزق من مصر على أن يرسل له أورطة عسكرية

نظامية جهادية من السودان الشرقي في الوقت الحاضر ، وقد طلبت الحكومة في ردها على برقية الحكمدار ضرورة الاسراع في ارسال الشبان الذين وعد الزبير بارسالهم الى مصر ، وذلك لتدريبهم على الحركات العسكرية والعمل على تشكيل أورط عسكرية نظامية منهم واعادتهم للسودان(٤٠) .

وفي الحادي عشر من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٨ فبراير سنة ١٨٧٤ م ارسلت ارادة سنية الى الزبير بترقيته الى الرتبة التالية نظرا لما أبداه من همة كبيرة في هزيمة العساكر الدارفورية ومقتل وزيرهم ، وأسر جنودهم ، وجهود الزبير أيضا في منع تجارة الرقيق ، وضبط الأحوال بمديرية بحر الغزال(٤١) .

بعد ان اتفقت آراء القاهرة والخرطوم مع راى الزبير في وجوب غزو دارفور ، بدأ كلا الطرفين في التعاون من اجل انجاز تلك المهمة . وكانت البداية في صورة النجدات التي بعث بها الحكمدار للزبير عندما حدث أول تصادم مع جيوش دارفور . بعدها جرت اتصالات موسعة بين المسئولين في القاهرة والخرطوم من جهة والزبير من جهة اخرى لاستكمال هذا التعاون الذي وضحت صورته في نصوص البرقيات التي عرضنا لها سابقا ، والتي انتهت الى ضرورة العمل الجدي لاتمام هذه المهمة على وجه السرعة . وقد عكس هذا التعاون الأهداف الحقيقية للحكومة الخديوية من حيث رغبتها في ضم هذه السلطنة لممتلكاتها في افريقيا قبل ان يظفر الزبير بهذه الغنيمة وحده دونها . وقد استمر سيل البرقيات التي تحمل انباء الاستعدادات بين القاهرة والخرطوم لمدة كبيرة .

ففي ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٨ يونيه سنة ١٨٧٤ م ابرقت القاهرة الى حمكدار السودان تستعجل فيها

ارســال الشـبان الذين كان الزبير قد وعد بارسـالهم الى مصر بما يكفى تشكيل اورطتين او اربع لتدريبهم واعانتهم للسودان(٤٢) .

وفى ٢٧ ربيع أول سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٤ يونيه سنة ١٨٧٤ م وردت برقية للمعية تفيد بأن الزبير قد ارسل الى الحكمدارية ما صار اغتنامـه من محاربته السـابقة مع درافور من اسلحة ومدافع وخلافه مع الاشـياء المتعلقة باحد الوزراء(٤٣) .

وقد تطلبت كل هذه الاسـتعدادات التي كانت تجرى من جانب كل من الحكومة الخديوية فى مصر ومثلها فى الخرطوم مصاريف باهظة .كما ان الزبير لم يكن لديه من الاموال ما يستطيع الاسـتمرار فى المصرف على جيشـه الخاص ، ودفع مرتبات العساكر والضباط المرسلين اليه فى صورة نجدات من الحكمدارية . لذلك أرسـل الى الحكمدار يطالبه بدفع مبلغ ثلاثة آلاف كيسـة نقدية قيل انه اى الزبير قد دفعها للضباط لصرفها فى استحقاقات العساكر جماعة البلالى والعساكر الذين كانوا معه قبل حدوث الواقعة ، فلم يلبث الحكمدار ان ابلغ القاهرة بتفاصيل هذا الموضوع فى برقية بعث بها فى ٤ من ربيع الثانى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢١ يونية سنة ١٨٧٤ م(٤٤) .

وفى الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٢٩١هـ الموافق ٢٤يوليو سنة ١٨٧٤ م صدر امر كريم الى الحكمدار يحمل الموافقة على صرف المبلغ المذكور للزبير(٤٥) . ولا يخفى ان السبب الذى اضـطر الحكومة الخديوية للموافقة على طلب الزبير هو خوفها من ان يتراجع عن عزمه فى غزو دارفور ، حينئذ سوف تجد الحكومة نفسـها وقدالقى عليها عبء فتح دارفور وحدها وهو أمر لم يكن لتوافق عليها . كما انها كانت تهدف الى ما هو ابعد من ذلك وهو

الاستفادة قدر الامكان واحد أقصى من حماســـــة وجهود الزبير وجيشه في اتمام هذا الفتح .

وبينما كانت الامور تسير على هذا النحو ، كان الزبير ماضيا في اتخاذ الاستعدادات العســـكرية فقد أجرى تشـــكيل ثلاثة اوردي(٤٦) باشسبوزق وعين عليها كل من طه اغا محمد الملك الشايقي ، وملي محمد آغا تولنق اغاسي ، ويوسف اغا ارناؤط وذلك بمرتب شهري الفي قرش ومرتب بربر الفين وخمســـمائة قرش . وفي الســـابع عشر من ربيع الثاني صدر أمر كريم الى حكمدارية الســـودان بالموافقة على ما أجراه الزبير من تعيينات للأشـــخاص المذكورين(٤٧) . وقد تطلب تشكيل هذه الأورديات الثلاثة الكثير من النفقات المتمثلة في الأموال والمهمـــات وخلافه لهذا ارسل الزبير رسولا بالنيابة عنه الى الخرطوم بطلب صرف جانب من هذه المهمات وطلب الأموال اللازمة لدفع مرتبات الجنود لكي يستطيع أن يستمر في استعداداته العسكرية التي بدأها . فرفع الحكمدار طلب الزبير هذا للمعية لأخذ الموافقة عليه وصرف مبلغ الالف كيسة التي طلبها الزبير(٤٨) .

وفي غرة جمادى الاولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٦ يونية سنة ١٨٧٤ م اتخذ الزبير لنفسه مركزا لتجميع العساكر لجهة تسمى الكلكلة(٤٩) . في حين كان الدارفوريون في الجانب الآخر متهيئين للقتال في اية لحظة(٥٠) .

وفي ٣ جمادى الاولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ يونيه سنة ١٨٧٤ م أبرق الحكمدار الى خيرى باشا بما يفيد بأنه قد كتب للزبير بضرورة قيامه بتنظيم المديرية وربط الأموال على أهاليها وتقوية مركزه ، والمحافظة على حدود مديريته بحر الغزال حتى

يتم ارسال العساكر والاسلحة اللازمة للدخول فى دارفور كما هو ملازم على ذلك(٥١) . وقد جاء رد الحكومة على برقية الحكمدار فى ٥ جمادى الاولى الموافق ٢٠ يونيو من نفس السنة بما يفيد صعوبة ارسال العساكر والاسلحة المطلوبة على وجه السرعة فى الوقت الحالى لاعتبارات بعد المسافة بين مصر والسودان واشارت على الحكمدار بأن يحاول نجدة الزبير بتدبير اورطة من الخرطوم لحين ارسال بدل منها من مصر حتى لا يتوقف سير الامور(٥٢) .

وفى برقية تحمل تاريخ ٦ من جمادى الأولى الموافق ٢١ يونية ابلغ الحكمدار خيرى باشا عدم اتصال خط التلغراف مع سنجر ملك ورفضه ارسال اورطة من طرفه ، وعزمه أى الحكمدار على السفر الى كردفان لجمع ما يمكن جمعه من العساكر الشايقية والجهادية لنجدة الزبير وتذليل الصعاب التى تقف حائلا دون ذلك(٥٣) . وفى السابع من نفس الشهر الموافق ٢٢ يونيه أبرقت الحكومة للحكمدار بارادة سنية تعلمه بموافقتها على ما عرضه من ضرورة قيامه الى كردفان لجمع العساكر وتوكيل نائبه عنه بالخرطوم فى مدة غيابه . وتم تعريفه أيضا بأن الحكومة قد ارسلت له أربعة بلوكات من العساكر الجهادية من سواكن وذلك خلاف ما أتفق عليه مسبقا(٥٤) . وأما من جهة الزبير فانه حدثت بينه وبين الدارفوريين معركة بتاريخ ٤ من جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٩ يونيه سنة ١٨٧٤ م هاجمه فيها السلطان ابونا والى جهات دارفور الصعيدية(٥٥) . على رأس جيش قوامه اثنا عشر الف رجل ، فتصدى لهم الزبير على رأس قوة قوامها الف وستمائة نفر ، فهزمهم وقتل قائدهم السلطان ابونا واسر ابنه ، وابلغ الحكمدار فيما بعد بذلك ، الذى ابرق للقاهرة فى العاشر من نفس الشهر يبلغها بما حدث(٥٦) .

وفى الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ يوليو سنة ١٨٧٤ م أبرق الحكمدار للقاهرة وهو فى كردفان يبلغها بأن الزبير لما وجد السلطان قد استصحب جميع عساكره توجه أيضا هو بجميع عساكره ، وأنه صيانة لشرف الحكومة ارسل ما استطاع جمعه من العساكر والاسلحة لنجدة الزبير ، وينوى التوجه على رأس قوة أخرى بنفسه ليدعم موقف الزبير ويأمل أن يكون فتح دارفور ميسرا(٥٧) . وأجابت المعية فى الخامس من رجب سنة ١٢٩١ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٤ م بالموافقة على ما اتخذه الحكمدار من تدابير واجراءات ازاء ما بيته سلطان دارفور من نية العدوان ، وتبلغه أمل الحكومة فى أن يعجل بأمر الحاق هذه المنطقة بالحكمدارية(٥٨) .

وفى غرة رجب من نفس العام الموافق ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م أبلغ الحكمدار المعية بأنه قد قام فعلا من كردفان على رأس الحملة التى أعدها ، والتى تكونت من اورطة جهادية مسلحة ببنادق حديثة ، واوردى باشبوزق مكون من اربعمائة نفر خيالة وهجانة ، وثلاثة مدافع وذلك خلاف ما سوف يلحق به من عساكر الشايقية ، وغيرهم بطريق كردفان أم شنقة ومنها الى الفاشر ، وأن الزبير قد أبلغه بأنه قد ترك مركزه فى الكلكلة الى محل يقال له النمر على مسيرة يوم واحد من بلدة داره(٥٩) .

وفى الحادى عشر من رجب من نفس السنة ابرقت القاهرة للحكمدار لتبليغ شكرها للزبير وللعساكر ولرؤسائهم على ما بذلوه من جهد فى حفظ شرف الحكومة ، وانزال الهزيمة بالعساكر الدارفورية بعد مقتل قائدهم السلطان ابوننا(٦٠) .

وارسل خيرى باشا برقية الى سعادة ناظر الحقانية والى سعادة ناظر الخارجية تحمل تاريخ ١٢ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق

٢٥ اغسطس سنة ١٨٧٤ م ابلغهم فيها بما حدث من جانب سلطان دارفور من تعد على قوات الحكومة الخديوية ، وتصدى تلك القوات لهم وانزال الهزيمة بهم . كذلك اشـــــارت البرقية لهدف حكومة القاهرة من غزو دارفور وهو القضـــــاء على تجارة الرقيق فيها لانها اى دارفور تمثل مركزا خطيرا لانتشار هذه التجارة . وقد تم احاطة ناظرى الحقانية والخارجية بهذه المعلومات الرسمية لكى يستطيعا الادلاء باية استفسارات او تصريحات حول موقف حكومة الخديو من غزوه دارفور اذا ما طلبت ذلك اى جهة اجنبية(٦١) .

شكوى سلطان دارفور للخديو من حركات الزبير والحكمدار :

قبل ان تتطور الامور الى اخطر من هذا ، راى السلطان ان يعرض ما بينه وبين الزبير من نزاع على الخديو فى القاهرة لعله يجد مخرجا او حلا عنده لذلك . فبعث له برسالة فى الرابع من رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ اغسطس سنة ١٨٧٤ م يشرح له فيها تعديات الزبير على حدود مملكته كما ادعى ذلك فى خطابه، وتاييد الحكمدار لهذه التعديات ويذكر الخديو بالعلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين سلطنة دارفور ومصر ايام ابيه ، ويطلب منه التدخل للحد من هذه التعديات بصفته الشخصية ،' او التدخل للوساطة بينه وبين الزبير(٦٢) .

وبالطبع فان الخديو لم يعط لهذه الرســـــالة اية اهميــة ، لان جميع تحركات الزبير والحكمدار كانت بتوجيه من الخـــديو شخصيا ، كما ان سلطان دارفور كان هو البادىء بالعدوان وليس الزبير .

ولم يكن امام السلطان ابراهيم بعد ان فشل مسعاه لدى الخديو اسماعيل لانقاذه سوى ان يجد لنفسه مخرجا آخر من

يتوجهوا منها الى الحجاز ومن هناك الى الآستانة بقصد التخلص من محاربة الحكومة الخديوية . وبناء على ما ذكر من معلومات تم عرض الموضوع على جناب الخديو المنظر ، واصدار الامر لمراقبة الاشخاص المذكورين او القبض عليهم عند حضورهم لمدينة اسيوط مع مراعاة مراقبة موانيء الاسكندرية والسويس حتى لا يستطيعوا الهروب من البلاد(٦٤) .

وفي الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ستة من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م أجابت القاهرة بارادة سنية على برقية الحكمدار بانه قد تم القبض على الرسل التابعين لسلطان دارفور بجهة واحات اسيوط ، وضبط جميع ما معهم من مكاتبات وغيرها وانه وجد من بينهم شخص مخصوص يحمل مكاتبة للخديو . وقد نوهت البرقية للحكمدار الى ضرورة الاسراع بالاستعداد للاستيلاء على الفاشر سواء بضم قواته مع قوة الزبير ، والدخول في معركة مع الامير قبل الدخول الى الفاشر ، والقاء القبض عليه وارسال اقاربه الى كردفان ، والعمل على ادخال البلاد المجاورة لدارفور تحت طاعة الحكومة ، والاقامة بالفاشر بعد الاستيلاء عليها مع المقدار الكافي من العساكر على أن يرسل الباقي منهم الى الزبير ، وابلاغه بقدوم حسن بك على رأس قوة للاقامة في ام شنقة للمحافظة عليها وأن يجعل الطريق مفتوحة بينه وبين الفاشر وكردفان ، وتبليغ سلام الجناب العالي الى الزبير وكافة الضباط والعساكر(٦٥) .

وفي السادس عشر من شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م ارسلت القاهرة للمرة الثانية برقية لمفتش عموم قبلي تعيد عليه ما سبق ذكره من ضرورة حفظ الصرر وبقية الاشياء التي وجدت مع رسل السلطان وارسالها مع مندوب

واعلامهم بتى قتل السـلطان ، ودخول بلاده فى حيز الحكومة المصرية وتخييرهم بين الرجوع الى بلادهم احرارا او المثول بين يدى الجناب العالى الخديو اذ رغبوا فى ذلك وهم احرار أيضا ، وفى الحالة الاولى يحرر مكاتبة بذلك لحكمدار السودان(٦٦) .

وفى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م اجابت القاهرة على برقية الحكمدار المؤرخة فى ٢١ شوال من نفس السنة بانه تم احضار الرسل المذكورين للقاهرة واكرامهم وتأمينهم على انفسهم واموالهم وأولادهم وانهم مقيمون بالمسافر خانة ، وانه قد تنبه عليهم بان النقود المقال عنها انها لسر تجار الفاشر واخوته لهم الحق فى التصرف فيها فى أسباب التجارة أو حفظها بدون أى معارضة(٦٧) .

وعلى فرض نجاح سفارة السلطان فى الوصول الى الاستانة والاتصال بالباب العالى — وهذا لم يحدث — فانها من المؤكد كانت سوف تعود كما ذهبت بدون اية نتيجة . وذلك لأن الفرمان الصادر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م كان قد ذكر سلطنة دارفور ضـمن الاقاليم السودانية التى صارت تبعيتها لمحمد على على مدى الحياة، ولكن سلطنة دارفور ظلت مستقلة حتى تولى الخديو اسماعيل الحكم فى مصر . ولم تكن سلطنة دارفور تدين باية تبعية للسلطان العثمانى الى أن تم غزوها بواسطة جيش الزبير بالاشتراك مع جيش الدولة المصرية ، فانهزمت وخضـعت لحكومة الخديو ، وانطبقت عليها ممارسة حقوق السيادة التى كان مآلها النهائى فى حكومة القسـطنطينية بحكم تبعية الحكومة ذاتها للسـلطنة العثمانية(٦٨) .

وقد ترتب على فشل بعثة السلطان هذه نتائج وعوامل كثيرة جعلت الامل فى عدم قيام حرب بينه من جهة والدولة المصرية

والزبير من جهة اخرى يكاد يكون سرابا . ومن ثم شرع يستعد للموقف ويأخذ حذره حتى يتمكن من صد هذا الغزو المتوقع .

موقعة الشرتاى احمد نمر :

لم يكد جيش الزبير يصل الى دارة(٦٩) . ويتحصن بقلعتها حتى نشط احمد نمر زعيم البرقد(٧٠) ، فجمع شتات جيش الوزير احمد شطه وحاصر الزبير وجيشه فى قلعة دارة ، واخذ يشاغلهم كسبا للوقت حتى تصله الامدادات التى كان يمدها له السلطان ابراهيم بقصد القضاء على الزبير والثار لما نالته قواته من قبل على يديه . ولكن الزبير لم يحرك ساكنا تجاه هذا الحصار بل صبر على احمد نمر هذا حتى علم بمقدم النجدة التى كان ينتظرها ، عندئذ ارسل لهم احد قواده هو رابح بفرقة من الجيش فنشبت بينهما معركة قصيرة ، لم يلبث ان قتل فيها احمد نمر وانهزمت القوة التى معه ، وغنم الزبير فى ذلك الوقت غنائم كثيرة من الخيول والدروع والخوذ والماشية وخلافه(٧١) .

وكان الزبير قد بعث فى ٣ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٦ اغسطس سنة ١٨٧٤ م برسالة الى السلطان ابراهيم يدعوه فيها مرة اخرى للتسليم وملخص ما جاء فيها :

اولا : ذكره بما كان من تعديات عرب الرزيقات عليه وعلى المسلمين من التجار بدون وجه حق وموقفه المؤيد لهم ؛

ثانيا : اخبره باستيلائه على دارة واصراره بل تمسكه على عدم الانسحاب منها مهما كانت الظروف والنتائج .

ثالثا : نصحه بالتنازل عن ملكه والاذعان لاوامر الحكومة الخديوية فى مقابل اعطائه الامان فى اموالة واهله حتى يمكن تلافى وقوع الحرب بينه وبين الدولة المصرية .

رابعا : ذكره بضرورة الكف عن القيام بالتحرشات العسكرية ضده والجنوح الى السلم(٧٢) .

كان هذا الخطاب هو الاخير الذى وجهه الزبير الى السلطان، وبعده لم يجب السلطان على هذا الخطاب ، ومن ثم بدأت الامور تسير الى اسوأ فى غير صالح السلطان .

موقعة الأمير حسب الله :

استشاط السلطان ابراهيم غضبا من مكاتبات الزبير له وطلبه منه التسليم او الحرب . فلم ير السلطان مفرا من أن يجهز له جيشا آخر يستطيع ازال الهزيمة الساحقة به . ومن ثم أسرع باعداد جيش يفوق عدده على المائة الف مقاتل من بينهم عدد كبير من الفرسان المدرعين والمشاة المسلحين بالبنادق . عقد السلطان لواء هذا الجيش لعمه الامير حسب الله . سار هذا الجيش العرمرم قاصدا داره فدخلها فى ٢٥ اغسطس سنة ١٨٧٤ م ، وشرع فى احكام الحصار حولها من جهاتها الاربع ، ثم انفذ الأمير حسب الله رسلا الى الزبير مع رسالة يقول له فيها : « لقد دخلت بلادنا وقتلت وزيرنا احمد شطه ومن بعده احمد نمر فاخرج الآن من بلادنا ، ونتعهد لك بأن نشيعك بالسلامة والأمان .. » وقد أجاب الزبير اعضاء الوفد بأن يبلغوا الامير حسب الله بانه اى الزبير قد دخل بلادهم بقصد اخضاعها لحكومة جناب الخديو ولا ينوى الخروج منها الا بقدر من الله ، فان كانوا قد جاءوا للحرب فليتقدموا لها والا فعليهم أن يعودوا من حيث أتوا(٧٣) .

وكان الزبير قد بعث من قبل برسالة الى الأمير حسب الله بتاريخ ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٧ يونيه سنة ١٨٧٤ م بملخص ما جاء فيها :

أولا : عرض على الأمير حسب الله تولى سلطنة دارفور بدلا من السلطان ابراهيم لما بلغه عنه من الخلق الحسن والدراية الكاملة والرأفة والشفقة على أحوال المسلمين .

ثانيا : شرح له تفصيلات معاركه السابقة مع كل من أحمد شطه وأحمد نمر وكيف أنه هزمهم وكفنهم بأعز الأقمشة ودفنهم مع بقية الوزراء والمقاديم والملوك بما يليق بمكانتهم(٧٤) .

وقد كان الصمت التام هو الاجابة على رسالة الزبير فلم يجب الأمير حسب الله عليها تماما كما فعل السلطان ابراهيم من قبل فى الرسائل التى تلقاها من الزبير .

المعـــــركة الأولى :

بدأت هذه المعركة بعد عودة رسل الأمير حسب الله الى معسكرهم وابلاغه باجابة الزبير على رسالته . ولقد تصادف أن وقعت ابصار الرسل الذين حملوا الرسالة الى الزبير على بعض جنود الفيام نيام الذين يضمهم جيش الزبير ، وقد اجتمعوا على جثة آدمي يقتسمونها فيما بينهم فيأخذ بعضهم الراس والقدمين والبعض الآخر اليدين والصدر ، ثم يشرعون فى شى هذه الأجزاء على النار وعند عودة الرسل المذكورين الى معسكرهم لم ينسوا أن يرووا لاخوانهم ما شاهدوه من وحشية جنود الزبير وقسوتهم ، ولعل هذا قد ملأهم بالرعب وخوفهم من قتال الزبير . غير أنه على أية حال لم يكن هناك مفر من الحرب وحدوث تصادم بين القوتين ، فلم تلبث قوات الاعداء أن أقاموا معسكرهم على مسافة غير بعيدة من مرامى بنادق واسلحة جيش الزبير . ثم بدأوا فى مناوشاتهم وكان مع الزبير زهاء ١٢,٠٠٠ مقاتل مسلحين بالبنادق الرامنتون الألمانية ، فأخذت قوات الزبير تصلى الاعداء نيرانا حامية

كل يوم من قبل الشروق الى ما بعد منتصف الليل ، وصبر جنود دارفور على هذه النيران لمدة سبعة ايام طوال . استطاع الزبير خلال تلك المدة أن يهلك منهم عددا كبيرا الا ان هذا الحصار استمر مع ذلك واستمرت معه المناوشات ، ومضت الأيام طويلة على هذا الحال حتى أوشكت ذخيرة الزبير على النفاد وفرغت مؤنه ، ومضى على رجاله يومان بلا طعام(٧٥) .

المعـــركة الثانيـــــة :

بينما كان الزبير يفكر في الخلاص من هذا الحصار بالهجوم على جيش الأمير حسب الله وفد عليه واحد من قادة جيش دارفور اسمه الملك أحمد ليفتدي ابنته التي كان الزبير قد أسرها في موقعة احمد شطه عارضا عليه في مقابل ذلك ١٠ أوقيات من الذهب وكان الزبير قد وضع أسراه في قبة جامع داره ، ومن فوق هذه المئذنة كان يستطلع ما يدور في معسكر الأمير حسب الله ، فاذا به يرى حركة وجلبة غير عادية ، فاسرع بالهبوط ودعا الملك أحمد وعرض عليه أن يذهب فياتيه بأنباء ما يحدث في معســـكرهم في مقابل أن يسلم له ابنته دون مقابل من الذهب ، وأقسم له على القرآن بذلك فقبل ان يذهب ويأتيه بحقيقـــــة الأنباء ، فلما بلغ معسكرهم أخبر قومه بأن الزبير يطلب منه ٢٠ أوقية من الذهب فداء لابنته ، ولما لم يكن معه سوى ١٠ أوقيات فقط ، فقد عاد ليأخذ العشر الباقية وعندئذ اعطوه ماله واستحثوه على المبادرة باحضار ابنته سريعا لأنهم ينوون الهجوم على الأسوار من جميع الجهات في اليوم التالي ، فعاد الملك أحمد ومعه الذهب والأخبار. وكان هذا في مساء يوم الخميس ٣١ من اغسطس سنة ١٨٧٤ م وهو اليوم الذي بدأت فيه هذه المعركة . كان الفوراويون في تلك الليلة قد شربوا الخمر واكلوا كثيرا وناموا مبكرين اســــــتعدادا

للهجوم فى اليوم التالى . انتهز الزبير هذه الفرصـــة الثمينة وعول على مفاجأتهم وهم نيام ، فخرج اليهم فى ثمانية آلاف رجل على هيئة مربع ، وســـار فى جنح الليل حتى لم يعد يفصــــله عن معســــكرهم ســــوى الف متر تقريبا ، عندئذ أمر رجاله باطلاق نيران اسلحتهم على الأعداء ، فصـــبوا عليهم وابلا من الرصـــــاص المنهمر ، عندئذ هب هؤلاء من نومهم مذعورين وقد اخذتهم المفاجأة وبداوا فى أطلاق رصــــاصهم على جنود الزبير ولكن بعد فوات الأوان ، فقد كان معســــكرهم قد تحول الى ما يشـــبه جمرة من النار . وفى اثناء هذه المعركة أصابت الزبير طلقة طائشـــة فى يده اليمنى فجرح جرحا بليغا ، ولكنه لم يعبأ به بل مضى بين رجاله يصــــدر لهم الأوامر ويشـــــد من عزائمهم . فلما أصبح الصباح كان معسكر الاعداء قد تمزق شر ممزق . وكان رجال جيش الأمير قد ولوا الأدبار مخلفين وراءهم الأرض وقد غطتها جثث قتلاهم ومن بينهم اربعون رجلا من ابناء السلطان ، فشرع الزبير بعد ذلك فى جمع الغنائم هو ورجاله فكان من بينها نحو الف درع و ٢٧٠٠ خيمة وثمانية مدافع قديمة نقش على بعضـــــها اسم ســــعيد باشا الى جانب الكثير من الاســـلحة والذخائر الحربية والمؤن التى تكفى المدينة لمدة اربعة شـــهور . عندما فرغ الزبير من الاســـتيلاء على كل هذا عاد بجيشه الى المدينة وتحصن بقلعتها من جديد وهكذا أنتهت المعركة الثانية بهزيمة منكرة لجيش الامير حسب الله الذى عاود الهجوم للمرة الثالثة على أسوار قلعة داره من جديد(٧٦) .

المعــــركة الثــــالثة :

وقد بدأت هذه المعركة فى الثامن من سبتمبر سنة ١٨٧٤ م عندما تمكن الامير حسب الله من جمع شتات جيشـــه المنهزم ومعاودة الهجوم على أســـوار المدينة من جديد ، ودار قتال

عنيف بين جيشــــه وجيش الزبير أستمر لمدة أربع ســـاعات متوالية حتى كثر القتلى فى جيشـــه وحاقت به الهزيمة الكاملة . وقد قام الزبير على رأس جيشـــه بتتبع ومطـــاردة الفارين لمسافة طويلة عاد بعدها للتحصـــن بالقلعة من جديد استعدادا لأى هجوم آخر من جهة دارفور(٧٧) .

وطبقا لما ورد بالوثائق فقد بلغت خسائر جيش الأمير حسب الله فى هذه المعارك الثلاث حوالى ستة آلاف رجل وذلك بخلاف الجرحى . بينما بلغت خسائر جيش الزبير من عساكره وعساكر الحكومة حوالى أربعمائة رجل . وقد أبلغ الزبير تفصـــيلات ما حدث فى هذه الموقعة بمعاركها الثلاث الى اسماعيل باشا أيوب الذى كان وقتذاك على رأس حملة الشـــرق التى كانت قد وصلت فى تقدمها لام شنقة فى رســـالتين وصـــلت احداهما للحكمدار فى الثامن عشـــر من شـــعبان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م . وقد قام الحكمدار بابلاغ القـــاهرة بتفصـــيلات ما حدث فى هذه الموقعة فى برقية بعث بها فى ٧ رمضان ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ اكتوبر سنة ١٨٧٤ م ، وكان قبل ذلك قد أبلغ القـــاهرة بأن الزبير محاصـــر بقلعته فى دارا بواســـطة جيش الامير حســـب الله الذى حضـــر اليه بداره بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ اغسطس سنة ١٨٧٤م وغير متيسر الاتصـــال به(٧٨) .

ونظرة على هذه الموقعة ترينا انها واحدة من الوقـــائع الرئيسية التى شـــملتها عملية فتح دارفور التى كانت لها اثرها البالغ فى كســـر شوكة جيوش سلطان دارفور والتعجيل باتمام عملية الفتح .

عوامل انتصار جيش الزبير وهزيمة جيش الأمير حسب الله :

من خلال الأسطر التي تناولت تفاصيل المعارك الثلاث التي دارت رحاها بين الجيشين نستطيع أن نستشف عوامل انتصار جيش الزبير وعوامل هزيمة جيش الأمير حسب الله وتتلخص في الآتي :

أولا : برغم ضخامة جيش الأمير حسب الله في العدد الذي وصل حسب ما ورد في المراجع الي مائة ألف مقاتل أو ما يزيد، واحتوائه علي عدد كبير من الفرسان المدرعين والمشاة المسلحين بالبنادق ، وقلة عدد جيش الزبير الذي بلغ اثنى عشر ألف مقاتل بالنسبة لجيش الأمير . فان الأمير حسب الله لم يستغل تلك الميزة التي توافرت في جيشه في العدد والتسليح في وضع خطة محكمة ترمي الي فرض حصار محكم حول قلعة داره التي كان يعيش الزبير ويتحصن بها ، ويرسل له من يناوئه ويستنفد ذخيرته ورجاله ومؤنه ، فيضطره عندئذ للخروج اليه من قلعته . ومن ثم يمكنه الحاق الهزيمة به في سهولة ويسر ، ولكن الأمير لم يفعل ذلك بل ان حصاره حول القلعة لم يطل أمده بعدها تحرك لاقامة معسكر لجيشه في مكان ليس ببعيد من أسوار القلعة ولا مرامي أسلحة جيش الزبير وهذا يدل علي عدم الملم الأمير حسب الله بأبسط القواعد العسكرية اذ أنه كان هدفا سهلا أمام رجال الزبير هو وجيشه .

ثانيا : كان لاقامة جيش الأمير لمعسكره في مكان ليس ببعيد عن مرامي أسلحة رجال الزبير فرصة مكنت رجال الزبير من أن يمطروهم بين الحين والحين بوابل من رصاص بنادقهم ، هذا الي جانب الدوريات المسلحة التي كانت تخرج ليلا من القلعة للتصيد

من تجده من رجال الأمير حسب الله لتقتله او لتحمله اسيرا ، كل هذا ادى الى قتل عدد ليس بالقليل من رجال جيش الأمير وبالتالى ساهم فى خفض الروح المعنوية القتالية لرجاله .

ثالثا : كان لعامل المفاجأة اثره الكبير فى هزيمة جيش الأمير فى المعركة الثانية اذ كان للهجوم الذى شنه عليهم رجال الزبير بغتة ليلا وهم نيام ومصرع الكثير منهم أثره فى تشتيت جيشه ؛ وقد ساعد على نجاح الزبير فى هذا الهجوم ما قام به رجـــال جيش الأمير قبل ليلة الهجوم من تناول الكثير من الوان الطعام واحتساء العديد من انواع الخمور التى لعبت برؤوسهم فباتوا ليلتهم لا يعون شيئا .

رابعا : كان لعامل الخيانة فى المعركة الثانية الفضل الأول فى الهزيمة التى منى بها جيش دارفور فى هذه الموقعة . اذ لم يكن الملك احمد الذى حضر لمعسكر الزبير ليفتدى ابنته الا واحدا من ضــــعاف النفوس الخائنين لوطنهم ، فقد فعل ما أملاه عليه الزبير حرصـــــا على حياة ابنته . مفضلا خيانة وطنه وجيشـه فى سبيل هدف شخصى . ومن المرجح ان جيش الامير حســـب الله كان يضم الكثير من أمثال هذا الرجل . ومن ناحية اخرى كانت لفتة تنم عن بعد النظر من جانب الزبير الذى استطاع فى الوقت المناسب أن يستغل هذه الثغرة فى سبيل الحصول على ما يريد من معلومات عن جيش الأمير حسب الله انقاذا لنفسه ومن معه من الهزيمة .

خامسا : كان للهزيمة التى لحقت بجيش الأمير عقب المعركة الثانية وتشتت جيشه ، وتركه لمعظم ما كان لديه من الامدادات من اسلحة وذخائر ومؤن وخلافه وقيام الزبير بالاســتيلاء عليها أثره الفعال فى استعادة جيش الزبير لقوته بعدما قاربت مؤنه وذخيرته على النفاد .

سادسا : اذا نظرنا الى نوعية الفئات التى كان يتكون منها جيش الامير لوجدنا انهم لم يخرجوا عن كونهم مجموعة مختلفة تنتمي الى قبائل متعددة لا تربطها اية رابطة ولا هدف سوى الحرب من اجل كسب الغنائم والاموال . لذلك وجدنا منهم الخائن وكان الملك احمد خير مثل على ذلك . يضاف الى ذلك ان الروح القتالية المطلوبة فى جيش ضخم كهذا لم تكن متوافرة بالقدر الذى توافرت به فى جيش الزبير . اذ كان لحسن قيادة الزبير لهم وتوجيهه لهم التوجيه السليم ، وسخائه عليهم ، وتشجيعه لهم من العوامل التى ساعدت الزبير على الصمود بجيشه هذا امام سلسلة الجيوش التى بعث بها سلطان دارفور الواحد تلو الآخر رغم قلة مؤنه وذخيرته .

سابعا : كان للعقلية العسكرية الواعية التى توافرت لدى الزبير الأثر الحسن في تقويمه وتقديره للموقف واستغلال الامكانيات المتاحة له على قلتها فى احراز نصر باهر على جيش الامير فقد ضمن هو ورجاله حماية طبيعية داخل اسوار قلعة داره ضد هجمات جيوش دارفور المتتابعة كما ان قلعة داره كانت تشرف بحكم تصميمها على ارض المعركة ، فكان من السهل استطلاع ما يدور داخل معسكر الاعداء بسهولة من داخلها كما حدث فى معركته الثانية مع الامير حسب الله واستطاع ان يرى من فوق مئذنة جامع داره الهرج والجلبة التى كانت تسود معسكرهم .

ثامنا : كان للصلابة وقوة الشكيمة وعامل الصبر وغير ذلك من الصفات التى اظهرها رجال الزبير امام هجمات جيش الامير الاثر الواضح فى احرازهم النصر تلو الآخر . يضاف الى ذلك ما اشيع عنهم من انهم من اكلة لحوم البشر ، فقد ساعد ذلك على بث الرعب والخوف فى قلوب رجال الامير حتى قبل مواجهتهم فى ميدان الحرب .

قيــــام السلطان ابراهيم بنفسه الى دارا :

وقع نبأ هزيمة جيش الأمير حسب الله ــ على يد الزبير ــ وقوع الصاعقة على السلطان ابراهيم جســــدت له الزبير فى مخيلته على انه الشـــخصية الاســـطورية التى لا تقهر ، فرأى فى هذه المرة أن يقوم بنفسه للوقوف على مدى قوة هذا الرجل ، وتأديبه بعد أن لقيت جيوشـــــه المتتابعة الهزيمة المرة تلو الأخرى على يده ، ومن ثم أخذ يســــتنفر قومه للحرب ويحضـــــهم على الذود عن حياض وطنهم وبلادهم حتى اســـــتطاع أن يجمع فى وقت قصـــــير جيشــــا جرارا بلغ تعداده نحو المائة والخمسين الفا من بينهم ثلاثون الف فارس ، كما اصـــطحب معه ثمانية مدافع . وقد عزم على الخروج بنفســـه لقتال الزبير « الطاغية الجلابى » كما نعته من قبل . ولكن لم يصـــبح هناك مجال للســــخرية من الزبير ، فهو اليوم ســـيف الخديو المســـلول الذى شـــهره ليقوض به دعائم هذه الســـلطنة التى أخذت جوانبهـــا تتهاوى كأوراق الشـــجر فى مطلع الخريف . وكان جيش الســـلطان لكثافته يثير حوله اذ ما تحرك ســـــحابة كثيفة من الغبار تمنع الرجل من أن يرى رفيقه وهو على مبعدة خمس خطوات منه ، ولم ينس السلطان أن يخلف على الفاشر قبل رحيله ابنه الاكبر محمد الفضل . ثم سار الســـلطان ابراهيم قاصـــدا داره فبلغها فى ضـــحى الســـادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م . فحاصرها من جميع الجهات ومضى يســـتعد لمهاجمة قلعتها فى اليوم التالى . وفى الصـــباح بدأ الهجوم فالقى الســـلطان بقواته كلها فى المعركة قاصـــدا اقتحام المدينة فى هجمة واحدة. ولكن رجال الزبير ردوه على أعقابه بعد أن أمطروا قواته بوابل من الرصـــاص المنهمر . واستمرت هذه المعركة الى ما بعد الغروب بســـاعة . وفى اليوم التالى عاود الســـلطان الهجوم

على الاســـوار مرة اخرى قبل طلوع الشـــمس ، ولكن هذا الهجوم أصـــابه الفشـــل كســـابقه بعد عدة ســـاعات من بدايته . كل هذا لم يوهن شيئا من عزيمة السلطان ، فعاود هجومه للمرة الثالثة بعد صلاة الظهر في عزم واســتبسال هذه المرة ، وكانت قواته قد استراحت قليلا ، واســـتردت بعض نشاطها فثبتت لرصـــاص أســـلحة رجال الزبير وهو يحصــــدها حصـــــدا ، وغطت جثث القتلى وجه الأرض الى أن أتى الليل فوضــــع حدا لهذه المجزرة الدامية ، وبدأ الســـلطان وقواته يرتدون مخلفين تحت اســـوار المدينة عددا كبيرا من قتلاهم ، وكان من بينهم بعض أبناء السلطان وأخوته وأعمامه .

وفى مساء نفس اليوم أرسل السلطان ابراهيم كتابا للزبير مملوءا بالشتم والســـباب والتهديد والوعيد له ، وختمه بقسم غليظ بأنه ســـوف يعاود الهجوم على القلعة فى الصباح ، وسوف يقتحم تحصيناته عنوة ، ويؤدى صلاة الجمعة فى مسجد داره . وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى بدأ فى تنفيذ قسمه بان اطلق على أسوار قلعة داره أكثر من خمسة وأربعين قذيفة من مدافعه فلم يجبه عليها رجال الزبير ، بل شرع الزبير ورجاله فى الاستعداد لهجوم الغد الذى كان يتهددهم من جانب السلطان .

وعندما بدأ الفجر يرسل خيوطه الأولى أخذ الزبير يتطلع نحو معســـكر الســـلطان فأدهشه أن يراه خاليا تماما من جيوش الســـلطان . وشـــك أن فى الأمر خدعة فخرج فى نفر من رجاله ليســـتطلع الأمر ، فوجد أن الســـلطان وجيشه قد انسحب فى جنح الظلام ، وأن الخمســـة والأربعين قذيفة التى تلقاها منذ ساعات لم تكن أكثر من وسيلة لستر وتغطية عملية الانســـحاب حتى لا يفطن اليه فيخرج لمطاردته وتشتيت جيشه . وقد علم الزبير فيما بعد أن ســـبب انسحاب السلطان هو أن

رجاله بعدما نزل بهم من خسائر فادحة قد ابوا ان يعودوا لمهاجمة الاسوار مرة أخرى ، فهجروا السلطان . عندئذ لم يجد السلطان بدا من ان يتبعهم ليجمع شملهم وليسير بهم لجبل مرة(٧٩) . للاحتماء به . وجمع الزبير ما خلفه السلطان فى معسكره وشرع فى الاستعداد للحاق بجيش السلطان ومهاجمته حيث يكون(٨٠) .

فى هذه الاثناء وصل الى علم السلطان نبأ سقوط أم شنقة التى تقع على مسيرة ستة أيام من عاصمته الفاشر فى يد اسماعيل باشا أيوب ، فأصبح السلطان بذلك محاصرا فجأة فقرر هو الآخر بعد ان جمع قواته فى جبل مرة أن يتقهقر بسرعة نحو الفاشر . على ان هذا التقهقر الذى قام به السلطان جعل الطريق أمام الزبير مفتوحا لأن يتقدم بجيشه بسرعة نحو عاصمة دارفور(٨١) .

فى هذا الوقت ادرك السلطان ابراهيم بعد الهزيمة التى نزلت به وبجيشه على يد الزبير فى المحاولات الثلاث التى قام بها لاقتحام قلعة داره المنيعة ، وانسحابه دون ان يظفر بأية نتيجة تغير من الموقف شيئا ، ان الآمال التى عقدها عند خروجه بهذا الجيش لكسر شوكة الزبير وطرده من سلطنة دارفور قد باتت أشبه بالسراب ، وقد حل بجيشه نتيجة هذه الهزائم المتوالية اليأس والخوف محل الحماسة والقوة التى خرج بهما للقاء عدوه الزبير . ولكن رغم ذلك ظل تعلق السلطان ابراهيم بالنصر على عدوه الذى لا يعرف المستحيل متجسدا أمامه حتى النهاية .

دور حملة الشرق بقيادة الحكمدار :

تحرك اسماعيل باشا أيوب الى دارفور على رأس الحملة التى وكل اليه أمر قيادتها لغزو هذه السلطنة من جهة الشرق ،

والتى تكونت من أورطة جهادية مســـــــلحة بالبنادق ، وأوردى باشبوزق مكون من اربعمائة نفر خيالة وهجانة ، وثلاثة مدافع ، ومائتين من العســاكر الباشوزق الشــايقية . قام من الابيض بهذا الجيش رأسا الى دارفور عبر صحراء العتمور حيث مر فى طريقه على منطقة المياه القليلة حيث تخزن المياه فى فروع اشـــجار التبلدى المحفورة الوســـــط . ولو كان الســلطان ابراهيم قد تنبه لقدوم هذا الجيش ، وارسل من اخلى تلك الاشـــجار مما بها من المياه لاضــطرت الحملة الى الرجوع أو ادى ذلك الى موت الكثيرين منهم عطشـا(٨٢) .

وقد رافق حملة الشـــــرق التى قادها اسماعيل باشا أيوب بعض من الضباط الأمريكيين لاغراض تتعلق بمصـــــالح الحملة وسلامتها(٨٣) . ولا يعرف على وجه التحديد كم عددهم أو أسماؤهم والراجح انهم من الاجانب الذين وفدوا لأغراض الســـــياحة أو التجارة فى تلك الأصقاع البعيدة ثم تعينوا مع الحملة لانجاز بعض المهام الخاصـــــة .

ولم يأت الرابع والعشرون من رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ستة سبتمبر سنة ١٨٧٤ م حتى أبرق الحكمدار للحكومة الخديوية فى القاهرة بانه قد وصـــــل فى تقدمه الى محل يقال له دارفور العمار بعد صحراء العتمور ما بين كردفان ودارفور ، وانه ليس بينه وبين الوصــــــول لأم شنقة(٨٤) سوى يومين فقط ، بينما المسافة بينه وبين عاصمة السلطان ستة أيام مشى الهجانة ، وأن الزبير قد وصل الى دارا وتحكم فيها وأن الجيش الذى أرسله السلطان حوله بمسافة يوم واحد ، كما أنه أشـــــار الى طلبه للحكمدارية بارسال أورطة ونصف بيادة من أجل عدم اخلاء المحلات التى تم الاستيلاء عليها من العساكر خوفا من محاولة استعادتها والسيطرة عليها من جانب العدو(٨٥) .

الاســـــتيلاء على أم شـــــنقة :

وصل الى علم السلطان ابراهيم نبأ وصول حملة الشـــرق بقيادة الحكمدار لحدود دارفور ، فارسل من فوره اثنين من قادته الذين كانوا يحاربون ضد الزبير على رأس جيش قوامه ما بين الخمسة والستة آلاف رجل مع الشيخ أحمد المليح شيخ عربان حمر(٨٦) للتصـــــدي لهذه الحملة ، وقبل أن يلتقى هذا الجيش بالحملة صادفهم جماعة قليلة العدد من العساكر الخديوية التابعة للحملة ، والذين كان قد أرسلهم الحكمدار لجلب بعض الغـــلال اللازمة لتميينات العســـــاكر من العربان الذين دخلوا تحت طاعة الحكومة الخديوية ، فاشتبكوا معهم فى معركة دامت أربع ساعات سقط خلالها حسب ما ورد فى الوثائق ثمانية وعشرون قتيلا من جيش الفور عدا المجروحين والمفقودين .

وعندما بلغت أنباء هذا الاشتباك اسماعيل باشا أيوب الذى كان فى هذا الوقت قد وصل الى فوجة ، ويحاول الوصول الى ام شنقة اسرع بمن معه من العساكر واستطاع اللحاق بهذا الجيش الفوراوي والاشتباك معه بالمدافع فلم يستطع هذا الجيش الثبات أمام رجال الحكمدار ، ومن ثم ولى رجاله جميعا الأدبار ، فأخذ الحكمدار يطاردهم حتى استطاع انزال الهزيمة بهم وان يدخل ام شنقة . وقد أمن الحكمدار جميع الأهـــــالى فى هذه البلدة على حياتهم بعد أن دخل معظمهم طوعا تحت طاعة الحكومة . وقد اخبر كل من الحكمدار ووكيل الحكمدارية بالخرطوم هذه الأنباء الى القاهرة فى ٢٢ و ٢٦ شعبان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٤ و ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م(٨٧) .

وفى السابع من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ اكتوبر سنة ١٨٧٤ م أحاط الحكمدار القـــاهرة علما وهو بأم شنقة بأن

الزبير وجيشه قد عادوا الى القلعة سالمين بعد انتصارهم على جيش الامير حسب الله . وان جواسيس الحكمدار قد نقلوا اليه انباء قيام السلطان ابراهيم بنفسه الى دارا على رأس جيش كبير بعد ان اعيته الهزائم التى حلت بجيوشه التى أرسلها تباعا ضد الزبير . اشار الحكمدار ايضا فى برقيته أن فى أمكانه دخول العاصمة الفاشر بسهولة وذلك نظرا لقلة العساكر التى تركها السلطان بها ، ولكنه عاد فقرر بعد أن تراسل مع الزبير رحمة بانه قد قام منذ يومين على راس قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل من الجهادية والباشبوزق وخمسة مدافع وهو ما امكنه جمعه أثناء اقامته بام شنقة وذلك للانضمام الى قوة الزبير البالغ عددها سبعة آلاف رجل وخمسة مدافع ، والتى هى على مسافة ستة ايام بمشى العساكر للقضاء على قوة دارفور الاخيرة التى تحت قيادة السلطان ابراهيم والدخول مما بعد ذلك الى الفاشر عاصمة دارفور وقد طمأن القاهرة على سلامة وسائل الاتصال بينه وبين كل من كردفان والزبير(٨٨) .

ابلغ الحكمدار القاهرة فى برقية تحمل تاريخ الثامن من رمضان الموافق ٢١ اكتوبر سنة ١٨٧٤م بانه نظرا لأهمية مركز ام شنقة ومخافة عصيان الأهالى المحيطين بالمركز وقيامهم بالثورة ولضرورة استحضار الغلال اللازمة للشونة التى رتبها بها من الأهالى . فقد ترك بهذا المركز سرسوار شايقية بأربعمائة نفر ومدفع واحد للغرض السالف الذكر(٨٩) .

كما ابلغ القاهرة فى برقية لاحقة بانه قد بلغ بلدة تسمى القونين وان اهالى تلك البلدة كانوا يحضرون افواجا للدخول فى طاعة الحكومة وذلك نظرا لما شاهدوه من قوة عساكر واسلحة الحكومة الخديوية . كما اشار الى ان جيش الزبير ، الذى يبعد عنه بمسافة ثلاثة أيام فقط ، فى حالة طيبة . برغم ان قوات

السلطان ما تزال على مسافة يوم واحد منه ، ونوه بعزمه على التوجه للزبير والاجتماع معه لدخول العاصمة الفاشر(٩٠) .

اتهام اسماعيل باشا ايوب بتعمد الابطاء فى التقدم نحو الفاشر :

اتهم اسماعيل باشا أيوب بتعمد الابطاء فى سيره نحو الفاشر لتجنب القتال ضد جيوش دارفور ، وانه عندما وصل الى فوجه كتب الى الزبير وهو اذ ذاك فى دارا بصدد هجمات الأمير حسب الله والسلطان ابراهيم ، يخبره أنه فى طريقه اليه بالنجدات طالبا منه أن يتشدد ويقاوم حتى يصل . حينئذ بعث اليه الزبير يسأله عن سر هذا الابطاء فى التقدم والعدو يحدق به بجيوش لا حصر لها ، وانه مادام يحمل له النجدة فعليه بالاسراع فى السير حتى لا يصل بعد فوات الاوان فرد عليه اسماعيل باشا أيوب قائلا : « اننى لم آمرك بالتقدم الى دارا ولم يكن هذا من بين ما كلفتك به حكومة الخديو السنية ، فاذا استطعت أن ترفع الحصار وأن تنجو بجيشك الى هنا فافعل والا فدبر أمرك بما تراه صوابا » . وقد بقى اسماعيل باشا أيوب فى فوجة على ما ذكر الزبير(٩١) .

وبمناقشة ما اتهم به الحكمدار يتضح لنا ما يأتى :

أولا : بالنسبة لاتهام الحكمدار بتعمد الابطاء فى التقدم لنجدة الزبير ، فقد علل بعض الكتاب ذلك بأن اسماعيل باشا أيوب قد حاول فى تقدمه نحو الفاشر أن يكسب الى جانبه صداقة سكان وزعماء هذه الاقاليم بالطرق السلمية ، لذلك فقد قام بتحرير ما لا يقل عن ١٦٠٠ من الرقيق ، كما زود ما لا يقل عن سبعمائة بوثائق تحريرهم من الرق(٩٢) .

ويستدل على صـــــدق ما ذكر من البرقية التي بعث بها اسماعيل باشا أيوب الى المعية بتاريخ ٧ رمضان سنة ١٢٩١ هـ يعلمها بأن جواسيسه قد نقلوا اليه انباء وجود عدد من تجار الرقيق ومعهم اعداد كبيرة من رقيقهم بجهة تسمى كامية ، وأنه لما بلغ هؤلاء التجار قدوم العساكر الخديوية اختفوا بتلك الجهة ، الا انه تمكن من ضبط نحو الفه وستمائة من نساء واطفال ، وأن اغلبهم من اهالى دارفور وبلاد بحر الغزال ، وقد أعترف التجار بأنهم كانوا متوجهين بهم لبيعهم ، وأن سلطان دارفور نفسه له حصة في المكسب الذى ينتج بعد بيعهم . وقد صار اخلاء سبيل القسادر منهم على المشي وتزويده بأوراق تثبت عتقه وتحريره ، وصرف جانب من التعيينات لهم ليستطيعوا أن يتوجهوا الى بلادهم ، وقد قام الحكمدار بتعيين عدد من الاطباء لعلاجهم ، والسهر على راحتهم وكل من شفى منهم يخلى سبيله(٩٣) .

والحق أن الحكمدار لم يتمهل في المسير الى الفاشر ، ورغم اتهامه بانه قد بقي ببلدة فوجه مدة بينما كان الزبير يحارب في دارا ، فان من الخطأ الاعتقاد بأن اسماعيل باشا ايوب لم تكن لديه الرغبة الكافية في فتح سلطنة دارفور .

ثانيا : عندما كان الزبير يحارب في دارا في سبتمبر سنة ١٨٧٤ م لم يكن اسماعيل باشا أيوب في بلدة فوجة كما ذكر ، بل كان يحاول الوصول الى بلدة أم شنقة والتخفيف عن الزبير . وكانت خطته تعتمد على أن ينضم بقواته الى الزبير ، وعندئذ يمكن لكلا الجيشان التقدم نحو الفاشر . وقد كان لاحتلال اسماعيل باشا أيوب لبلدة ام شنقة ، في أواخر معركة الزبير مع السلطان ابراهيم بدارا في اكتوبر سنة ١٨٧٤ م اثره البالغ في تخفيف عبء الهجوم على الزبير في الجنوب رغم كثافته . وكانت قوات الحكمدار

قد سبق لها الدخول في معركة مع جيش فوراوى آخر أرسله السلطان وانتهى امره بالهزيمة .

وفي ذلك للحين سرت الاشاعات بأن الفرقة الأولى بقيادة الزبير قد اندحرت وأن قائدها قد قتل ، وهذا ما جعل اسماعيل باشا أيوب يبقى بأم شنقه ويحصنها ويتريث حتى تصله الأخبار الاكيدة عن مصير الزبير وفرقته . وقد تحقق لدى اسماعيل باشا أيوب كذب هذه الاشـــــاعة حينما اتصل به الزبير مخبرا اياه بمقتل السلطان ابراهيم وتقدمه نحو الفاشر(٩٤) . وقد استطاع الحكمدار بفتحه أم شنقة أن يكتب نصرا مهما ينطوى على شيء من الذكاء والخديعة ، بعدها اصبحت وسائل الاتصال بينه وبين الزبير سهلة ميسورة .

ثالثا : يبدوا أن الحكمدار عندما انقطعت عنه أخبار الزبير اتجه بجيشه الى دارفور لاستجلاء الحالة هناك ، والدليل على ذلك انه عندما أراد الزبير ان يتصل به لاعلامه بدخوله الفاشر على لسان الرسول الذى بعث به اليه ، لقيه هذا الرسول وهو في طريقه الى دارا فلما ابلغه بهذه الأخبـــار انثنى اذ ذاك عنها ووجه الجيش الذى تحت قيادته الى الفاشـــــر فدخلها في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م(٩٥) .

موقعة منواشى : (١٤ رمضـان سنة ١٢٩١ هـ ــ اكتوبر سنة ١٨٧٤ م) :

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م بدأت حملة الزبير لاحتلال دارفور تقترب من نهايتها ، ففي هذا اليوم خرج من قلعة دارا على راس جيش قوامه ســـبعة آلاف رجل ، بعد ان تحطمت على اسوارها أمواج المهاجمين الذين ساقهم السـلطان ابراهيم لطرده منها ، وقد خرج جيش الزبير ليقتفى اثر جيش

السلطان ابراهيم وليكتب فى سجل معاركه معه معركة اخرى .
وفى يوم ١٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٤ م ادركه عند بلدة منواشى(٩٦) ، ومع السلطان من الجنود حوالى ثلاثين الفا ، وفى معسكره ثمانية مدافع ، وقد قسم جنده الى ميمنة وميسرة وقلب ، وأقام هو ومدافعه ومن بقى من أبطال جيشه واقاربه فى موضع القلب من كل هذا ، واستعد للمعركة الفاصلة .

وقد اشرقت شمس يوم الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م لتشهد السلطان ابراهيم وهو يبدأ هجومه على جيش الزبير باطلاق احدى عشرة قذيفة من مدافعه على مواقع جيش الزبير لم يعبأ لها ، ومضى الزبير على رأس جيشه قاصدا موقع القلب من قوات السلطان ، فلم يلبث أن تخلى السلطان عن مدافعه وامر ميمنته وميسرته بالهجوم على جيش الزبير . وبدأت المعركة وحمى وطيس القتال . ولم يكد يمضى وقت قليل على بدء المعركة حتى تخاذلت ميمنة وميسرة قوات السلطان ومضت متقهقرة الى الوراء ، عندئذ هاجم السلطان ومن معه فى القلب من ابطال جيشه وصناديده قوات الزبير ، فتراجعت متدمة قوات الزبير الى الوراء قليلا لتعيد تنظيم صفوفها . ولم تلبث أن عاودت الهجوم على جيش السلطان ، فاشتد القتال مرة اخرى ، واستخدمت السيوف والحراب بجانب البنادق والمدافع . وقد اعترف الزبير نفسه بشجاعة السلطان واستبسال جيشه فى القتال ، فقد شاهد الزبير من مكانه الذى يشرف على أرض المعركة السلطان وهو يجول ويصول وسط المعمعة ، وهو يقاتل فى عزم واستبسال ويعمل جاهدا لكى يغسل عن عزته ما اصابها من ذل وهوان ، حتى خر قتيلا هو ومن معه من الفرسان ومنهم الكثير من أولاده وأشراف دولته فكان هذا ايذانا بانتهاء المعركة التى انجلت من

نصر مبين لجيش الزبير ، لم يتردد الزبير في الاحتفاء بجثته ، فكفنها بالاقمشة الفاخرة ودفنها في جامع منواشي في احتفال عظيم اجلالا لمقامه كسلطان واقرارا بمسلكه كفارس ، ثم دفن بعد ذلك القتلى من أولاد واكابر دولة السلطان ، وعفا عن جميع الاسرى وسمح لهم بالذهاب الى حيث يشاءون ، وقد غنم الزبير في هذه المعركة ثمانية مدافع وسبعة وعشرين جملا محملا بالذخيرة والعتاد الحربي . وقد بقي الزبير وجيشه في منواشي مدة اربعة أيام أخرى انطلق بعدها لدخول العاصمة الفاشر(٩٧) .

وبينما الزبير يترك دارا في الثالث والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٤ م لتعقب السلطان كان الحكمدار يتقدم على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل لكي يلحق بقوات الزبير ، وقد وصلت الاخبار اليه وهو يقترب من دارا بأن الزبير مشتبك في معركة مع جيش الفور الرئيسي عند بلدة منواشي ، وان السلطان قد قتل . حينئذ انطلق الحكمدار بجيشه خلف الزبير للحاق به(٩٧) .

ابرق الحكمدار في ٢٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٣ نوفمبر ١٨٧٤ م الى القاهرة يعلمها بتفاصيل هذه المعركة ومقتل السلطان ، ويبلغها أنه ولمرقته بالقرب من دارا وانه متوجه بقواته الى الفاشر ، ويهنيء الاعتاب الخديوية على هذا النصر العظيم ، وقد ابلغها ايضا بما استولى عليه الزبير من اسلحة وذخائر وخلافه(٩٩) .

كان لهزيمة سلطان دارفور ومقتله اثره في ان يخلو الطريق أمام الزبير لدخول العاصمة الفاشر ، وليبرهن مرة اخرى أمام التاريخ فتحه لدارفور بنفسه قبل أن تصل اليها حملة الشرق التي تأخرت في الوصول اليها . وقد اثبتت هذه المعركة بما لا يدع مجالا للشك مدى فاعلية الدور الذي اسهم به الزبير وجيشه في فتح

دارفور ، وقضائه على جيوشها وقتل سلطانها ، بعد أن تحمل جيشه العبء الأكبر في القتال ضد جيوش السلطان الكثيفة المتوالية ، منذ بدأت الحرب وبدون مساعدة فعالة من جانب الحملة التي يقودها الحكمدار . وكانت المعركة من الناحية التاريخية هي الخاتمة لسلسلة المعارك الدامية التي وقعت بين جيوش السلطان والزبير . كما أنها أعلنت في وضوح نهاية هذه السلطنة بعد مقتل آخر سلاطينها ابراهيم على يد الزبير رحمة .

دخول العاصمة الفاشر(١٠٠) :

في الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق الثالث من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م دخل الزبير على رأس جيشه مدينة الفاشر منتصراً . وهناك وجد أن عائلة السلطان وباقي أهله الذين كان قد خلفهم فيها قبل خروجه منها قد فروا ، فلم يبق في المدينة غير التجار وبعض العلماء ، فأمن الجميع على أموالهم وأحسن معاملتهم فلما بلغ ذلك الأهالي انتشر خبر عدله ووفائه بالعهود ، فأخذ الناس يفدون عليه مقدمين فروض الولاء والطاعة والامتثال ، وما هي الا أيام حتى دان له الجميع بالطاعة والولاء سواء من الأعاجم أو العربان أو الحضر أو البدو . وفي أوائل شهر شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م دخل الحكمدار الفاشر على رأس حملته، فرحب به الزبير وأكرم لقياه وأطلق له مائة قذيفة مدفع تحية وترحيبا بقدومه ، فهنأه الحكمدار بالنصر ولم ينس أن يشكر له ولاءه وحسن خدمته(١٠١) .

ولقد كان سقوط العاصمة الفاشر الخطوة التي قادت سكان المناطق المجاورة لها على التسليم بسلام للفاتحين . حينئذ أطلق الحكمدار حرية الرقيق وأعطاهم وثائق تثبت تحريرهم من الرق .

وكانت الخطوات قد اتخذت لارسال الرقيق المحرر والذين لا يرغبون في البقاء بدارفور ، الى بلادهم . كانت نية الحكومة الجديدة تتجه الى وضع جميع شعب دارفور موضع المساواة مع المصريين . هذه السياسة كان فيها شيء من الحكمة والتعقل مما حدا بالناس وشجعهم على التسليم بسلام الى حكم الفاتحين .

الموازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق في فتح دارفور :

من خلال تفاصيل الاحداث السابقة المتعلقة بغزو دارفور نستطيع أن نقف على حقيقة الدور الذي اسهم به كل من جيش الزبير من ناحية وحملة الشرق بقيادة الحكمدار من ناحية اخرى في النقاط التالية :

اولا : دور جيش الزبير :

(أ) كان له النصيب الاكبر في فتح دارفور ، فقد خاض أكثر من معركة ضد جيوش دارفور المتتابعة وانتصر عليها برغم تفوقها في العدد والعدة .

(ب) كان وراء الانتصارات التي حققها جيش الزبير شخصية الزبير القيادية بما تنطوي عليها من صفات جليلة متمثلة في المهارة الفائقة في التخطيط واردة قوية في التنفيذ وقناة لا تلين في مجابهة الصعاب ، وايمان عميق في النصر ، واخيرا اخلاص للحكومة الخديوية في تأدية المهام الموكولة اليه بأمانة .

ثانيا : حملة الشرق بقيادة الحكمدار :

(أ) لم يكن لجيش الشرق الدور الذي ساهم به جيش الزبير في الفتح ، بل ان دوره لم يخرج عن مهمة المساندة الهامشية لجيش الزبير التي تمثلت في التصدي للجماعات المسلحة الصغيرة

التي ارسلها السلطان لمرقلة تقدم الحملة التي يقودها الحكمدار ، فكان دوره يعتبر جزءا مكملا لعملية الفتح ، ولكن اذا قيس بنظيره في الجنوب لظهر هذا الفارق بوضوح .

(ب) لم يوضع جيش الشرق موضع الاختبار الكافي من حيث القوة فلم يدخل الا في معارك محدودة مع جيش العدو وعذره في ذلك ان دارفور كانت توجه معظم اهتمامها لجبهة الجنوب ، ومن ثم كانت الاختبارات التي تعرض لها جيش الزبير اكثر مما تعرض لها جيش الشرق . وقد كان وراء قيام الحكمدار بتنفيذ المهام التي كلف بها ، بكل اهتمسسام واخلاص في غزو دارفور ، ما تتمتع به هذه السلطنة من ثروة وشهرة عظيمتين كانتا تثيران طموح الخديو . في نفس الوقت كانت تمثل باستقلالها تهديدا لسلطة الخديوية في السودان من حيث أن موقعها الجغرافي يجعلها تسيطر على طرق القوافل المتجهة الى بحر الغزال . كما أن هذا الموقع جعلها مأوى لتجار الرقيق ورقيقهم بعيدا عن أعين الحكومة ، التي كانت تحارب هذه التجارة في ذلك الوقت . ولقد كان لتحمل الزبير العبء الاكبر في هذا الفتح اثره السيء في نفسية الحكمدار الذي كان يرغب في أن ينسب اليه هذا الفتح العظيم ولكنه لم يستطع ذلك(١٠٢) .

غنائم الحرب :

أما عن غنائم الحرب ، فبالاضافة الى ما استولى عليه الزبير عقب انتصاره على السلطان ابراهيم في معركة منواشي ومعاركه السابقة مع الأمير حسب الله وأحمد نمر من أسلحة وذخائر وغير ذلك ، فقد ذكرت الوثائق أن الأمير محمد القنصل ابن السلطان ابراهيم لما بلغه مقتل والده . فر من الفاشر وحمل معه ما أمكنه من الأموال والأشياء الخفيفة الثمينة من الذهب والفضة وغيرها ،

اما المثقلة منها مثل الاقمشة وخلافه ، فقد تركها في محسلاتها ثم يلبثه الاهالي ان استولوا عليها وبعد دخول الزبير العاصمة الفاشر لم يجد شيئا من الغنائم التي كان يأمل الاستيلاء عليها باسم الحكومة ، وبالبحث تبين كما ذكر ان الاهالي قد استولوا على الجزء الاكبر منها ، فصار ضبط كل من لديه شيء من متعلقات السلطان ومصادرتها لحساب الحكومة . وقد أرسل الزبير جميع ما صار اغتنامه من المعارك السابقة وما تم ضبطه من متعلقات السلطان لدى أهالي الفاشر الى الخرطوم التي قامت بارسالة بالتالي الى القاهرة مع برقية تحمل هذا المعنى بتاريخ ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م(١٠٣) .

تمرد الامير حسب الله :

لم تكد تمضي ايام قلائل على دخول الزبير والحكمدار الفاشر ، وهدوء الحالة نسبيا بها ، حتى تفجر هذا الهدوء عن عصيان قام به الامير حسب الله مع عدد من ابناء السلطان الراحل واقاربه الجبل مرة(١٠٤) . وكان الحكمدار قد ابلغ القاهرة في ٢٧ شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٨ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م يبلغها دخوله الفاشر وتامينه لاهاليها ، ودخولها في طاعة الحكومة ، واطلاق حرية الرقيق منهم ، كما ابلغها بانه لما تحقق ان تبقى من عائلة السلطان الذين كانوا ضمن جيشه من حقيقة مصرعه اجتمعوا وولوا عليهم الامير حسب الله سلطانا بجهات غرب دارفور(١٠٥) .

لهذا الغرض جرى اعداد فرقة بقيادة الزبير قوامها اثنا عشر الف مقاتل منهم أربعمائة من العساكر النظامية ومائتان من الفرسان لمطاردة الأمير حسب الله . وانه تعقب المتمردين حتى أجبرهم على الالتجاء لجبل مرة وانه جرى امداده بنجدة اخرى(١٠٦) وقد أرسل الحكمدار رسالة الى الامير حسب الله يعده فيها بالعفو

عنه وعن اتباعه وأن يعيد اليهم ممتلكاتهم اذا ما استسلموا بدون مقاومة(١٠٧) .

فلما رأى الامير حسب الله قوة جيش الزبير وانه لا قدرة له على مقاومته سلم له بلا قتال ، فالقى الزبير القبض عليه ومن معه من أبناء السلطان ابراهيم وغيرهم من أبناء السلاطين السابقين ، ونحو الف ومائتين من الاعيان والكبراء كان من بينهم اخت السلطان ابراهيم الميرم عرفه(١٠٨) . وجاء بهم جميعا الى الفاشر وكان من جملة هؤلاء الاسرى ايضا زوجات السلطان الراحل(١٠٩) ، فوصلها الزبير بعد غيبة عنها دامت تسعة وتسعين يوما(١١٠) . وقد أبرق الحكمدار للقاهرة بما حدث فى ١٧ ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٥ ، يقترح تعيين الزبير مديرا لعموم دارفور وحسن بك حلمى قومندانا على العساكر الجهادية(١١١) .

طلب الامير حسب الله من الزبير بعد استسلامه أن يستعمل نفوذه لدى المسئولين فى القاهرة ليتولى حكم دارفور تحت امرة الحكومة الخديوية فى مقابل أن يدفع مائة الف جنيه سنويا كجزية للدولة ، فلقى هذا الراى من الزبير كل موافقة وترحيب ، ووجد فيه خير سبيل لراحة البلاد والحكومة من هذه المسئولية المكلفة ، فتعهد له ببذل كل عون فى سبيل تحقيق رغبته هذه غير أنه عندما تقدم بهذا الاقتراح الى اسماعيل باشا أيوب مؤيدا اياه رفضه الاخير رفضا باتا وأبى حتى أن يستمع الى حجج الزبير التى حاول أن يسوقها لاقناعه بالموافقة على هذا المشروع ، وقد طال الجدال بين الاثنين حول هذا الاقتراح حتى استحال الى نزاع سافر(١١٢) .

اسباب رفض الحكمدار لاقتراح الزبير بتعيين الامير حسب الله سلطانا على دارفور :

أولا : لم يكن لدى الحكمدار الضمانات الكافية لالزام الامير حسب الله بتنفيذ هذا الاقتراح وخاصة ما يتعلق منه بدفع الجزية وضمان استمرار طاعته للحكومة المصرية .

ثانيا : روح العداء والكراهية التى يكنها زعماء وسلاطين دار فور للزبير والحكومة ، واحتمال عدم استمرارهم فى اخلاصهم وولائهم المقنع تجاه الحكومة وقيامهم بالثورة عليها يوما ما للانتقام لما أصابهم على يدها من أضرار غزو بلادهم يضاف الى ذلك ما قد يترتب على أعمالهم هذه المتوقع قيامهم بها من ضياع للجهود والأموال التى بذلت فى الفتح .

ثالثا : كان من اهداف الفتح القضاء على الطابع الانفصالى لدارفور كسلطنة ، وضمها كجزء متمم للسودان ، وكذلك القضاء على تجارة الرقيق فيها ، فكان معنى الموافقة على هذا الاقتراح هو عودة للأوضاع التى كانت عليها قبل الفتح .

رابعا : انعدام الثقة والتفاهم بين الزبير والحكمدار مما أدى بالتالى الى عدم الاخذ بهذا الاقتراح وفشله قبل أن يتم عرضه على الخديو فى القاهرة .

ولم يلبث الحكمدار فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ يناير سنة ١٨٧٥ م أن قام بارسال الامير حسب الله (٧٠ — ٧٨ عاما) وعائلته وأتباعه البالغ عددهم حسب ما ورد بالوثائق ما بين ٩٦ و ٤٨ من ذكور واناث فى حراسة قوة تحت قيادة حسن بك حلمى الى أم شنقة ، كى يتوجهوا منها الى كردفان ومنها الى الخرطوم فى حراسة الاوردبين الباشبوزق ، فبلغوها فى التاسع والعشرين من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق سبعة

مارس سنة ١٨٧٥ م ، وكان الحكمدار قد بعث في الثالث من محرم سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٨٧٥ م بأولاد السلطان الذين تم القبض عليهم بعد فرارهم وهم محمد الفضل ، وعبد الرحمن جامع وعبد الرحمن شاطوط شقيق السلطان ومعهم عائلاتهم واتباعهم البالغ عددهم ٢٢٣ نفراً في حراسة قوة الى الخرطوم(١١٣) .

وكان الخديو قد قام من قبل بدعوة كل من الأمير حسب الله والأمير محمد الفضل لزيارة القاهرة ، ولما وصلا اليها في مارس سنة ١٩٧٥ م اعد لاستقبالهما قصر خاص(١١٤) الا أن الحكومة بعد ذلك قامت باسكانهم في الحي المعروف بسوق السلاح ، وأجرت لهم المرتبات فعاشوا في راحة وسلام وكان من بينهم الأمير عبد الحميد ابن السلطان ابراهيم وتسعة عشر آخرون من أبناء السلطان(١١٥) .

وعندما وصل الزبير بالأسرى الى القاهرة أمره الحكمدار بالرجوع الى دارا والاقامة بها هو وعساكره الى حين أن يصدر اليه أمراً آخراً بالعودة الى بحر الغزال(١١٦) .

ومنذ تلك اللحظة وضحت السياسة التي كان يريد الحكمدار اتباعها مع الزبير وهي في مضمونها ابعاده شيئاً فشيئاً عن أمور الحكم والسياسة الخاصة بدارفور ووضعه في بوتقة صغيرة ، تمهيداً لاسناد العمل المناسب له أو اقصائه من بلاد السودان كلية .

ثورة الأمير بوش :

لم يمضي على حالة العصيان التي أعلنها الامير حسب الله ومن معه مدة طويلة ، حتى ظهر بجبل مرة ثائر آخر من الأسرة الحاكمة هو الأمير بوش شقيق الأمير حسب الله لذلك أرسل الحكمدار الى

الزبير ، وهو اذ ذاك في دارا ولم يمض عليه بها اكثر من شهر واحد ، كتابا يأمره فيه بالخروج لاخماد ثورة هذا الامير ، واعادة الامن والسلام الى ربوع البلاد ، فامتثل الزبير للأمر الصادر له وخرج بجيشه قاصدا جبل مرة ، فقام بمحاصرته وبعد معارك استمرت لمدة خمسة عشر يوما متصلة ، هرب الامير بوش من جبل مرة ، فقام الزبير بتعقبه حتى ادركه قرب بلدة كبكبية(١١٧) . فدارت بين الاثنين معركة انتهت بمصرع الامير بوش وفرار جيشه ، وفي الثالث من اغسطس سنة ١٨٧٥م بعد أن تم للزبير النصر على الامير بوش . انبسطت امام باصرته أرض جديدة لم يجد مانعا من غزوها وضمها الى ممتلكات الجناب العالي الخديو بالسودان(١١٨) .

الزبير يتوغل بجيشه لجهة الغرب (برقو ــ واداى) :

أعربت القاهرة في برقيتها المؤرخة في ١٥ ذى القعدة سنة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م للحكمدار عن رغبتها في اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة للاستيلاء على برقو نظرا لموقعها الاستراتيجي الذى يمثل مفتاح الغرب السوداني ، وذلك بتقوية الفرقة التي مع الزبير بتلك الجهات . وكان الهدف من ذلك هو العمل على ابعاد الزبير عن مسرح الاحداث السياسية في السودان ، وكذلك التخلص من جنود البحارة الدناقلة الموجودين في بحر الغزال . ولكن القاهرة رغم ما جاء بالبرقية من تعليمات خاصة بفتح برقو فانها لم تقيد الحكمدار برغبتها هذه ، بل تركت له حرية العمل بما يراه صائبا . وكان رد الحكمدار على القاهرة أن الوقت غير مناسب لهذا العمل ، لعدم استكمال ضبط دارفور ، وقلة العساكر الموجود معظمهم مع الزبير خارج دارفور منذ عام أو اكثر وسوء حالتهم الصحية والمعيشية ، وعدم حصولهم على مرتباتهم منذ مدة ، وأن فتح برقو تشتيت وتشعيب للجهود المبذولة في ضبط دارفور(١١٩) .

ولم يكتف الحكمدار بهذا السيل من المقترحات بل أبرق في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٥ يناير سنة ١٨٧٥ م للقاهرة شارحا وجهة نظره في اقتراح الخديو بفتح برقو مارضا رايه بأن الزبير ربما لا يقبل أن يوجه جهده مرة أخرى نحو فتح جديد ، لأنه كان يقاتل هو ورجاله ما يقارب السنة والنصف في بحر الغزال وشكا ودارفور ، وأنه صرف من ماله الخاص الكثير في سبيل تجهيز وإعاشة ما يزيد على الستة آلاف رجل من خاصته وعبيده وأقاربه وأتباعه ولم يكلف الحكومة بأية مصروفات ، بل كان ذلك من ايرادات مشارعه الخاصة في بحر الغزال وبهذه الجهود تم له فتح دارفور . وهو ينتظر في مقابل كل هذا أن تبقى الحكومة على مديرية بحر الغزال في عهدته كما كانت لأنها مقر مشارعه ومتاجره ، وكذلك شكا ودارفور اللتان فتحهما بماله ودماء رجاله . ولهذا لا ينتظر منه أن يقوم بحملة جديدة نحو بلاد برقو دون أن ينال جنوده شيئا من الراحة ، ودون أن يجني هو ثمرات ما افتتح على يديه . وبهذا المنطق وتلك الحجج تحطم مشروع فتح بلاد برقو على يد اسماعيل باشا أيوب(١٢٠) .

وبينما القاهرة والحكمدار تتبادلان البرقيات في مسألة فتح برقو ، كان الزبير متجها بفرقته الى غرب الفاشر — التي هي حدود برقو — لتعقب ما بقي من عائلة السلطان . وبعد أن تم له ذلك اتجه بجيشه متوغلا نحو الغرب مجتازا في طريقه ديارتاما(١٢١) ، المساليت(١٢٢) ، تمد ، سولا ، فأخضعها جميعا باسم الحكومة الى أن بلغ في فتوحه ترجة برقو الواقعة على حدود مملكة دارفور الغربية والتي يفصل بينها وبين دارا اقليم واداي . ولكن لم يكد الزبير يتم جهوده بشأن اخضاع واداي وسلطانها ،

حتى أمره الحكمدار بالرجوع عنها فى الحال . فقفل عائدا للفاشر متأسفا على ذلك الفتح الذى أفلت من يده . وهناك أخبره الحكمدار بأن جناب الخـــــديو أمر برجوعه من هذه البلاد مع مكافأته على ذلك(١٢٣) .

ترقية الزبير والحكمدار :

كان وكيل الحكمدارية على اتصال مستمر بالقاهرة لتبليغها أولا بأول بأنباء ما يجرى بدارفور ، وكان آخر ما أبلغ به القاهرة من معلومات هو الانتصـــارات التى أحرزها كل من جيش الزبير والحملة التى بقيادة الحكمدار ومقتل الســـلطان ابراهيم فى ٢٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م على يد الزبير . فلم يلبث أن أبرقت القاهرة للخرطوم فى ٢٥ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م بالتهنئة على هذا العمل المجيد . وأجاب الحكمدار بشكر جناب الخديو على تهنئته هذه بعد أن قام بتبليغ تهنئة الخديو لكافة الضباط والعساكر فى احتفال عسكرى مهيب أطلقت فيه المدافع ابتهاجا بهذه المناسبة(١٢٤) .

وطلب ناظر الجهادية فى الثامن والعشرين من شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م من الخديو التصديق على ترقية الضباط الذين أظهروا شجاعة ، وبذلوا جهودا مخلصة أثناء هذه الحرب الى رتب أعلى كتوصية الحكمدار له فى غاية رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م(١٢٥) .

وفى التاسع والعشرين من شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٠ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م أرسلت ارادة سنية الى الحكمدار تهنئة فيها على هذا النصر العظيم للمرة الثانية ، وانعام الخديو عليه

برتبة الفريق ، والنيشان المجيدى العالى من الطبقة الاولى ، وعلى الزبير برتبة اللواء والنيشان المجيدى من الطبقة الثانية ، وتنبهه الى ضـــــرورة توجيه الاهتمام الكافى لتنظيم امور هذه المديرية الجديدة ، والعمل على راحة اهاليها وطلب ما يلزم لها من العساكر والموظفين(١٢٦) .

وفى غرة ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٩ يناير ١٨٧٥ م صدرت من المعية اوامر كريمة بهذه الرتب والنياشين الى كل من الزبير والحكمدار ، وتحمل اليهما الثناء والشكر على ما بذلاه من جهود مخلصة فى هذه الحرب ، وفى خدمة الحكومة وتحثهم على بذل المزيد من السعى والاجتهاد مقابل الوعد بمزيد من المكافآت والانعامات من جانبها(١٢٧) .

مـــــكان الزبير فى الادارة الجـــــديدة :

لم يكن هدف الزبير الحقيقى من وراء قيامه بفتح بحر الغزال وبلاد شكا ودارفور أن يتولى هو أمرها ، بل كان يؤمن وهو الذى اجتمع حوله جيش كبير ، أن من مسئوليته العمل على أستقرار الأوضاع المضطربة فى تلك المناطق بالقضاء نهائيا على الخارجين والمسدين لهذا الاستقرار . ومن ثم بدأ يعمل ويخطط سياسته التى أصابها النجاح الى حد كبير . ويؤكد ذلك انه بعد أن أتم فتح بحر الغزال عرض على الحكومة ان ترسل من طرفها من يتولى حكم هذه البلاد حتى يستطيع هو ان ينصرف الى تجارته ، ولكن الحكومة لم تقبل هذا العرض واقرت توليته على بحر الغزال مقابل جزية يدفعها للحكومة . ولم تكن فى اقدامها على هذه الخطوة مضطرة أو مجبرة ، ولكنها رأت ان من صالحها عمل ذلك . وبعد أن تم فتح دارفور ومشاركة الحكومة له فى هذا الفتح نجد أن

سياسة الحكومة قد تغيرت عن سياستها تجاهه عندما اقرت توليته على بحر الغزال . فمن بعد ان تم فتح دارفور لم تقبل باي صورة من الصور أن ينفرد الزبير بثمار نجاحه هذا ، ولكنها لم تصرح له بذلك في باديء الأمر ، بل لعبت السياسة دورها في ملاينته ومهادنته ، حتى تم لها ما أرادت بفضله وذلك بالقضاء على جميع الاضطربات والثورات التي تولدت بعد الفتح من جانب اقارب السلطان ابراهيم . حينذاك بدأت سلسلة من الاتصالات السرية بين الحكومة والحكمدار لتحديد مكان الزبير في الادارة الجديدة .

وفي هذا السبيل تبودلت التلغرافات الشفرية العربية والتركية بين الحكمدار والقاهرة ، فبعد سفر الزبير متعقبا الامير حسب الله الثائر اقترح الحكمدار ان يعين شخص آخر غير الزبير مديرا عاما على المديريات الأربع لدارفور برتبة لواء ثم ذكر الاسباب التي بسببها لا يقر صلاحية الزبير لمثل هذا المنصب . مضافا اليها ان اشرافه على سير الامور في بحر الغزال وشكا يمنعانه من ذلك ، وقد خلع الحكمدار من تلقاء نفسه على الزبير لقب « مأمور ادارة دارفور » تطمينا له حيث ان قواته كانت تزيد على الستة آلاف رجل وكلها مزودة بالأسلحة النارية ونصفها من عبيده الخصوصيين . وقد علم الزبير انه سوف يعين فعلا على دارفور وشكا وبحر الغزال بارادة سنية سوف ترد من المحروسة . ويظهر من تلغرافات الحكمدار الشفرية للقاهرة ان ما دعاه الى انتهاج هذه السياسة هو قوة الزبير التي بدونها لم يكن ليستطيع السيطرة على دارفور ولا القضاء على الثورات والتمردات التي ظهرت بعد الفتح . لذلك رأى مجاراته وتطييب خاطره الى حين . واقترح الحكمدار أيضا أن ترد الارادة السنية بفصل ادارة دارفور عن بحر الغزال وشكا ويعين مدير عام برتبة لواء عليها ، اما بترقية حسن بك حلمي الموجود بالفاشر آنذاك او من تراه الحكومة

صالحا لهذا المنصب ، وبذلك تحال شكا وبحر الغزال الى عهدة الزبير مؤقتا كما كانت من قبل . وكان الحكمدار يرى أن ذلك هو الطريق الوحيد لادارة دارفور ادارة رشيدة ، فى حين أن الأهالى هناك كما يقول الحكمدار ينفرون من حكم الزبير وادارته ، وان كل تلك الاقاليم الشاسعة فوق مقدرته الادارية .

وبعد خمسة ايام من تاريخ ارسال هذه البرقية رأى الحكمدار انه بعد ذهاب الزبير الى شكا وبحـــــر الغزال ، لن تكفى القوة النظامية الباقية لحفظ الأمن ، وانه لذلك يرى ضرورة الابقاء على الزبير حينا من الزمن بدارفور يشرف فيها على الادارة ويبقى معه حسن حلمى بك كقائد للعســــاكر الجهــادية حتى يتكامل ورود العساكر والموظفين من مصر . وفى هذه الحالة تستطيع القوة المصرية العمل على حفظ النظـــام والدفاع عن دارفور بما فيه الكفاية . وعندئذ فى الامكان ارجاع الزبير الى مقر وظيفته الأولى فى مديرية بحر الغزال وشكا . ولكن الحكمدار تردد مرة أخرى فى خطته وابرق للقاهرة مقترحا تأسيس مديرية عامة لغـــرب السودان ، تشـــمل دارفور وبحر الغزال وشـــكا وان يعين الزبير بها مديرا لبحر الغزال وشكا ، وحســن رفعت بك مديرا لدارفور ، وحسن حلمى بك قائدا للعساكر الجهادية ، على أن يكون على رأس هؤلاء جميعا خالد باشا بعنوان مدير عموم غرب السودان ، الذى كان يشـــغل فى ذلك الوقت قائمقام الحكمدارية بالخرطوم . وترك الحكمدار أمر الانعـــام على هولاء بالرتب والنياشين لارادة ولى النعم وذلك حثا لهم على زيادة نشاطهم فى خدمة الحكومة . وكانت هناك وجهتان للنظر فى هذه المسألة :

الاولى : أن يعهد الى الزبير بحكم دارفور وبحر الغـــزال وشكا وفتح برقو ، ويعين بهذا مديرا على كل الجهات الغربية ،

ولكي يظل هذا الجزء منفصلا عن حكمدارية السودان مثل شرق السودان ، والا تتحمل الحكومة اية مصروفات لها .

الثانية : هي ان يبقى الزبير في الوقت الحالي بدارفور الى ان يتم اخضاع كل الجهات فيها وترد للمديرية القوة العسكرية الكافية . واثناء ذلك تحتاج دارفور الى مصروفات تبلغ بين سبعة وثمانية آلاف كيسة تتحملها الحكومة وبعدها تتحرك فرقتان احداهما من دارفور والثانية من بحر الغزال وتتجهان نحو فتح برقو(١٢٨) .

وفي التاسع من ذي الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٧٥ م أبرق الحكمدار للقاهرة يطلب الابقاء على الزبير وجماعته بدارفور بصفة مؤقتة بحيث يعين عليها رسميا بعنوان مدير عموم ، لكي يسهل بعد ذلك نزع بحر الغزال من أدارته دون جهة شكا ، ولكي يقوم باستكمال ما بدأه من اخضاع بقية أهالي دارفور لطاعة الحكومة . وقد صار الاهالي يخشون بطش الزبير ويأس جماعته ورأى الحكمدار صـــرف النظر مؤقتا عن تعيين خالد باشا حتى لا يحدث انشقاق في الادارة والاكتفاء بالابقاء على حسن بك حلمي بوظيفة قومندان للعساكر النظامية ثم يعين حاكما على دارفور عند قيام الزبير بفتح جهة برقو(١٢٩) .

وفي نفس التاريخ ابلغ الحكمدار القاهرة بانه عند صـــدور الامر بنزع جهة بحر الغزال من ادارة الزبير ، واحالة دارفور عليه يصير السماح له بأخذ اربعمائة قنطار ســـن فيل تملكه والموجودة بمشـــــارعه في بحر الغزال ، وكذلك بقية ما له من الاشياء مثل الاسلحة والذخائر وخلافه ، على ان يكون ذلك من جملة مكافاته من جناب ولي النعم الخديو(١٣٠) .

أبرق الحكمدار الى الخديو يعدل فى اقتراحه للمرة الثانية مشيرا بأن تضاف كردفان الى الجهات الغربية على أن تتبع كلها خالد باشا ، وتعيين الزبير مديرا على دارفور ، وحسن بك حلمى تومندانا على العساكر النظامية ، وحسن بك رفعت مديرا على كردفان(١٣١) .

وقد صدرت ارادة سنية الى حكمدار السودان فى السادس من محرم سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٨٧٥ م تعلمه بانه سوف تصدر الاوامر اللازمة بتعيين الزبير باشا مديرا عاما على دارفور ، وتخبره بصفة قاطعة بعدم مغادرة الفاشر الى الخرطوم الا بعد صدور التعليمات بذلك اليه(١٣٢) .

وفى التاسع عشر من محرم من نفس السنة الموافق ٢٦ فبراير سنة ١٨٧٥ م صدر أمر كريم الى حكمدار السودان بالفاشر، وفيه توضح القاهرة النقاط والاسباب التى ترتكز عليها لمنع تعيين الزبير باشا فى منصب مدير دارفور وهى كالآتى :

(أ) خوف الحكومة من ان يطمع الزبير فى الاستقلال بما تحت يده من البلاد التى سوف يعين عليها .

(ب) ترى الحكومة أن عمله فى التجارة بالاضافة الى وظيفته التى سوف يعين بها تمنعه من أن يمارس مهام هذه الوظيفة ، كما انها ترى أنه لا يجوز الجمع بين التجارة والادارة . وانها مستعدة لاستلام مشارعه ومتاجره باثمان مناسبة كما فعلت مع بعض التجار الأوروبيين من قبل اذا أراد ان يعين بهذه الوظيفة .

(ج) كان جنود البحارة ينفرون من اتباعهم لنظام خاص ومعنى استمرارهم فى خدمة الحكومة مما يقتضى ضرورة خضوعهم لنظمها وتناول مرتبات كبقية الجنود الآخرين وهذا مما يصعب تحقيقه .

والظاهر أن الجنود الجهادية بعد أن تكامل منهم عدد وفير بدارفور ، راى الحكمدار انه ليس هناك حاجة لتعيين الزبير فى المنصب الذى سبق أن اقترحه كما أنه راى من خلال تفكيره (أى الزبير) عدم كفاءته لادارة هذه الأراضى ، وانه يصعب عليه التعاون مع مرءوسيه من اصحاب الرتب النظامية فى الجهادية والموظفين المدنيين الآخرين الذين يحضرون من مصر ، كما أنه لا يريد أن يتخلى عن جنوده البحارة . ويرى الحكمدار فوق كل هذا أن الزبير نفسه راغب عن ادارة دارفور ، وانه يكتفى ببحر الغزال . ولهذا أعلن تعيين حسن بك حلمى مديرا على الفاشـــر بعد ترقيته لرتبة اللواء ، ومديريتين أخريين بصفة مؤقتة . أما دارا التى تقع قبلى دارفور فقد حولت ادارتها مؤقتا على الزبير . وقد أراد الحكمدار ابعاد الزبير عن ادارة دارفور ، وفى نفس الوقت عمل على الابقاء عليه بدارا كي يستعين به على اخماد الفتن التى قد تنشب بدارفور وذلك لعدم استطاعة الحامية المصـــــرية القيام بذلك نظرا لقلة عددها . والحل الأخير الذى ارتآه الحكمدار لمشكلة الزبير هو انه عندما يعود الى بحر الغزال يوكل اليه فى الحال مهمة فتح برقو ، ويعين مديرا على ما يفتتحه من اراضى بتلك الجهة ، ثم يتم نزع جهة بحر الغزال من ادارته وبذلك تتخلص الحكومة من ادارته لدارفور ، ومن مشارعه ومتاجره وجنوده البحارة فى بحر الغزال . ولم يمانع الزبير فى ترك ادارة دارفور ، ولا فى امتلاك الحكومة لمشارعه ومتاجره فى بحر الغزال ، ولكنه طلب أن تبقى له الحكومة على ستمائة قنطار من سن الفيل الموجود لديه فى بحر الغزال ، كما تعهد أن يورد للحكومة السن والشبان الصالحين للجندية بما قيمته خمسة آلاف كيس باعتبار قنطار السن بخمسة وعشـــرين جنيها ومكافاة الجندى خمسمائة قرش ، وما يزيد على ذلك ترسل له الحكومة ما يقابله من البارود واللوازم الحربية الأخرى . ولم يمانع ايضا فى تحويل رجاله من البحارة الذين يصـــــحبونه الى

عساكر حكومية بمرتبات ثابتة ، وقد صدق ظن الحكمدار بعد ذلك من أن اهالى دارفور لابد انهم قد يعاودون العصيان مرة أخرى ، وأن وجود الزبير بدارفور ضرورى لكسر شوكتهم . وبعد أداء الزبير لمهمته يستطيع الحكمدار أن يقوم بتنفيذ الحلقة الاخيرة فى سلسلة اجراءاته تجاه الزبير ، فقام الزبير بتسليم مديرية دارا بعد هدوء الأحوال نسبيا بدارفور ، متهيئا للرحيل لشكا وبحر الغزال حيث اصبح لا حاجة له ولا لوجوده بدارفور(١٣٣) .

الزبير يعتزم السفر للقاهرة :

لم يكن الخلاف بين الحكمدار والزبير فى مسألة الضرائب ، وتنصيب الأمير حسب الله على دارفور ، وتحديد مكانه فى الادارة الجديدة ، الا اسبابا اختلقها الحكمدار ليدفع بالزبير لطلب اللجوء للقاهرة لعرض حقيقة الامور هناك على الخديو لانصافه . ولم تكن البرقيات التى تبودلت بين القاهرة والحكمدار سوى نوع من المناورات والخدع السياسية التى استهدفت استئصال شأفة الزبير كليا من السودان .

وقد شعر الزبير منذ اليوم الاول الذى اجتمع فيه مع الحكمدار بالفاشر ان هناك بعض الانقباض والنفور منه ، ولعل ذلك كان مرجعه الى شعور الحكمدار بأن فخر فتح دارفور يعود للزبير . ثم توالت على الزبير بعد ذلك الوعود الكثيرة التى سرعان ما كانت تتبخر الواحد تلو الآخر ، ثم اجراءات اسماعيل باشا أيوب من حيث ادارة دارفور وفتح برقو ، وعلم الزبير برغبة الحكومة فى تسريح جنوده البحارة ، واستلام مشارعه الموجودة فى بحر الغزال . كل ذلك جعل الزبير يظن أن الحكمدار اراد حرمانه من ثمار انتصاراته من تلقاء نفسه ، وان الخديو لا يتفق معه فى تلك

السياسة . وان من الأوفق الذهاب الى القاهرة ، وعرض الأمر على الاعتاب السنية ، وما كان يدرى أن تلغرافات الشفرة المتبادلة بين الحكومة والحكمدار هى التى تملى هذه السياسة . وأن الحكمدار هو الذى يقترح والخديو يوافق بعد أن يقتنع بصحة الاقتراح . وما كان يدرك الزبير بحكم تربيته وبيئته أن هناك باطنا من الأمر وظاهرا . وان السياسة هى حيل ومناورات ، وما كان له أن يدرك أيضا طريقة الدسائس التركية ، فكان يأخذ الأقوال التى يبديها له الحكمدار على ظاهرها ، ولم يشعر أن هناك تخوفا من جهته للقيام بعصيان أو تمرد . وهو بطبيعته البسيطة وسليقته العربية الواضحة ما كان مخادعا فى ولائه للحكومة الخديوية ، وظل ثابتا على اخلاصه منذ قطع عهدا على نفسه بالولاء لهذه الحكومة عندما تغلب على قوات البلالى ودفع عن نفسه تهمة التمرد والثورة ، غير ان عنصر الحكم التركى حين ذاك ما كان يصدق أن رجلا عصاميا كالزبير عمل لنفسه مجدا فى مجاهل افريقيا والتف حوله عدد من الاتباع وفتح بقواته وموارده الخاصة بلاد دارفور ، أن يكون خلوا من المطامع . وما كانوا بحكم أفكارهم وتقاليدهم التركية أن يطمئنوا الى مثل هذا الرجل ، فقد تعنى أقواله الظاهرة معنى عكسيا لما يبطنه فى ضميره لذلك كان موقف الحكمدار معه يتسم منذ البداية بالحذر والاحتراس(١٣٤) .

وجد الزبير أن من الأصوب السفر الى مصر لمقابلة الخديو شخصيا وعرض حقيقة الموقف عليه ، والنظر معه ومع رجال حكومته فى أمر تنظيم البلاد التى تم فتحها على يده ، والبلاد التى يمكن الحاقها بحكومة الخديو فى المستقبل ، فجاءه فى غرة رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١ أغسطس سنة ١٨٧٥ م تلغراف من القاهرة بالموافقة على حضوره اليها(١٣٥) . فاجاب الزبير على هذه البرقية بتقديم الشكر للجناب العالى الخديو وسروره لذلك

وأبلاغه بقيامه بالاستعداد للسفر وذلك فى برقية بعث بها فى ١٩ رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٩ اغسطس سنة ١٨٧٥ م(١٣٦) .

نفذ الحكمدار سياسة اخلاء دارفور بأكملها من نفوذ الزبير ، وقدم الزبير قبل قيامه عريضة للخديو يشكو فيها من استعجال الحكمدار لجنوده من البحارة بالرجوع الى بحر الغزال وفصل مديرية دارا عنه ، وهو يرى أن اختلاط سكان المديريتين دارا وبحر الغزال يجعل انفصالهما اداريا أمرا يكاد من الصعب تحقيقه ، فجاءه الرد من القاهرة بان اوامر الحكمدار لابد من تنفيذها فى الوقت الحاضر ، وانه بعد حضوره لمصر سينظر معه فى تشكيل حكمدارية يكون هو على راسها تشمل بحر الغزال وربما جزءا من دارفور . وقد خشى الحكمدار ان يقوم الزبير بمحاولة للسيطرة على دارا ، فبعث بجنود كثيرة اليها حتى اذا بدت اية حركة من الزبير انقض عليه جنود الجهادية . ورأى الحكمدار أن البارود الذى طلبه الزبير من بحر الغزال مبالغ فى كميته . وهكذا لآخر لحظة كان الحكمدار يشك فى ولاء واخلاص الزبير .

تحرك الزبير من شكا قاصدا كردفان ومعه رؤساء البازنقر بعد أن تلقت القاهرة والخرطوم من التأخير . وبدأ الحكمدار يضع العراقيل فى طريقه ، فبعد أن اتفق مع الزبير على توريد اقمشة وأشياء أخرى بلغ ثمنها نحو السبعة آلاف جنيه يصرفها من خزانة الحكمدارية بالخرطوم . أرسل تلغرافا لمصر بسحب اتفاقه هذا لأن أهالى دارا كما يقول الحكمدار قدموا عرائض بأن هذه الاقمشة وغيرها التى وردها الزبير كانت ملكهم واغتصبها منهم الزبير لنفسه ، ولذا ينصح بمماطلة الزبير فى الدفع بحجة عدم وجود النقدية ، وفعلا اخبر قائمقام الحكمدارية سرا بذلك الامر وقد فوجىء الزبير بأمر الحجز على السن وهو فى الابيض(١٣٧) .

بعث الزبير بشكوى الى الجناب العالى الخديو فى ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٦ فبراير ١٨٧٦ م يخبره بما فعله مدير كردفان ، فجاءه رد القاهرة تبلغه بتكديرها للمدير المذكور على ما بدر منه من سوء تصرف ، والتصريح له باخذ السن الخاص به . وكانت القاهرة قد ارسلت الى مدير كردفان تلومه على عمله هذا وتبلغه بأن الزبير باشا ليس تاجرا وانما هو من كبار موظفى الحكومة كما ان السن المذكور برسم حضوره الى مصر(١٢٨) .

وقد فوجىء الزبير للمرة الثانية عندما وصل الخرطوم وطلب صرف قيمة ما ورده للميرى من اقمشة وخلافه أنه لم يستجيب لطلبه قائمقام الحكمدارية حسب تعليمات الحكمدار . ولكن بعد التلغرافات العديدة التى تبودلت صرف له نصف المبلغ . وفى بربر طلب مبلغا آخر وبعد أن تبودلت التلغرافات مع القاهرة صرف له جانب منها . فقام من بربر مخترقا صحراء العتمور الى كرسكو ومنها الى مصر . والدليل الثابت على تخوف الحكومة من الزبير هو أن الحكمدار صدرت له الأوامر بأن يبقى بدارفور حتى يغادر الزبير الخرطوم ، وينتظر بالخرطوم حتى يتيقن من وصول الزبير الى كرسكو ، وتحت ستار التفتيش على الشمال يسافر الى مصر حسب ما طلب منذ مدة(١٣٩) .

وصل الزبير الى القاهرة فى العاشر من يونية سنة ١٨٧٥ م(١٤٠) وتشرف بمقابلة جناب الخديو بقصر الجيزة ، فرحب به وبالغ فى اكرامه ، وافرد له احد قصوره بالعباسية ،

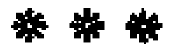
منزل به هو وأســــــرته وأتباعه ضيوفا على الخديو . ولم يكد يستريح من عناء السفر حتى تقدم الى قهرمان الخديو بكتاب طلى العبارة رقيق الحاشية يرجو فيه أن ترفع الى الســـدة الكبرى السنية هديته المتواضعة التى احضـــــرها معه لعزيز مصر من السودان ، وهى عبارة عن :

« الف جندى سودانى مدججين بالعدة والسلاح ، مائة مثقال من الذهب ، مائة جواد عربى ، مائة وخمسين قنطار سـن فيل ، اربعة اسود ، اربعة نمور كاسرة ، ستة عشرة ببغاء من ذوات الالوان الزاهية ، فسر الخديو من هذه الهدية سرورا بالغا ، وأنهى الى الزبير امتنانه من هديته فى كتاب أرسله اليه قهرمانه خيرى باشا . وبقى الزبير فى قصر العباسية حتى اغسطس سنة ١٨٧٥ م . فدعاه الخديو اليه بقصر الجيزة واصدر له امرا بالتاهب للسفر قريبا الى السودان ، فشكره الزبير على ذلك ودعا له وشرع يستعد للسفر . ومضت أشهر ثم دعاه الخديو اليه ثانية وقال له : يازبير قد اسـتصويت بقاءك فى القاهرة حتى انظر فى امرك فأجابه أمرك يامولاى فانصرف الزبير والأسى يحز فى نفسه وقد أدرك فى أعماق سريرته ما كان يتوقعه وما جال فى نفوس أتباعه(١٤١) . »

والعجيب أن بعض رجاله وأعوانه قد حاولوا قبل سفره اثناءه عن الرحيل غير أن اخلاصه وولاءه لحكومته وشرفه تقضى عليه بالمحافظة على وعده بالسفر الى مصر(١٤٢) .

وهنا الخطأ الذى وقع فيه الزبير وهو تقريره الذهاب للقاهرة لكى يضع حدا للأمور المتنازع عليها بينه وبين الحكمدار . وكان الخديو اسماعيل أذكى من أن يعيد الزبير باشا الى السودان وهو الرجل الذى حكم مديرية فى حجم فرنسا ، وغزا علاوة على ذلك أكثر من ۱٤۰٫۰۰۰ ميل مربع من أجل مصر . لذلك نراه يقضى بقية حياته كضيف شرف لدى الخديو(١٤٣) .

كان الصراع بين الزبير والحكمدار رمزا للصراع بين العقلية السودانية الاسلامية والعقلية المصرية التركية ، فالزبير يريد تخفيف الضريبة والاكتفاء بالزكاة التى يفرضها الشرع ، والحكمدار يريد أن يمصر البقرة التى كانت حلوبا ثم جف ثديها . ولو بقى الزبير فى السودان لاضطره هذا الاختلاف الى الثورة فى وجه الحكومة . ولكنه أبعد عن مسرح الأحداث فى الوقت المناسب قبل أن يستفحل أمره ويصبح زعيما قوميا(١٤٤) .



هوامش الفصل الثالث

(١) سلطنة دارفور : تمتد من بئر النطرون في الصحراء الكبرى شمالا الى بحر الغزال جنوبا ، ومن النيل الابيض شرقا الى نرجلة بارقو غربا . ويشقها جبل مرة الذي يبلغ عرضه مسيرة نحو اليومين ، وهو سهل ممتد من غربها الذي تقع السهول في شماله فقط . والفور شعب مسلم زراعي يحتل جبل مرة والسهول التي تقع حوله . ويوجد ضمن شعب الفور شعبة خاصة من ابنائه تدعى الكنجارة وهي التي منها سلاطين دارفور . ويوجد بدارفور قبائل منها الداجو ، والبيقو ، والبرقو . وهناك ايضا قبائل الفرعان ، والبيدرايات ، والزغاوة وهي جماعات رعوية أصلها من جنوب ليبيا وتشاد . ومناخ هذه البلاد في جملته ملائم . وصناعة السكان هناك تقتصر على تربية الماشية والابل والاغنام ، والزراعة حيث تجود الارض وهم يعتمدون على مياه الامطار . واهم محاصيلهم البقول والخضر ، ويقبل التجار على دارفور للاتجار فيما تغله أرضها من الخشب والصمغ العربي والقرمز الذي يستخدم في الدباغة كما يستخرج بعض المعادن منها على سبيل المثال الحديد والنحاس .

(٢) Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and slavary in the Sudan 1863 — 1879. P. 211.

(٣) Budge, E.A. Wallis : The Egyptian Sudan Vol : 2, P. 23.

(٤) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 222.

(٥) السلطان حسين بن الفضل (١٨٣٩ م — ١٨٧٤ م) : كان معاصرا لسعيد باشا والخديو اسماعيل فبادلهما الهدايا والمكاتبات . وكان كريما محبا لرعيته . وفي سنة ١٨٥٦ م كف بصره والف جيشا يزيد على ١٠,٠٠٠ مقاتل سلحهم بالأسلحة النارية فكان هو أول من استعمل الاسلحة في جيش دارفور . وكان اعتماد السلاطين قبله على الحراب والسيوف والدرق والنشاب والسكاكين .

Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 222 — 224. (٦)

(٧) شجرة التبلدي : تسمى شجرة الباوباب وهي من اشـــجار منطقة الحشائش القصيرة الشوكية بوسط كردفان وتكثر بدار حمر ، وكل اسرة في تلك النواحي تمتلك عددا من هذه الاشجار في نطاق عدة اميال ، وهي ضخمة جدا ذات اغصان قصيرة منتشرة بعضها اجوف بطبيعته حيث قام الاجداد منذ أمد بقطع الأخشاب من داخل جذوعها لكي يصنعوا خزانات كبيرة يستوعب الواحد منها الف جالون من مياه الأمطار . ويستفاد من ثمرها الذى يشبه الليمون الجاف باستخدامه كدواء ، ويتزع لحاؤها لكي يستخدم في تعريش المنازل . ويتجمع الأهالي حولها ليستمتعوا بظلالها الوارفة من شدة الحرارة .

(٨) شوقي الجمل (دكتور) : تاريخ سودان وادي النيل ج ٢ ص ١٧٧ .

(٩) لم تذكر المراجع تاريخ بدء وانتهاء هذه الحرب باليوم والشهر انما ذكرت السنة فقط .

(١٠) السلطان ابراهيم : هو احد السلاطين الفور وكانت مدة حكمه سنة وسبعة شهور وأربعة عشر يوما . ولما مرض والده السلطان حسين وعلم بدنو أجله أراد أن يطمئن على الملك من بعده ، ويضمنه لابنه ابراهيم لانه كان أحب أبنائه اليه بالرغم من انه لم يكن أكبرهم . فانتدب اثنين من أمنائه هما الامين بخيت والأمين خير قريب وحلفهما على المصحف بأن يوليا ابنه ابراهيم بعد وفاته فلما توفى السلطان أخفيا خبر موته وأرسلا للأمير ابراهيم فأجلساه على كرسي السلطنة وبايعه الوزير أحمد شطة وأرسلوا الى الوزراء واحدا بعد الآخر فحلفوا له اليمين على الطاعة . وقد اشتهر السلطان ابراهيم بالكرم والشجاعة كأبيه وبقى نافذ الكلمة في دارفور الى أن قتل في بلدة منواشي في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٥ م في واقعة دموية شديدة بينه وبين الزبير . وكان في مقتله زوال لسلطنة دارفور ودخولها في حوزة الحكومة .

(١١) انظر تفاصيل هذا الموضوع بالفصل الثاني .

Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 224 — 227. (١٢)

(١٣) عبد الرحمن زكي : أعلام الجيش والبحرية في مصر في القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٣ .

(١٤) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر الى التاسع عشر الميلادى ص ١٥٨

(١٥) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ٧٥ .

(١٦) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٩٢ .

(١٧) محمود القباني : السودان المصري الانجليزي ص ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٧٥ — ٧٦ .

(١٩) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 227.

(٢٠) ابراهيم فوزي : السودان بين يدي جوردون وكتشنر ص ١٣٧ .

(٢١) انظر الوثيقة رقم (٢٤) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد مكاتبات محية سنية ص (٧١) مكاتبة رقم (١٠) .

(٢٢) Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 227 — 228.

(٢٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٧٦ .

(٢٤) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 228.

(٢٥) انظر الوثيقة رقم (٢٥) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركي ص ص (١٢/٢٣ ، ١٢/٢٤ ، ١٢/٢٥) تلغراف رقم (١٢٨) .

(٢٦) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : الاجوبة السديدة في انذار وتهديد أهل المكيدة ص ص ١٠ — ١٢ .

(٢٧) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : نفس المرجع ص ص ١٢ — ١٥ .

(٢٨) انظر الوثيقة رقم (٢٦) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركي ص ص (١٣/٢٥ ، ١٣/٢٦) تلغراف رقم (١٣٩) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٧) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركي ص (١٤/٢٧) تلغراف رقم (١٤٢) .

(٢٩) مكي شبيكة (دكتور) : السودان عبر القرون ص ١٧٥ .

(٣٠) انظر الوثيقة رقم (٢٨) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد معية سنية مكاتبات ص (٧١) مكتبة رقم (١١) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٩) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٨/٧) تلغراف رقم (٣٥) .

(٣١) انظر الوثيقة رقم (٣٠) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (١٥) تلغراف رقم (٥٥) .

(٣٢) انظر الوثيقة رقم (٣١) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٦/١١ ، ٦/١٢) تلغراف رقم (٦٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٣٢) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٦/١٢ ، ٦/١٤) تلغراف رقم (٦٦) .

(٣٣) انظر الوثيقة رقم (٣٣) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٧/١٣ ، ٨/١٤) تلغراف رقم ٦٧ .

(٣٤) انظر الوثيقة رقم (٣٤) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٨/١٤ ، ٨/١٥) تلغراف رقم ٦٨ .

(٣٥) انظر الوثيقة رقم (٣٥) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٨/١٥) تلغراف رقم (٦٩) .

(٣٦) انظر الوثيقة رقم (٣٦) دفتر رقم (١٧) صادر تلغرافات شفرة عربي ص (١٦/٣٢) تلغراف رقم (١٧١) .

(٣٧) انظر الوثيقة رقم (٣٧) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (١٨) تلغراف رقم (٩٥) .

(٣٨) انظر الوثيقة رقم (٣٨) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركي ص ص (١٩/٣٧ ، ١٩/٣٨ ، ٢٠/٣٩ ، ٢٠/٤٠ ، ٢١/٤١) تلغراف رقم (٢٠١) .

(٣٩) انظر الوثيقة رقم (٣٩) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تلغرافات شفرة تركي ص ص (١٦/٣١ ، ١٦٣٢٢ ، ١٧/٣٣) تلغراف رقم (١٧٥) .

(٤٠) انظر الوثيقة رقم (٤٠) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركي ص ص (٢٢/٤٣ ، ٢٢/٤٤) تلغراف رقم (٢١) .

(٤١) انظر الوثيقة رقم (٤١) دفتر رقم (١٩٤٨) أوامر عربي ص (٥٣/٥٥) أمر رقم (٩٧) .

(٤٢) انظر الوثيقة رقم (٤٢) دفتر رقم (١٨) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٢/٤) تلغراف رقم (٩٧) .

(٤٣) انظر الوثيقة رقم (٤٣) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد معية سنية عربي ص (١١٠) مكاتبة رقم (٢٨) .

(٤٤) انظر الوثيقة رقم (٤٤)) دفتر رقم (١٨٧٥) قيد الافادات الواردة الى المعية من المديريات وللمحافظات والسايرة ص (٩٠) افادة رقم (٢٩) .

(٤٥) انظر الوثيقة رقم (٤٥) دفتر رقم (١٩٤٨) صادر المعية عربي ص (٧٣) مكاتبة رقم (٢٧) .

(٤٦) الأوردى - عبارة عن سرية شبه نظامية كان يكونها ملوك الشايقية للخدمة مع الحكومة المصرية .

(٤٧) انظر الوثيقة رقم (٤٦) دفتر رقم (١٩٤٨) أوامر عربي ص (٧٣) أمر رقم (٢٥) .

(٤٨) انظر الوثيقة رقم (٤٧) دفتر رقم (٢٤) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٢٦٥١) تلغراف رقم (٣٧٤) .

(٤٩) الكاكة : تقع على مسيرة خمسة أيام من دارفور وتعتبر مركزا للادارة فى هذا الفتح .

(٥٠) انظر الوثيقة رقم (٤٨) دفتر رقم (٢٤) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٤٠/٧٩ ، ٤٠/٨٠) تلغراف رقم (٥٤٥) .

(٥١) انظر الوثيقة رقم (٤٩) دفتر رقم (٢٤) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٤٢/٨٣ ، ٤٢/٨٤) تلغراف رقم (٥٧١) .

(٥٢) انظر الوثيقة رقم (٥٠) دفتر رقم (١٨) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٢٦/٥٢ ، ٢٧/٥٣) تلغراف رقم (٢٥٧) .

(٥٣) انظر الوثيقة رقم (٥١) دفتر رقم (٢٤) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٤٥/٨٩ ، ٤٥/٩٠) تلغراف رقم (٦٠٨) .

(٥٤) انظر الوثيقة رقم (٥٢) دفتر رقم (١٨) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٢٨/٥٦ ، ٢٨/٥٧) تلغراف رقم (٢٧١) .

(٥٥) كما وردت بنص الوثيقة رقم (٥٤) ولا يفهم منها هل تعنى جهة معينة بدارفور أو هى تسمية لمنطقها التى فى مصر أو على الجهات الجنوبية لدارفور .

(٥٦) انظر الوثيقة رقم (٥٣) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد معية سنية عربى مكاتبات ص (١١٩) مكاتبة رقم (٣) مرور .

(٥٧) انظر الوثيقة رقم (٥٤) دفتر رقم (٢٥) وارد عابدين تلغرافات شفره تركى ص ص (٢٨/٥٦ ، ٢٩/٥٧) تلغراف رقم (٤٤٥) .

(٥٨) انظر الوثيقة رقم (٥٦) دفتر رقم (١٩) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركى ص (١٢/٢٣) تلغراف رقم (١٥٠) .

(٥٩) انظر الوثيقة رقم (٥٦) دفتر رقم (٢٥) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٣٦/٧٢ ، ٣٧/٧٣) تلغراف رقم (٥٦٨) .

(٦٠) انظر الوثيقة رقم (٥٧) دفتر رقم (١٩) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربى ص (٢٠/٣٩) تلغراف رقم (٢٥٤) .

(٦١) انظر الوثيقة رقم (٥٨) دفتر رقم (١٩) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربى ص (٢٠/٤٠) تلغراف رقم (٢٥٧) .

(٦٢) انظر الوثيقة رقم (٥٩) دوسيه رقم (٣) ملف رقم (٥) مسلسل الوثيقة (بدون) .

(٦٣) مكى شبيكة (دكتور) : السودان فى قرن من سنة ١٨١٩ — ١٩١٩ ص ٩٠ .

(٦٤) انظر الوثيقة رقم (٦٠) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات عربي شفرة ص ص (٣/٦ ، ٤/٧) تلغراف رقم (٢٦) .

(٦٥) انظر الوثيقة رقم (٦١) دفتر رقم (٢٠) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٤٧/٩٣ ، ٤٧/٩٤ ، ٤٨/٩٥) تلغراف رقم (٥٦٧) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٦٢) دوسيه رقم (٢) ملف رقم (١) وثيقة رقم (٧) .

(٦٦) انظر الوثيقة رقم (٦٣) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات ص (٩/٥) تلغراف رقم (٧٦/ وكذلك انظر الوثيقة رقم (٦٤) دفتر دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٣٠/٦٠ ، ٣١/٦١) تلغراف رقم (٢٩٣) وكذلك الوثيقة رقم (٦٥) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٣٥/٦٩ ، ٣٥/٧٠) تلغراف رقم (٤٥٢) .

(٦٧) انظر الوثيقة رقم (٦٦) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (١٦/٣١ ، ١٦/٣٢) تلغراف رقم (٢٣٧) .

(٦٨) محمد فؤاد شكري (دكتور) : مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ م ص ١٢٩ .

(٦٩) دارا : وهي ثانية المدن من حيث الاهمية بعد الفاشر وبها استحكام منيع جرى بها معارك عديدة بين الزبير والسلطان .

(٧٠) البرقد : وهي احدى القبائل بدارفور في ذلك العهد . مركزهم جبل مسكر بين جبل حريزة وجبل مرة قيل ان عندهم الى الآن صنما يعبدونه سرا . ومنهم فصيلة تعرف بباب ورق تحريف ونسيت لغتها .

(٧١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٧٧ — ٧٨ .

(٧٢) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : المرجع السابق ص ص ١٩ — ٢٢ .

(٧٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٧٨ .

(٧٤) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : المرجع السابق ص ص ١٧ — ١٨ .

(٧٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص (٧٨ — ٧٩) .

(٧٦) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ص ص (٧٩ — ٨٠) .

(٧٧) سعد الدين الزبير نفس المرجع ص ٨١ .

(٧٨) انظر الوثيقة رقم (٦٧) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٤) تلغراف رقم (٢٥) .

(٧٩) جبل مرة : يقع وسط دارفور وهو جبل مرتفع حصين طوله من الشمال الى الجنوب نحو مائة ميل وعرضه من الشرق الى الغرب ستون ميلا وارتفاع اعلى قممه الف وخمسمائة قدم عن سطح الأرض المجاورة له ، ونحو ستة آلاف قدم عن سطح البحر ، وهو وافر الخصوبة وبه ينابيع كثيرة والكثير من اشجار الفاكهة والحبوب وغيرها من حاصلات المنطقة مما ليس في غيره من أعمال دارفور، ومن اشهر قممه جبل مارا ، الذى كان مركز سلاطين دارفور قبل انتقالهم الى مدينة الفاشر وفيه مدفن خاص لسلاطين دارفور وابنائهم وجامع كبير قديم نسبيا .

(٨٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٨١ — ٨٣ .

(٨١) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 231.

(٨٢) مكى شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٩٠ .

(٨٣) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء من فتحها الى ضياعها سنة ١٨٦٩ — ١٨٨٩ م ج ١ ص ٢٢٤ .

(٨٤) ام شنقة : وهى فى طريق القوافل الآتية من كردفان ودنقلة وتقع على مسيرة ستة ايام من العاصمة الفاشر .

(٨٥) انظر الوثيقة رقم (٦٨) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٢٢/٤٤ ، ٢٣/٤٥) تلغراف رقم (٣٠٦) .

(٨٦) عرب حمر : يقيمون غرب كردفان ومن مراكزهم ابو حراز والنهود وفى بلادهم يكثر شجر التبلدى وهم يخزنون فيه المياه ويبيعونها للقوافل المسافرين من التجار وغيرهم بين كردفان ودارفور .

(٨٧) انظر الوثيقة رقم (٩٦) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى صص (٣٥/٧٠ ، ٣٦/٧١) تلغراف رقم (٤٦٢) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٠) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص (٦٧) تلغراف رقم (٤٤٨) .

(٨٨) انظر الوثيقة رقم (٦٧) .

(٨٩) انظر الوثيقة رقم (٧١) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٧/٤ ، ٨/٤) تلغراف رقم (٣٢) .

(٩٠) انظر الوثيقة رقم (٧٢) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (١١/٢١ ، ١١/٢٢) تلغراف رقم (١٣١) .

(٩١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٨٦ — ٨٧ .

(٩٢) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 230.

(٩٣) انظر الوثيقة رقم (٧٣) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات عربى ص ص (٣/٢ ، ٤/٢) تلغراف رقم (٢٤) .

(٩٤) مكى شبيكة (دكتور : المرجع السابق ص ٩٠ .

(٩٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨٧ .

(٩٦) منواشى : تقع على مسيرة يومين الى الجنوب الشرقى من الفاشر وهى بعد بلدة كوبى فى اهميتها التجارية وقد اشتهرت الواقعة التى حدثت بين الزبير والسلطان ابراهيم .

(٩٧) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ص ٨٤ — ٨٦ .

(٩٨) Hill, Richard : Egypt in The Sudan 1820 — 1881 P. 137.

(٩٩) انظر الوثيقة رقم (٧٤) دفتر رقم (٢٨) وارد تلغرافات عابدين شفرة عربى ص ص (١١/٢٢ ، ١٢/٢٥) تلغراف رقم (١٣٤) .

(١٠٠) الفاشر : وهى بلدة منسجمة قائمة على تلين عظيمين يعلوان ٢٢٥٠ قدما من سطح البحر ويخترقها خورتندلتى . أسسها السلطان عبد الرحمن الذى تولى عرش دارفور وجعلها عاصمة ملكه فصارت كرسى السلطنة فى دارفور لليوم .

(١٠١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٨٦ — ٨٧ .

(١٠٢) Gray, Richard : A history of the Sothern Sudan 1839 — 1889 P. 122.

(١٠٣) انظر الوثيقة رقم (٧٥) دفتر رقم (٥) معية سنية عربى وارد افادات ص (٢٣) مكاتبة رقم (٥) مرور .

(١٠٤) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج (٣) ص ٨١ .

(١٠٥) انظر الوثيقة رقم (٧٦) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٢٤/٤٨ ، ٢٥/٤٩) تلغراف رقم (٢٢٢) .

(١٠٦) انظر الوثيقة رقم (٧٧) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربى ص ص (٣٩/٧٨ ، ٤٠/٧٩) تلغراف رقم (٥١٦) .

(١٠٧) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 722.

(١٠٨) الميرم : معناها الأميرة وهو لقب من القاب سيدات العائلة الملكية بدارفور .

(١٠٩) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٨١ .

(١١٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص (٨٩/٩٠) .

(١١١) انظر الوثيقة رقم (٧٨) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٣٧/٧٤ ، ٣٨/٧٥) تلغراف رقم (٢٥) .

(١١٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٩٠ .

(١١٣) انظر الوثيقة رقم (٧٩) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٨٤/٨٧) تلغراف رقم (٦٠٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٨٠) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٤٨/٩٥ ، ٤٨/٩٦) تلغراف رقم (٦٨٨) وانظر ايضا الوثيقة رقم (٨١) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ٩٦) تلغراف رقم (٧٠٦) . وانظر كذلك الوثيقة رقم (٨٢) دفتر رقم (٣١) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٢٣/٢٦) تلغراف رقم (٢٦٧) .

(١١٤) Shukry, M.F. Op. Cit., P. 232.

(١١٥) محمد بن عمر التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ٢٦٧ .

(١١٦) نعوم شقير : المرجع السابق ص ص ٨١ — ٨٢ .

(١١٧) كبكبية : تقع بين كلكل والفاشر وقد كانت مركز الادارة قبل كلكل .

(١١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٩٠ — ٩١ .

(١١٩) انظر الوثيقة رقم (٨٣) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (١٦/٣٢ ، ١٧/٣٣ ، ١٧/٣٤) تلغراف رقم (٢٢٨) وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٨٤) دفتر رقم (٢٩) وارد تلغرافات عابدين شفرة عربي ص ص (٢٨/٥٥ ، ٢٨/٥٦ ، ٢٩/٥٧) تلغراف رقم (٤١٣) .

(١٢٠) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٩٣ .

(١٢١) ديارتامة : وهي منطقة يسكنها قبائل تامة وهم مجاورون لقبائل القمر من جهة الغرب .

(١٢٢) المساليت : وهم مجاورون لقبائل القمر من جهة الجنوب .

(١٢٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٩٠ ، ٩٢ .

(١٢٤) انظر الوثيقة رقم (٨٥) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٣٤/٦٨) تلغراف رقم (٤٤٩) .

(١٢٥) انظر الوثيقة رقم (٨٦) محفظة رقم (٥١) معية سنية تركي وثيقة رقم (٢٧٧) تحريرات .

(١٢٦) انظر الوثيقة رقم (٨٧) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٩/١٨) تلغراف رقم (١٤٣) .

(١٢٧) انظر الوثيقة رقم (٨٨) دفتر رقم (٢) أوامر عربية ص (٤٤) امر رقم (٧٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٨٩) دفتر بدون نمرة محية ص (٥٠) تلغراف رقم (١) .

(١٢٨) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٩٢ ــ ٩٣ وكذلك الوثيقة رقم (٩٠) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة تركي ص ص ١٤/٢٨ ، ١٥/٢٩ ، ١٥/٣٠) تلغراف رقم (٢٣١) وانظر كذلك الوثيقة رقم (٩١) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة تركي ص (٢٦/٥٢) تلغراف رقم (٤١٠) وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٩٢) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة تركي ص ص (٢٧/٥٣) تلغراف رقم (٤١١) وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٩٣) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٢٧/٥٣ ، ٢٧/٥٤ ، ٢٨/٥٥) تلغراف رقم (٤١٢) .

(١٢٩) انظر الوثيقة رقم (٩٤) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٣١/٦١) تلغراف رقم (٤١٥) .

(١٣٠) انظر الوثيقة رقم (٩٥) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٣٠/٦٢) تلغراف رقم (٤١٦) .

(١٣١) انظر الوثيقة رقم (٩٦) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٣١/٦٢ ، ٣٢/٦٣) تلغراف رقم (٤١٨) .

(١٣٢) انظر الوثيقة رقم (٩٧) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركي ص (٤٢/٨٣) تلغراف رقم (٦٢٤) .

(١٣٣) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٩٤ ــ ٩٥ وكذلك انظر الوثيقة رقم (٩٨) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركي ص ص (٤٦/٩٢ ، ٤٧/٩٣ ، ٤٧/٩٤ ، ٤٨/٩٥) تلغراف رقم (٦٦١) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٩٩) دفتر رقم (٣٠) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٩/١٨ ، ١٩/١٠ ، ١٠/٢٠) تلغراف رقم (٤١٦) .

(١٣٤) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٩٥ ــ ٩٦ .

(١٣٥) محمد احمد الجبايري : في شأن الله وتاريخ السودان كما يرويه أهله ص ١١٥ ، سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢٧ .

(١٣٦) انظر الوثيقة رقم (١٠٠) دفتر رقم (٣٤) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٢٠/٤١) تلغراف رقم (٢٢٧) .

(١٣٧) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٩٦ — ٩٧ .

(١٣٨) انظر الوثيقة رقم (١٠١) دفتر رقم (٣٦) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٣٩/٧٣) تلغراف رقم (٢٩٥) وكذلك الوثيقة رقم (١٠٢) دفتر رقم (٢٦) صادر تلغرافات عابدين شفرة تركي تلغراف رقم (٢٢٩) وكذلك انظر أيضا الوثيقة رقم (١٠٣) دفتر رقم (٢٦) صادر عابدين تلغرافات ص (بدون) تلغراف رقم (٢٣٠) .

(١٣٩) مكي شبيكه (دكتور) : المرجع السابق ص ٩٧ .

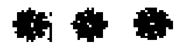
(١٤٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٩٨ .

(١٤١) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٩٤ .

(١٤٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٩٨ .

(١٤٣) . Duncan, J.S.R. : The Sudan A. Record of a chievement P. 13.

(١٤٤) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ص ٨٣ .



الفصـــل الرابع

الزبـير وجـوردون

الزبــير وجــوردون

سافر الزبير الى مصر ليعرض قضيته على الخديو بعد أن ترك ابنه سليمان يدير أعماله ومصالحه فى السودان . وفى ١٠ يونيه سنة ١٨٧٥ م الموافق ٦ جمادى الأول سنة ١٢٩٢ هـ وصل الزبير الى مصر حيث استقبل هناك اســـتقبالا حافلا وكلما اراد العودة الى بلاده استبقى فى مصـــــــر باعذار مختلفة حتى سنة ١٨٧٧ م الموافق سنة ١٢٩٤ م(١) وفى هذه السنة كان جوردون قد عاد بعد زيارة قصيرة لانجلترا الى السودان كحاكم عام متمتع بكافة الامتيازات والسلطات ، وساعده حظه ان الزبير قد اخطأ بزيارته القاهرة(٢) . ومن اجل تقوية واطــلاق يد جوردون فانه تمَ وضع الزبير فى منزل الضيافة ورصدت الحكومة كل حركة من حركاته(٣٦) حيث رفضت الحكومة المصرية الســماح لضـــيفها المخلص بالعودة الى بلاده التى حقق فيها انتصاراته وفتوحه(٤) .

الدور الذى لعبه الزبير فى الحرب الروسية التركية :

(سنة ١٨٧٧ م ـــ سنة ١٢٩٤ هـ) :

اندلعت الحرب بين روســــــيا والدولة العثمانية فى سنة ١٨٧٧ م . وعين ضمن ضباط الحملة التى عهد اليها الامير حسن

باشا بأمر قيادتها . واسند الى الزبير قيادة وحدة خاصة من الجيش مكونة من اربعة آلاف رجل . وقد أبلى الزبير باشا بفرقته بلاء حسنا فى هذه الحرب وكان بفرقته دوما فى طليعة المهاجمين وكثيرا ما أوقعت الهزيمة فى صفوة الجيوش الروسية(٦) .

ولما نشـــبت معركة مدينة صارى(٧) ظهرت بطولة وقوة شـــكيمته فى القتال وقد كاد الزبير أن يفقد حياته مرتين فى ذلك اليوم . وقد انتهت المعركة بانتصار الجيش العثمانى . وقد اثنى عليه الامير حسن باشا وقال له وهو يشد على يده مصافحا « لم اكن اصدق كل ما كان يقال عن شجاعتك ودهائك فى القتال فى ربوع الســـودان ، ولكنني بعد أن رأيتك بالأمس وانت كلما سقط من تحتك جواد تستبدل به غيره ثم تمضى متقدما الصفوف . آمنت بأن ما يقال عنك انما هو فى الواقع شىء قليل بالقياس لما أنت عليه »(٨) .

ساءت حالة الزبير الصحية بعد ذلك ووقع فريسة للمرض ورأت القيادة اعفاءه من التقدم فارسل فى حراســـة فصيلة من الاتراك الى الآستانة حيث انزلوه فى أحد المستشفيات للعلاج ، وبعد أن تماثل للشفاء دعى لمقابلة السلطان عبد الحميد ، وكان قد وصله اخبار حسن بلائه فى معركة صارى نصوحلر ، فرحب به وانعم عليه برتبة الفريق الرفيعة وبالنيشان العثماني الثالث ثم سأله عن احواله وعما قام به فى الســـــودان ، ثم أمر ياوره بالسهر على راحته مدة اقامته بالآستانة حيث اقام فى أحد القصور المطلة على البسفور وبعد تمام شفائه عاد الى القاهرة ، فماود الخديو تهنئته ثم نزل فى قصر الجيزة(٩) .

وقد قيل ان الزبير حاول الدسيسة ضد مصر والخديو لدى بعض الشخصيات البارزة فى القسطنطينية ولكنه لم ينجح وذلك

فى أثناء اقامته فيها(١٠) . وهذا ما لم تثبته المصادر التاريخية . اذ كيف يصدر كل هذا من رجل استقبلته القاهرة أحسن استقبال ووفرت له أسباب العيش الكريم ، وأنعمت عليه ومن معه بالرتب والنياشين يضاف الى ذلك انها وثقت به ووكلت اليه قيادة احدى فرقها المشتركة فى الحملة التى أرسلتها لمساعدة الدولة العثمانية . كما أن الفترة التى قضاها الزبير فى القسطنطينية كان فيها طريح الفراش نتيجة ما أصابه بسبب ما بذله من جهد أثناء الحرب ، فكيف بعد كل هذا يحاول الدسيسة ضد الخديو ورجاله لدى القسطنطينية ؟ ثم ما هى الفائدة التى سوف تعود عليه من جراء قيامه بهذا العمل ؟(١١) .

وهكذا يواصل الحانقون على الزبير الوشاية به حتى بعد أن تم ابعاده عن السودان وتخليه كليا عن جميع مصالحه وأملاكه من مشارع وتجارة وخلافه . ولكن الزبير بشخصيته وصراحته استطاع أن يرد كيد هؤلاء دون أن يظفروا بأية نتيجة من وراء وشاياتهم .

ثورة سليمان الزبير ومقتله على يد جسى :

(سنة ١٨٧٩ م ـــ سنة ١٢٩٦ هـ)

عاد الزبير الى مصر من الآستانة بعد انتهاء مهمته التى كلف بها ضمن الحملة المصرية فى الحرب الروسية التركية . وكان يمنى نفسه بالعودة الى بلاده ، ولكنه لم ينجح فى ذلك للمرة الثانية . وفى سنة ١٨٧٩ م الموافق سنة ١٢٩٦ هـ وافاه خبر مصرع ابنه سليمان على يد روملو جسى بأوامر من جوردون متهما اياه بالتمرد والعصيان وكان سليمان من أحب ابنائه اليه واقربهم الى نفسه وأيقن الزبير أنه أصبح الأسير الذى لا ينفك أسره وأنه سيبقى حبيس القاهرة لأجل غير معلوم(١٢) .

وكان سليمان بعد ان غادر أبوه السودان في طريقه الى مصر ، قد خرج على راس اربعة آلاف مقاتل متجها الى شكا ؛ فاقام بها الى أن حضر جوردون الى دارفور ، فارسل اليه امرا بمقابلته مع جيشه في دارفور ، فصدع سليمان للأمر واجتمع بجوردون في اغسطس سنة ١٨٧٧ م الموافق شعبان سنة ١٢٩٤ هـ ، وقد افهم السعيد بك حسين(١٣) جوردون بأن سليمان ينوى القيام بالثورة ضد الحكومة انتقاما لأسر الحكومة لأبيه ، وكان جوردون قد عين السعيد بك حسين هذا مديرا على شكا ، بعد ذلك رأى جوردون أن من الأسلم تفريق جيش سليمان فاصدر اوامره بذلك لسليمان ، فصدع لها . وقد زاره جوردون في شهر سبتمبر من نفس العام وطيب خاطره وانعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك ، وجعله مديرا على بحر الغزال ، ولكنه لم يلبث أن عزله وعين مكانه ادريس ابتر(١٤) الذى وصف سليمان لدى جوردون ، بأنه يعمل على الاستقلال ببحر الغزال ، فارسل جوردون ابراهيم فوزى باشا(١٥) للتحقيق معه في هذا الأمر ، وادين ادريس ابتر في هذا التحقيق وزج به جوردون في سجن الخرطوم جزاء له على اثارة الفتنة في اقليم بحر الغزال(١٦) .

بدأت ثورة سليمان الزبير تأخذ صورتها الجديدة ، نتيجة الوشايات والمكائد التى حيكت ضده من جانب كل من السعيد بك حسين وادريس ابتر دون مبرر لذلك وكان ذلك في سنة ١٨٧٨ م الموافق سنة ١٢٩٥ هـ ، فهاجم سليمان على راس قواته زريبة ديم ادريس وقام بذبح جميع افراد الحامية بها ، واستولى على ما في المخازن الحكومية من مدافع واسلحة وذخائر ، كما انه نزع سلاح جميع الاهالى ، ثم اخضع بعد ذلك جميع اقاليم بحر الغزال الواسعة بنفوذه وسيطرته ، واعلن استقلاله ، فارسل له جوردون احد قواده ، وهو رومولو جسى الايطالى بعد أن عينه مديرا على

بحر الغزال بدلا من سليمان ، على راس حملة قوامها سبعة آلاف وخمسمائة رجل(١٧) ، وقد استطاعت هذه الحملة أن تشتت شمل قوات سليمان في كل من بحر الغزال ودارفور .

بلغ الزبير نبأ عصيان ابنه عن طريق احد اتباعه في السودان، فكتب اليه رسالة ينصحه فيها بالرجوع عن عصيان الحكومة ، والدخول في طاعتها والامتثال لاوامرها لانه يخشى مغبة غضبها عليه وانه لا قبل له بمحاربتها ، وانه ان يمتثل لاوامر جوردون فقد امن على نفسه وقواته(١٨) .

كذلك كتب جسي لسليمان كتابا لنفس الهدف معطيا له الامان على حياته ان هو سلم نفسه ورجاله ، ولكن رابح الزبير لم يلق بكلام جسي وانسحب مع بقية الجند الى جهة الغرب حتى وصلوا الى بحيرة تشاد ، وبالرغم من الوعد الذى اعطاه جسي لسليمان بالحفاظ على حياته هو ورجاله فان جسي لم يف بما وعده(١٩) .

وفي ١٤ يوليو ١٨٧٩ م الموافق ٦ شعبان سنة ١٢٤٧ هـ توجه سليمان ومعه ثمانية من اقاربه لتسليم انفسهم لجسي ، فلم يلبث ان دعاهم جسي في اليوم التالى لتسليمهم ليشربوا معه اقداح القهوة في خيمته ، بعدها كان مصيرهم الاعدام رميا بالرصاص ، وبعد مدة اقبل قناوى بك ابو عمورى وهو صديق قديم للزبير ، فقام بتكفينهم وواراهم قبرا صغيرا(٢٠) .

وكتب جسي لجوردون بعد ذلك يقول « لقد اضطررت لقتل سليمان الزبير بعد تسليمه لانه حاول أن يؤلب على رجالى وان يثير الفتنة في صفوف الجيش(٢١) .

ويقال ان الحكومة المصرية أبرقت لجوردون لكي يرسل سليمان الى القاهرة ، ولكن جوردون علق على ذلك بقوله : « سامنع جسي

الف جنيه اذا نجح في القبض على ابن الزبير وآمل ان يشنقه لانه لو أرسل الى القاهرة لرحبوا به »(٢٢) .

الأحداث التي اعقبت مقتل سليمان بن الزبير :

تعرض الزبير وهو في مصر لحملة خسارية من الافتراءات من جانب جوردون واتباعه بعد مصرع ابنه سليمان ، رغم استسلامه لجسي طبقا لاوامر الحكومة وجوردون ، ونصيحة والده له . وكان الهدف من هذه الحملة هو الصاق تهمة تحريض الزبير لابنه على الثورة بحجة احتجازه في القاهرة ، وزعزعة مكانته لدى الخديو اسماعيل باشا ، ومصادرة أمواله وممتلكاته في السودان ، وتجريده من كافة الامتيازات التي كان يتمتع بها هو وحاشيته في مصر ، والقضاء على كل اثر له او نفوذ في بلاد السودان . ولم يكتفوا بذلك بل انهم عملوا على محو تاريخ الزبير وأعماله المجيدة في بلاده . قام جوردون بمصادرة اموال الزبير في السودان محتجا بانه كتب الى ابنه سليمان من مصر يحرضه على الثورة . وفي الواقع لا توجد وثيقة تثبت ما قاله جوردون ، ولكن العكس هو الصحيح وهو وجود ما يثبت قيام الزبير بتوجيه النصح والارشاد لابنه بالاستسلام للحكومة واطاعة اوامرها وذلك في رسالة بعث له بها . وسوف تثبت الأحداث فيما بعد صدق هذه الحقيقة حينما تقابل الزبير مع جوردون بالقاهرة ، وطالبه امام الحاضرين بأن يظهر لهم الرسالة التي ادعى كذبا ان الزبير ارسلها لابنه سليمان ، فلم يستطع جوردون الاجابة على سؤال الزبير بل التزم الصمت ، ويكفي للدلالة على براءة الزبير من هذه التهمة الموجهة له ما ذكرناه من حقائق مضافا اليها الآتي :

أولا : كيف يقوم الزبير بتحريض ابنه على الثورة وهو يعلم جيدا النتائج المترتبة على هذا العصيان الذى سوف ينتهى بالقضاء عليه من قبل قوات الحكومة ؟

ثانيا : كيف يقوم الزبير بتحريض ابنه على الثورة وهو يعلم أن معظم اتباعه قد تخلوا عن تأييده بل يزيد على ذلك انهم اصبحوا أعداء له يحيكون له المكائد والوشايات لدى جوردون وجسى من أمثال ادريس أبتر والسعيد بك حسين ؟

ثالثا : هل من مصلحة الزبير وهو فى القاهرة أن يقوم بتحريض ابنه سليمان على الثورة ضد الحكومة ، دون أن يدرك نتائج هذا التحريض وغضب الحكومة عليه وما يترتب على ذلك من انزال اشد العقوبة به وبذويه فى مصر والسودان ، ومصادرة ما بقى له من ممتلكات واموال ؟

رابعا : كيف تبادر الى ذهن جوردون قيام الزبير بهذا العمل بعد ان فتحت له حكومة الخديو صدرها ورحبت به وباتباعه وعملت على تلبية جميع طلباته وانزلته منزل الراحة ، ووثقت به ووكلت اليه قيادة احدى فرقها المشتركة فى الحرب الروسية التركية ، وانعام السلطان العثمانى عليه بالرتب والنياشين لحسن بلائه فى الحرب ، فهل تكون النهاية ان يخون هذا الرجل الحكومة بعد كل ما قدمته له والاجابة المنطقية والحقيقية هى التى ينطق بها التاريخ وتدلل عليها الوثائق .

وتتسع دائرة المؤامرة التى حاكها جوردون واتباعه ضـــد الزبير وابنه سليمان ، فنراه بعد أن صادر أموال الزبير فى السودان يحتج بأن الزبير قد كتب لابنه سليمان من مصر يحرضـــه على الثورة لأن الحكومة قد احتجزته فى القاهرة ، وبهذا المعنى ارسل برقية الى الخديو يخبره فيها بأنه بعد ما تأكد من عصيان ابن

الزبير ومهاجمته لمديرية بحر الغزال وقيامه بالاستيلاء على أسلحة الميرى وقتل الأفراد ، فانه بناء على هذه الوقائع يطلب صدور الأمر بالقبض على الزبير ووضعه في الحديد ، وحفظ جميع نقوده وأمتعته وهي زيادة عن خمســة آلاف جنيه مع الأذن لجوردون نفسه ببيع جميع أمتعته الموجودة بالسودان وتوريد ثمنها للحكومة ، كذلك القبض على عائلته واقاربه ووضعهم في السجن(٢٣) .

وقد احتج الزبير على هذا الأمر ، فكان رد الخديو على تلغراف جوردون « بألا يؤخذ الأب بجناية الابن »(٢٤) .

وقد اخطأ جوردون حين اشـتط في العقوبات التي وقعها على النساء والأطفال من أهل الزبير دون ســبب لذلك . وعلى العمــوم فقد أتى جوردون بحكم بربرى في وقت جاء فيه لينهى الأحكام البربرية وذلك من خلال علاقته بالزبير وابنه سليمان وفي هذه الفترة كانت آراؤه عنهم صدى لأقوال الواشين ، ولم يتحقق من صدق ما قيل أو كذبه . ومع أن جوردون نجح في عدم تمكين سـليمان من الاتحاد مع هارون كما كان يتوقع فانه بطريق غير مباشر جمع بين رغبة أعوانهما في القضاء على الحكم القائم في البلاد ، وترك قبائل غرب السودان وأبناء الجلابة الذين نزحوا من النيل بغرض التجارة هناك متفقين على كراهيــة الحكومة والسعي لاسقاطها متى توافرت لهم الوسائل وتهيأت الأسباب(٢٥) .

رفض الزبير باشا الاشتراك في حملة سواكن(٢٦) :

اتجهت الأنظار الى الزبير وتردد اسمه بين الحين والحين عقب الثورة التي قام بها محمد أحمد المهدى ، والتي انتهت باستيلائه هو واتباعه على مقاليد الحكم في السودان ومصرع جوردون على يد أنصاره بالخرطوم .

وفي سنة ١٨٨٣ م الموافق سنة ١٣٠١ هـ قررت الحكومة المصرية بعد هزيمة حملة الجنرال هيكس ، ارســــال قوات من بلوكات النظام بقيادة سار توربوس باشا الى سواكن ، وقوات من السودانيين بقيادة الزبير ، على أن توضع القوتان تحت قيادة الجنرال بيكر ، ارضاء للحكومة الانجليزية ، وكان هدف الحملة تخليص سواكن من يد عثمان دقنة(٢٧) ، ولفتح الطــريق ما بين سواكن وبربر ثم ما بين بربر والخرطوم . وقد فتش الخــــديو شخصيا القوات السودانية قبل سفرها ، ولكنها سافرت وحدها دون ان يصحبها الزبير . وكان رجال تلك القوة قد طالبوا بدفع مرتباتهم قبل سفرهم ، فقام الزبير بطلب مبلغ ٦٠٠٠ جنيه لصرف مرتبات رجاله ، فاتهمته وزارة الحربية بعدم اطاعة الاوامر وامرته بالسفر فورا(٢٨) .

وكان الاتجاه ان يصحب الزبير باشا هذا الآلاي وفعلا توجه الى الســــــويس للابحار منها غير انه علم قبل قيام الحملة بانه سيكون تحت قيادة بيكر باشا ، فابى هذا واشترط لاشتراكه فى الحملة ان يذهب مستقلا فى قيادته دون الخضوع لأية أوامر غير التى تصدر له من القاهرة مباشرة ، ولما رفضت الحكومة طلبه هذا تخلف وقفل عائدا الى القاهرة . وان كان كرومر قد اشار الى ان العدول من ارسال الزبير باشا الى سواكن كان استجابة لضغط الجمعية التى انشئت لمقاومة تجارة الرقيق على الحكومة الانجليزية(٢٩) . وليس لرفض الزبير كما ذكر .

وبناء على طلب الحكومة المصرية قام اللورد كرومر بمخاطبة الحكومة الانجليزية فى رسالة بعث بها فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م الموافق ٨ صفر سنة ١٣٠١ هـ أوضح فيها ما يأتى :

أولا : رغبة الحكومة المصرية فى ارسال الزبير باشا الى بسواكن مع الحملة لعلمها بقدرته على قيادة فصائل البدو السودانية

المرسلة الى سواكن ، وقيامه بمقاومة القبائل القاطنة على طريق سواكن بربر وبقية الجهات الاخرى ، وحاجة بيكر باشا الى مثل هذه الخدمة .

ثانيا : نتيجة لتحمل الحكومة المصرية وحدها تبعات تطورات الموقف في السودان ، فليس من الانصاف ان تعترض الحكومة الانجليزية على طلب الحكومة المصرية بندب الزبير الى هذه المهمة رغم ما يحيط بشخصية الزبير لديها بالكثير من الاخطاء(٣٠) .

وقد تلقى اللورد جرانفيل هذه الرسالة فلم ينجح كل ما جاء فيها من الحجج في اقناعه بالموافقة على اقتراح الحكومة المصرية باشتراك الزبير في الحملة . وقد وصفت مسز سارتوريوس(٣١) نتائج عدم اشتراك الزبير نتيجة عدم موافقة الحكومة الانجليزية بقولها : « وجاء عدم اشتراك الزبير باشا في الحملة ضربة جديدة قاصمة قضت عليها بالفشل مذ اللحظة الأولى ، فقد كان السود من الجند في حاجة أن يتولى قيادتهم طبقا لطريقتهم الخاصة في الحرب اذ لم يكن لديهم اى فكرة عن التدريب وقواعد التنظيم ، وكان الوقت ضيقا بحيث لا يسمح باعادة وضعهم في تشكيلات منظمة . ولو وجد الزبير باشا على راسهم لاستطاع بهم القيام بمجهود رائع ضد السودانيين ولحاربهم بنفس الطريقة التى يتبعونها اما بدونه فقد بدت هذه القوات السودانية ضائعة مبددة »(٣٢) .

وكانت التعليمات المعطاة للجنرال بيكر تحرم عليه القيام بعمليات حربية ، ولكنه خرج من ترنكتات(٣٣) في يوم ٤ فبراير سنة ١٨٨٣ م على رأس جيش قوامه ٣٦٠٠ جندى ومعه ستة مدافع . وكان جنوده غير مدربين ، واستخدم تشكيلات لا تتمشى مع طبيعة الارض ، وانتهى الأمر بهزيمة نكراء ، فقد فيها معظم

رجاله وأسلحته ، خصوصا أن معظم المصريين قد رفضوا اطاعة الأوامر لاطلاق النيران على السودانيين ، بل لقد انضم عدد منهم الى قوات الثوار في اثناء المعركة نفسها . وعاد بيكر الى سواكن ليجدها بحالة من الثورة العارمة ، وكان ذلك بسبب وجود القوات السودانية ولذلك فان الاميرالية أمرت بانزال فرق من مشـــاة الاسطول في سواكن ، وعملت على ارسال بعض الوحدات المصرية الى السويس ، والوحدات السودانية الى مصوع . ثم اجتمع مجلس الوزراء البريطاني وقرر ارسال قوات بريطانية الى البحر الأحمر وذلك لانقاذ طوكر . وصدرت الأوامر برقيا الى القائد العام لقوات الاحتلال البريطانية في مصر بارسال قوات للدفاع عن سواكن ، تحت قيادة الجنرال جراهام . وقد وصلت الى سواكن ما بين ١٩ و ٢٠ فبراير في نفس الوقت الذي وصل فيه جوردون الى الخرطوم(٢٤) .

فشلت اذن حملة سواكن بدون اشتراك الزبير فيها وموافقة شروطه كما كان متوقعا .

الزبير وجوردون وحوادث الاخلاء :

عينت الحكومة الخديوية الكولونيل جوردون في منصب الحاكم العام للأقاليم السودانية في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ م ، ومنحته لقب باشا بعد أن أوصى بذلك فيفان القنصل العام البريطاني في القاهرة . وكانت هذه هي أول مرة يشغل فيها احد الأوربيين هذا المنصب العام ، فكان عليه أن يشرف من الخرطوم على أراضي تمتد شمالا لمسافة الف ميل ، وجنوبا لمسافة ١٥٠٠ ميل ، وشرقا لمسافة ٤٠٠ ميل حتى سواحل البحر الاحمر ، وغربا لمســافة ٧٥٠ ميلا الى آخر حدود دارفور . واظهر جوردون انه يخـــدم المصالح البريطانية اكثر من خدمة مصالح مصر(٢٥) .

وقد بدأ جوردون في تنفيذ الكثير من المهام التي كلفه بها الخديو منذ يوم وصوله الى الخرطوم في ٤ مايو سنة ١٨٧٧ م الموافق ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٩٤ هـ . وكان ضمن المهام التي كلف بها العمل على القضاء على تجارة الرقيق ، وقد نجح في ذلك الى حد ما في يوليو سنة ١٨٧٩ م الموافق ٩ رجب سنة ١٢٩٦ هـ ثم اعقب ذلك قيام ثورات منها ثورة سليمان الزبير(٣٦) التي نجح جوردون في القضاء عليها بواسطة صديقه رومولو جسي وكان جوردون قد عاد في اثناء هذه الفترة الى القاهرة سنة ١٨٧٨ م لانهاء بعض الأمور الخاصة به(٣٧) .

واخيرا استدعى جوردون من السودان في يونيه سنة ١٨٧٩ م . ولكن بعد ان تحرجت الأمور في السودان . وقد اثبتت الحوادث صدق حكم شابيه لونج الأمريكي بقوله « لقد وجد جوردون السودان في سلام ورفاهية وتركه في سنة ١٨٧٩ م وهو ينوء بالثورة »(٣٨) .

يضاف لأسباب استدعاء جوردون من السودان عزل الخديو اسماعيل صديقه الحميم وتولى ابنه توفيق الحكم ، علاوة على أن الحكومة الجديدة اتهمت جوردون بالتهاون في جمع الضرائب، وأمام هذا لم يسعه الا أن يقدم استقالته فقبلت منه وعاد بعدها الى انجلترا ، ولم تلبث الحكومة المصرية أن عينت من بعده رؤوف باشا(٣٩) حكمدارا للسودان ، الذي قدر له أن يكون آخر الحكمداريين في العهد المصري قبل شبوب الثورة المهدية(٤٠) .

وكان الزبير حتى شبوب هذه الثورة مازال محبوسا في القاهرة وكان آخر ما اتصل به هو رفضه الاشتراك في حملة سواكن ، ثم خلافاته ومنازعاته مع جوردون عقب مقتل ابنه سليمان ، وكانت

الثورة المهدية فى تلك الأثناء تنمو شيئا فشيئا وتنتشر فى سرعة حتى عمت جميع أرجاء السودان المصرى ، ولم تفلح الجهود التى بذلت فى سبيل القضاء على بذور هذه الثورة أو الحد من انتشارها ، فى تلك الآونة بدأ تفكير الحكومة الانجليزية فى الضغط على الحكومة المصرية من أجل اخلاء السودان ولكن الحكومة المصرية لم تكن تحبذ هذا الرأى ، بل كانت تريد اعادة محاولة اخضاع السودان ، ولكنها فى نفس الوقت لم تكن تملك الاداة التى تمكنهامن تنفيذ اغراضها ، فجيشها الحديث لم يكن الا اداة بوليسية تحت قيادة بريطانية لحفظ الأمن داخل البلاد ولم تيأس الحكومة المصرية فى ايجاد حلول اخرى للمشكلة غير الاخلاء ، الا أنها جميعا قوبلت بالرفض التام واقامة العراقيل أمامها من جانب الحكومة البريطانية(٤١) .

وكانت سياسة الحكومة البريطانية حتى هذا الوقت هى عدم التدخل فى الشئون المصرية ، والدليل على ذلك أن اللورد دفرين اقترح منذ شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ م ارسال جوردون لاعادة الأمن والنظام الى السودان ، ولكن لم يؤخذ بهذا الاقتراح ، لأن الحكومة المصرية عارضت فى استخدام جوردون للمرة الثانية ، ولكن الموقف لم يلبث أن تغير بعد هزيمة حملة هيكس فى موقعة شيكان ، وانباء الهزائم التى وصلت القاهرة والتى حدثت فى السودان الشرقى . فكان من اثر هذه الأخبار ان جعلت السير ايفلين بارنج يتحول فى الفترة ما بين ٩ و ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م من سياسة عدم التدخل التى ظل حتى هذا الوقت يشير بها على حكومته ويبذل قصارى جهده فى تأييدها ، الى سياسة التدخل . فبعث ببرقية الى حكومته يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م لطلب تعليمات اكثر تحديدا تخوله أن يفرض على الوزراء المصريين اتباع سياسة معينة بشأن السودان ، وهى سياسة التخلى عن

كل الاراضى الواقعة الى الجنوب من وادى حلفا والتى ترتب عليها فى النهاية ازاء هذا الضغط الصريح من انجلترا ، أن قدم شريف باشا استقالة وزارته فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ م ، وتألفت وزارة نوبار باشا فى العاشر من يناير سنة ١٨٨٤ م ، وعلى ذلك أبرق جرانفيل مرة أخرى الى بارنج فى نفس التاريخ يسأله اذا كان استخدام جوردون فى السودان ممكنا ، وللمرة الثانية أجاب بارنج أنه بعد التشاور مع نوبار لا يعتقد ان من الممكن استخدام جوردون أو السير تشارلس ولسون فى الوقت الحاضر ، ولكن بارنج الذى استعان بقليل من الضغط على المسئولين فى القاهرة استطاع أن يبرق الى جرانفيل فى ١٦ يناير سنة ١٨٨٤ م أن جوردون خير من يمكن استخدامه فى السودان ، وجاء هذا الضغط الذى استعان به بارنج نتيجة لموافقة المستر جلادستون نفسه منذ ١٤ يناير سنة ١٨٨٤ م على اقتراح وزير خارجيته جرانفيل ، باستخدام شيء من الضغط على بارنج حتى يقبل هذا ذهاب جوردون الى السودان اذ أبدى أن فى وسعه بفضل نفوذه الشخصى مع القبائل ان يجعل هؤلاء يحرسون حامية وسكان الخرطوم فى طريق انسحابهم منها الى سواكن(٤٢) .

وكان أول أمر لوزارة نوبار باشا هو اخلاء السودان وهو يحمل تاريخ تأليفها ، وصدر مرسوم فى الخامس عشر من نفس الشهر بأن يتبع السودان وزارة الحربية بعد أن كان يتبع رئاسة مجلس الوزراء . وفى ٢٤ يناير من نفس الشهر قرر مجلس الوزراء البريطانى أن يعهد الى الجنرال جوردون بمهمة اخلاء السودان ، وصدرت الاوامر لجوردون بالتوجه الى القاهرة لتسلم الأوامر الخاصة بمهمته من الخديو شخصيا ، فوصل الى القاهرة فى السادس والعشرين من يناير من نفس السنة ، وقبل جوردون الحاكم السابق القيام بهذه المهمة برغم معارضة السير

ايفلين بارنج القنصل البريطاني في مصـــر . اذ كان يراه رجلاً متردداً ضيق الأفق ، وقصير النظر ، وكان من الغريب أن يعهد الى رجل مسيحي متعصب ليتولى انقاذ جيش مسلم من داعية مسلم يتبعه انصار مسلمون ، ومن هنا بدت مسئولية الحكومة البريطانية في النتيجة التي انتهى اليها مصير هذا الرجل وقد فوتح جوردون في هذا الأمر فقبل دون تردد كي يكون هذا الأمر شفيعاً له لتحسين معاشه وكان قبول جوردون على اساس أن يذهب الى السودان ليختبر الحالة ويكتب تقريراً عما يراه(٤٣) .

اما الحكومة الانجليزية فقد ســـلمت اليه خطاباً بالتعليمات اللازمة وملخص ما جاء فيها :

اولا : تقديم تقرير عن الحالة العسكرية في الســـودان والوســـائل التي يجب اتخاذها لضـــمان حياة الجالية المصرية والاوربية .

ثانيا : ضمان امن وادارة موانيء البحر الاحمـــر التي هي تحت سيادة الحكومة المصرية .

ثالثا : توضيح الوسائل الفعالة التي يجب اتخاذها لردع الحركة الثورية وجلاء القوات المصرية بحيث لا ينجم عن ذلك ما يعزز تجارة الرقيق .

رابعا : ان يأخذ تعليماته من السير ايفلين بارنج ويعتبر نفسه كوكيل ومفوض لاتمام اية مامورية تكلفه بها الحكومة المصرية ، وان يصحب معه الكولونيل ستيوارت ليساعده في هذه المامورية .

خامسا : ان يتصل فور وصوله لمصر بالسير ايفلين بارنج الذي سوف يقرر ذهابه الى سواكن أو ارسال الكولونيل ستيوارت الى الخرطوم أو التوجه بنفسه(٤٤) .

وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٨٤ م بينما جوردون في طريقه الى مصر تلقي اللورد كرومر (بارنج) برقية من اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية يخبره فيها بأن يتخذ الحيطة لمراقبة الزبير لمنع اتصاله سرا بالسودان . ولم تكف العيون عن مراقبة الزبير بعد ذلك فعلا(٥٤) .

وقد كان جوردون مايزال عند رأيه في أن الزبير هو العنصر الخطر على الثورة في السودان ، وقد يزيد من اذكائها ، وقد يهب ليتعاون مع المهدي . وعندما وصلت السفينة المقلة لجوردون الى بورسعيد جاءه رسول يحمل له خطابا يطلب منه الحضور فورا الى القاهرة . ولما كانت هذه أوامر بارنج فلم يكن جوردون ليستطيع الرفض ، فاستقل قطارا خاصـــا بمفرده ، وبعد عدة ساعات كان جوردون مع القنصل العام ، ولم يكن الرجلان قد تقابلا منذ سبع سنوات ، وكانت الأحداث التي تلت ذلك غريبة جدا فكان على الرجلين أولا مقابلة الخديو توفيق ، وتمت المقابلة وأعتذر جوردون عما بدر منه من انتقاد للخديو وبالتالي تم تثبيته في وظيفته كحاكم عام . ثم بعد ذلك كان عليهما تحديد مهام وظيفته ، وكان هذا هو الوقت المناسب لاخلاء الحاميات من السودان والا تعذر اخراجها بعد ذلك . وقد كان لابد من ايجاد نوع من الحكم هناك . ولم يكن احياء المشياخات القديمة ونظام زعماء القبائل كافيا وكان لابد من ايجاد شخص يملك من الســـلطة ما يمكنها توحيد هذه المشياخات والقضاء في وحدة فيدرالية . وتقدم جوردون باقتراح أذهل الجميع لماذا لا يكون الزبير هو ذلك الرجل ! . وكتب جوردون الى السير ايفيلين بارنج يبلغه فيه بشعوره بأن تعاون الزبير معه سوف يحسم موضوع السودان لصـــالح جلالة الملكة والحكومة المصرية وأقترح تنظيم لقاء بين السر ايفيلن بارنج ونوبار باشا رئيس الوزراء ويكون هو معهم والزبير ، ولـــكن بارنج قال

أنه لا يثق فى تلك الأدلة القائمة على الشعور الدينى ومع ذلك فلم يعارض بارنج اختيار الزبير فقد كان الرجل اقدر من يستطيع ادارة شئون السودان(٦٦) .

وحين وصل جوردون الى القاهرة فى سنة ١٨٨٤ م كان الزبير يعيش فى رغد كفله له مرتبه الكبير ، ورغم انه كان محتجزا فى القاهرة ، فانه لم تفرض عليه اية قيود فى حياته تمس حريته رغم سطوته ، وكان يكره جوردون من كل قلبه ويحمله مسئولية مقتل ابنه . وقد تصرف جوردون كأنه لا يرغب فى شىء سوى رغبته فى ضم الزبير تحت لوائه ، لا لسبب الا لان هذا الباشا الاسود كان اكبر تاجر عرفه التاريخ واعتبر الورد جرانفيل والســــير ايفيلين بارنج تأييد جوردون للزبير دليلا على عدم توازن شخصية جوردون . وكتب وزير الخارجية للقنصل العام يقول له : « ان خطابات جوردون تثير قلقى ، فتغيره نحو الزبير لا استطيع أن افهم كنهه » ولكن جوردون كان يعرف ما يريده ، فقدم الى بارنج فى صباح ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤م انذارا مكتوبا عرض فيه للحوادث التى ادت الى طرد الزبير من السودان ويؤيد ثقته فى قدرته على إدارة حكومة السودان ، والقضاء على ثورة المهدى باجتذاب اتباعه لانهم كانوا أصلا تابعة لدى الزبير ، وكذلك عظمته وبطولته فى القتال ، وانه اى جوردون مستعد لتحمل مسئولية الاعتماد على الزبير لأنه مقتنع بذلك . هذا الانذار لا يخلو من الحكمة والعقل ، وهو يوضح ان جوردون كان انسانا واقعيا يبحث عن النتائج ، فهو يعلم عيوب الزبير ، ويدرك العداء الشخصى الذى يكنه له هذا الزعيم العجوز ، ومع ذلك حاول اكتساب تأييد الزبير ، ذلك ان قدرة وشجاعة الباشا الحزين لمقتل ابنه هو ما يحتاج اليه لضمان الجلاء من السودان والسيطرة على تجارة الرقيق « الامانة هى

أحسن سـسـياسة » وقد قرر جوردون أن الزبير سـسيتبع هذا المبدأ(٤٧) .

لقد بقيت مسالة اخرى تحتاج الى تفكير ،اذ انه لم يكن هناك اسر قوية يستطيع افرادها ان يتقلدوا السلطة اللازمة فى دنقلة أو كسلا او الخرطوم ، اى المناطق التى تكون قلب السودان بعد سحب القوات المصرية منها . وكان حكم الثوار راسخ القدم فى دارفور ، ولم يكن من المستطاع تطبيق سياسة اعادة الأسر القديمة الى مناطق السودان الا فى دارفور . أما فى الخرطوم وهى مفتاح السودان فكان جوردون شـديد الرغبة فى عدم أرجاء اعادتها الى ادارة الباشـاوات المصريين ، وكان يتردد بين التنازل عنها ، أو بمعنى أصح اعادتها الى تركيا ، واقامة نظـام حماية بريطانية شديد المرونة عليها . ولم يكن فى استطاعته أن يحسـم هذه الافكار الا بعد وصوله للخرطوم ،ولكنها كانت تشغله بدون شك وهو لا يزال فى القاهرة . وعلى أى حال فقد فكر منذ وجوده فى القاهرة فى انه يحتاج الى رجل يحل محله بعد اتمام الاخلاء ، وذلك لكي يتولى السلطة بأى شكل ، فكان من الضرورى أن يجد رجلا « له اسم ونفوذ يفرضانه على الأهالى » وكان من نتيجة ذلك أن طالب جوردون بتعيين الزبير باشا لكي يعاونه فى مهمته .

هذا على الرغم من أن الزبير لا ينسى لجوردون قتله لابنه حينما كان حاكما عاما فى الخرطوم . وكان الزبير رحمة من اصـل شريف وينتسب الى العباسيين وقد تمكن بشـجاعته ومقدرته وكرمه وثروته من أن يصبح من رجال السودان المعدودين . وأراد جوردون أن يستفيد من وجود الزبير معه لا لعملية سحب القوات المصرية من السـودان بالذات ، ولكن لاقامة نوع من الحكومة المحلية فى الخرطوم تحت رئاسته ، وتخضع لسيطرة البريطانيين ،

فأعلن ان السودان محتاج الى هذا الزعيم السوداني قبل احتياجه اليه هو الجندي الانجليزي ، وذكر أن الزبير هو الرجل الوحيد الذي يستطيع نفوذه أن يعادل نفوذالمهدي ، ويجعل الزعماء السودانيين المنتمين اليه يهجرونه ، وهو الرجل البعيد الذي تستطيع انجلترا ان تحاول استغلال تدخله للوصول الى تسوية لشئون السودان(٤٨) .

اجتماع الزبير وجوردون في القاهرة :

في ٢٥ يناير سنة ١٨٨٤ م تم اللقاء بين الزبير وجوردون في منزل السير ايفيلين بارنج وكان يشغل منصب المعتمد البريطاني في مصر(٤٩) . وبحضور كل من السير ايفلين وود وجيرالد بورتال والماجور الاونورابل متنيج ستيورات ورتلي والكولونيل واطسون وجيجلر باشا(٥٠) ، وقد كان الموقف عصيبا بالنسبة لهم جميعا ، فقدكان جوردون هو المسئول عن اعدام سليمان الزبير لذلك رفض الزبير مصافحته . وكتب بارنج يصف الموقف بانه كان مثيرا للغاية، وكان الزبير باشا وجوردون منفعلين الى درجة كبيرة ويتحدثان بعصبية واضحة ، وانكر الزبير انه هو الذي حرض سليمان على الثورة ولكن جوردون أعلن أن لديه الدليل على ذلك وهو الخطاب الذي اخذه من جسي بعد قتله(٥١) .

وفي هذه الاثناء طلب الزبير من جوردون بأن يقدم هذه الوثيقة، فأرسل الى وزارة الحربية المصرية لطلب احضار اجراءات المحكمة العسكرية وعند عرضها وجدت باختامها منذ سنة ١٨٧٩ م أي أنها لم تفض أختامها لخمس سنوات وبالبحث لم يعثر على الوثيقة التي اشار اليها جوردون حينئذ قال جوردون ان الامر كان مأساة وأن العدل انحرف عن مجراه وانني سوف أعمل ما يمكن لترضية الزبير(٥٢)

ولم ينس الزبير طلب جوردون الملح بسجنه هو ومصادرة أملاكه وسجن اقاربه ، واخيرا المطالبة بمحاكمته على انه قد أوعز لابنه بالثورة ولولا معارضة الخديو آنذاك لاعدم جوردون الزبير. ولقد فعل جوردون ذلك وهو يعتقد ان ابن الزبير فتى طائش انساق الى الثورة بتحريض من والده وكلاهما خرج على الحكومة فكلاهما يستحق الاعدام . وجرت معاتبات بين الاثنين اصر فيها جوردون على موقفه وما اقتنع الزبير فيها بحجة ، وبالرغم من ذلك يصر جوردون فى مرافقة الزبير له ، وبالرغم من اخطائه وعدم خضوعه يتوسم فيه السودانى الوحيد الذى يساعد فى حل المواقف فى السودان . لاحظ الحاضرون لبارنج ونوبار الهوة السحيقة بين الرجلين وانهما ان سمحا للزبير بمرافقة جوردون فربما يحدث منه ما يعرقل خطط جوردون بدلا من معونته واحتياطا لهذا الاحتمال رفض بارنج ما طلبه جوردون(٥٣) .

وعقب هذه المقـــابلة التى تمت بين جوردون والزبير كتب جوردون مذكرة الى بارنج يلح فيها على اصطحاب الزبير باشا معه للسودان ويقول : « اذا كانت المهمة المطلوبة هى إخلاء السودان باسرع وقت مع المحافظة على سلامة المواطنين المصريين فلأداء هذه المهمة وحدها لا أرانى فى حاجة الى الزبير . اما اذا كان على بالاضافة الى ما تقدم ان اترك ورائى فى السودان تسوية مرضية للأمور فان وجود الزبير معى يصـــبح عندئذ بندا مهما لا غناء عنه »(٥٤) . وهكذا رأى نفسه يتلقى الرفض فى اول مطالبه ، وقد قيل له انه سيلقى التعضـــيد والمعونة الكافيين من بارنج والحكومة المصرية(٥٥) .

والحق ان هذا الاقتراح وهو الاستعانة بالزبير كان الوحيد الذى كان يمكن ان يحطم الثورة ، فالزبير سودانى كالمهدى ، وليس غريبا وله العقلية التى تستطيع ان تؤثر فى السودانيين اكثر من

مقلية المصـــريين والبريطانيين كما ان شـــخصيته لها ماض فى السودان ، وله انصار من بين تجار الرقيق الذين كانوا يكونون نواة انصار المهدى ، فكان هو الشـــــخص الذى يستطيع ان يجتذب السودانيين اليه ، فيشطر انصار المهدى ، ولكن يبدو ان الحكومة البريطانية لم يكن يعنيها فى كثير او قليل تحطيم الثورة ، فأوعزت الى كل من الجرائد وجمعيات مقاومة تجار الرقيق بمهاجمة الفكرة . وقد منحت الحكومة له اعتمادا ضخما وزودته بمرسومين احدهما بتنصيبه حاكما عاما مفوضا على السودان ، والأمر الآخر يتضمن الغرض الذى ندب له(٥٦) وتركت له حرية التصرف وهذه هى هفوة أخرى نسجلها على الحكومة المصرية ، فما كان لها أن تفعل معه ذلك وهو الرجل العسكرى الذى لا يعرف الا الطاعة العمياء لمرءوسيه ولم يكن صاحب رأى خاص ولا صـــــاحب تصـــرف شخصى . ونرى دليل ذلك فيما كتبه ستيوارت(٥٧) الى بارنج فيقول : أن جوردون فى حالة عصـــــبية قلقة يبدو عليه عدم الاستقرار وذلك من خلال البرقيات والخطابات التى يكتبها الى بارنج وغيره أينما ذهب ودون أن يتدبر ما فعله . ما برح جوردون القاهرة ليقوم بعملية الاخلاء دون أن تكون معه قوة تمكنه من حماية الانسحاب مع أن من المعروف أن الانسحاب دائما اصعب من الهجوم(٥٨) .

اصطحب جوردون معه عند سفره الى الخرطوم الكولونيل ستيوارت الذى سبق أن زار السودان مستطلعا ، وابراهيم فوزى ياوره الخاص ، والأمير عبد الشكور ، أحد اقرباء سلطان دارفور السابق الذى أراد جوردون ان يمنحه حكم هذه المديرية لكى يعمل على تخليصها من أيدى الثوار واخيرا كان الجنرال السير جيرالد جراهام أحد أصدقائه المخلصين قد ســـافر معه حتى كرسكو ، واعطى لنا صورة رؤية عن جوردون الذى كان شديد الاعتداد

بنفسه وواثقا من انه سيرتب كل الأمور في مدى ستة أشهر . وكان الأمير عبد الشكور يعيش في القاهرة ، فاستدعته الحكومة الخديوية واعطته كسوة مزركشة وطلبت منه مصاحبة جوردون الى السودان لاحتلال دارفور ، ودفعت له ...ز٢ جنيه . وكانت رحلته جزءا من سياسة اعادة الأسر الحاكمة القديمة الى السودان والاسر التي تستطيع ان تحتفظ بنوع من الولاء للخديو ولحماته الجدد البريطانيين . ولكن جوردون كان يحتقر عبد الشكور فكان غير مهذب معه على ظهر الباخرة .. مما اضطره الى النزول في اسوان واعلان عزمه على عدم متابعة السفر ، ولكنه سافر حتى دنقلة حيث انتظر بضعة اشهر ثم عاد مع أسرته الى القاهرة(٥٩).

وعندما كانوا يودعونه في محطة القاهرة حاول بارنج تخفيف ما لقيه جوردون من صدمة بخصوص رفض ارسال الزبير معه ووعده بالنظر في ذلك مرة اخرى فيما لو أصر على الزبير حين وصوله الخرطوم ورأى لزوم أرساله وعلى هذه الحالة النفسية قام القطار به في رحلته النهائية يوم ٢٦ يناير ١٨٨٤ م التي ما عاد بعدها بل كانت آخر سفرياته . ومن غرائب المصادفات أنه لقي حتفه في يوم ٢٦ يناير من السنة التالية وهي سنة ١٨٨٥ م(٦٠) .

اقتراح جوردون باعادة استخدام الزبير في السودان :

بعد أسابيع قليلة من وصول جوردون للخرطوم وقعت حوادث سياسية مهمة تتصل بمهمته في السودان ومن ثم فقد أعاد جوردون اقتراحه بتعيين الزبير باشا حاكما للسودان بوصفه نائبا عن الحكومة المصرية(٦١) .

وقد كان جوردون يهدف من وراء اقتراحه هذا ، تعـويض الزبير باشا عما فقده من ملك في دارفور وبحر الغزال ومن ابنه سليمان ، ومن ناحية اخرى كان يعتقد أن الزبير باشا هو السوداني الوحيد الذي يستطيع أن يحكم البلاد ويقاوم المهدى ، ثم انه كان يرى أن الزبير مؤمن بالوحدة بين السودان ومصر وانه سيظل أمينا لهذه العقيدة ، وكان جوردون يرى كذلك ان الزبير رجل كفء عسكريا واداريا وانه سـوف ينفذ القرار الخاص بمنع تجارة الرقيق(٦٢) .

في هذا الوقت كانت حاجة الحكومة المصرية قد اشتدت الى ايجاد حل مناسب لاخلاء الفرق المصرية في السودان. لذلك فقد رأى مستشار الخديو . ورأت السلطات البريطانية في القاهرة أن العلاج الحاسم في الرجل الذى سلبوه حريته وصادروا ممتلكاته وقتلوا ولده ، وكان هذا الرجل بالنسبة للحكومة المصرية ذا اهمية بالغة ، وكانت هذه الفكرة معضدة من جانب كل من كان على علم ودراية ومعرفة بالاحوال الداخلية ، فبعد أسبوع واحد رفض السير ايفلين بارنج الاقتراحات التى عرضـها جوردون مكتوبة من جانبه شخصيا(٦٣) وتردده هو وستيوارت في اول الامر بخصوص مسألة استصواب ارسال الزبير . وجدنا أن الاثنين سرعان ما انحازا لرأى جوردون ووقف الاثنان معا يطلبان بالحاح بل عن اقتناع بأن الاخلاء لا يتم دون اقامة حكومة قوية وأن الرجل الوحيد الذى يستطيع تسيير الدفة هو الزبير والزبير وحده(٦٤) .

وقد أجاب بارنج بأن الزبير رجل ذو نشـاط عظيم وعزم وتصميم . وقد أخذت الحكومة في الاعتبار أن خدمات الزبير ربما تكون ذات نفع ، ومن المؤكد أن الحكومة المصرية كان لديها الحرية

فى أن يكون الزبير وكيلا لها وان يرسل مستقبلا الى السودان كسلطان عليها يساعده فى ذلك جيوشه وامواله لكى يكون راسا مناهضا ضد المهدى . وكان من المحتمل فى هذه الفترة بالذات ان يسكت المهدى قبل ان يناهضه رجل كان له من الشهرة ما يعادل شهرة المهدى نفسه ، وكان لديه من الامدادات ما تجعله أكثر عظمة وقوة من التى يمتلكها المهدى . وقد كان طبيعيا الا تستصوب الوزارة البريطانية التفاوض أو التدخل من جانب هذا الرجل وهو الزبير(٦٥) .

كانت الحكومة الانجليزية التى كانت تحت رحمة الراى العام العام لا تستطيع أن توافق على راى كهذا فهى أن وافقت أصبحت ملزمة بالاشراف على النظام الجديد وهذا معناه تحمل مسئولية الحكم فى السودان . وفوق هذا ربما اتهمها الراى العام بالتفريط فى التقاليد الانجليزية ، وتقاليد الحرية والقضاء على الرق ، وما عرف الراى العام البريطانى عن الزبير سوى انه أكبر نخاس أنجبته افريقيا ، واخيرا خضعت الوزارة البريطانية لراى عام نشرته الجرائد ضد الزبير . بل ان احد النواب فى المعارضة ووزيرا سابقا القى فى مجلس العموم خطبة فياضة تحدث فيها باسهاب عن السمعة التى تصيب بريطانيا فى الصميم فيما لو اقدمت على ارسال الزبير وتمضيده(٦٦) .

أما بالنسبة لجوردون فانه عقب رحيله من القاهرة الى الخرطوم لم يمهل نفسه وقتا لدراسة الموقف على الطبيعة ، بل بدأ فى أرسال سيل من البرقيات المتضمنة اقتراحاته وآرائه المختلفة حول المسالة الخاصة باتمام اخلاء السودان ، وانتداب الزبير لهذه المهمة وموضوعات كثيرة مختلفة كانت تتراءى له من حين لآخر فيضمنها برقية ويبعث بها الى القاهرة . وفى أول

فبراير سنة ١٨٨٤ م ارسل برقية الى القاهرة تتضمن ما يأتي :
« ان مشكلة المشاكل هي معرفة كيف ولمن نترك ترسانات الخرطوم ودنقلة وكسلا ، ومعلوم انه لا توجد اسر عريقة في هذه المدن وان الخرطوم وكسلا مدينتان حديثتان لان بداية انشائهما ترجع الى ايام الفتح في عهد محمد علي(٦٧) .

وفي الثامن من نفس الشهر سنة ١٨٨٤ م كتب جوردون الى السير ايفيلين بارنج من بلدة ابي حمد برقية تتضمن ابلاغه بثبات مركز حكومة القاهرة في السودان ، وجزع السكان من مسالة انفصالهم عن مصر انفصالا كليا واقتراحه بأن يكون الانسحاب جزئيا وليس الهجرة من السودان كله ، وتغيير فرمان تعيينه بالنص على الرقابة الادبية والسيادة الاسمية لمصر على السودان(٦٨) .

وفي اول فبراير سنة ١٨٨٤ م وصل خطاب الى السير ايفيلين بارنج من ستيورات وهو في كرسكو جاء فيه : « لايزال جوردون متشبثا بالزبير ، ويقول انه يشعر بعطف عليه حتى انه قد يطالب فجأة بارساله الى السودان فلو حدث هذا اعتقد انك لن تسمح للزبير بمغادرة القاهرة الا لاسباب قوية جدا ، انى مقتنع بأن مجيئه تجربة خطيرة ، ويحتمل الا يظفر بالنفوذ المنسوب اليه وخصوصا ان جنوده المعروفين بالبازنقر لم يعد لهم وجود » .
وفي ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م ابرق جوردون للمرة الثانية وهو في بلدة ابي حمد الى اللورد كرومر يشرح له فيه ان الزبير وحده هو الذي يصلح لان يكون حاكما عاما على السودان ولا اعتراض له على وجودنا معه . كما رجاه ان تراه زوجته اللادي بارنج . وهكذا لا يبقى شك في ان جوردون بعد اقترابه من الخرطوم ووقوفه على حقيقة احوال السودان لم يفقد كثيرا من تفاؤله السابق فقط ،

بل ان عطفه على اهالى البلاد جعله ينسى الغرض الرئيسى من المهمة التى ندب خصيصا لانجازها . وبعد شهور قليلة نرى نفس الرجل الذى يصر على النص فى التعليمات المسلمة له على عدم تغيير سياسة الجلاء من السودان باى حال من الاحوال يكتب فى أوراقه قائلا : « انى امقت حكومة جلالة الملكة من جراء فكرة الجلاء من السودان بعد أن كانت السبب فى جميع متاعب هذه البلاد »(٦٩) .

ولعل أول تنبيه لبارنج على مدى تبدل وتغير آراء جوردون هو خطاب ستيورات الذى أرسله الى السير ايفيلين بارنج بالقاهرة من بربر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٨٤ م وقد أوضح به مدى تخبط جوردون وخلطه بين عطفه المتدفق على السكان من جراء عملية الجلاء وقيامه بتنفيذ خطة الجلاء نفسها وهى فى نظر ستيورات افضل الحلول لجميع الاطراف وكان جوردون قد وصل الى بربر فى الحادى عشر من فبراير(٧٠) .

وعقب وصوله الخرطوم مباشرة أبرق مرة أخرى الى القاهرة فى ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م يتحدث عن الفوضى التى ستعم البلاد بعد اتمام عملية الجلاء لجميع المصريين عنها ، ومسئولية الحكومة فى ادارة البلاد بعد اتمام عملية الجلاء وهو يقترح تجنبا لهذه الفوضى أن يعين مسئول يتولى ادارة البلاد بالشروط التى سيسردها وأن تؤيده الحكومة البريطانية تأييدا أدبيا دون منحه مالا او رجالا . وقد رشح لهذا المنصب الزبير باشا تأكيدا لما سبق بقوله « واعنى به الزبير ، فهو وحده الذى يستطيع حكم السودان ويرضى عنه السودانيون ويمكن منحه بعض الهدايا » أما الشروط فهى :

أولا : الا تمتد سلطته الى الاقاليم الجنوبية وخصوصا منطقة بحر الغزال .

ثانيا : الا تمتد سلطته الى دارفور :

ثالثا : يوالى اشعار الحكومة المصرية بارتفاع مناسيب مياه النيل . نظير مائتي جنيه سنويا .

رابعا : أن يظل فى حالة سلمية مع اثيوبيا .

خامسا : أن يفرض ضرائب لا تزيد على ٤٪ على الصادرات او الواردات .

سادسا : الا يحاول الانتقام من اى شخص اشترك فى سحق ثورة ابنه .

سابعا : أن يقوم بدفع المعاشات التى كانت تعهدت بها الحكومة المصرية لموظفيها القدامى .

وفى نهاية هذه البرقية اوضح أن احتجاز الزبير لمدة عشرة اعوام فى القاهرة واختلاطه بالاوربيين لابد ان يكون قد احدث تاثيرا شديدا فى اخلاقه . كما أن تعيينه يكفل عودة جميع التجار الأوربيين وغيرهم الى السودان ، وقد طلب من ستيورات ابداء رأيه مستقلا تحاشيا لابداء وجهة نظر واحدة(٧١) .

وفى نفس الوقت وصلت الى السير ايفيلين بارنج برقية من ستيورات جاء فيها : « بمناسبة برقية جوردون المرسلة لكم اليوم، أعتقد أن السياسة التى يلح فى اتباعها ، تساعد على تسهيل مهمة انسحابنا الى حد كبير ، ولكننى اعتقد فيما يتعلق بالزبير باشا ان معلوماتنا القليلة عن السودان ، لن تمكننا من تكوين اى راى الآن ، ومع ذلك يحتمل ان اى رجل يتم تعيينه يكون مقبولا لفترة ما »(٧٢) .

وقد ظهر بادىء ذى بدء أن جوردون وضع اقتراحه عن

الاقتناع بالزبير بغير روية كافية أثناء وجوده بالقاهرة ، فلمسا وجد بارنج أنه مازال على عقيدته بعد انصرام ثلاثة أسابيع ، توافرت له خلالها فرصة دراسة الموقف في الخرطوم ولاح له أنه محق في افتراض انه لا يعبر عن راى مدروس ، ولا يتخذ كما حدث مرارا براى ظهسر اللحظتسه ، ولذلك عول كرومر على تاييده الى المدى الذي يحقق الاقتناع بالزبير اقتناعا كليا ، ولو أنه كان واضحا من الناحية الاخرى ان من المجازفة بمكان السماح لهما بأن يقيما في الخرطوم معا . ولكن لما كان ســـــتيورات زميل جوردون الحذر المتشكك في حكمته بشأن استخدام الزبير ، وكان كرومر من جهته عظيم الثقة في حكم ستيورات على الأشياء ، فقد رغب في افساح الوقت له كطلبه ، ليتمكن من تكوين رأيه . وقد بعث اللورد كرومر بنص هاتين البرقيتين الى اللورد جرانفيل يوم ١٩ فبراير ســــنة ١٨٨٤ م واضاف اليهما الملاحظات الآتية :

اولا : تاييده لفكرة جوردون في تعيين الزبير بالسودان مع الشهادة بكفاءته ونشاطه ونفوذه العظيم داخل البلاد .

ثانيا : عدم تأثر تجارة الرقيق بوجود الزبير من عدمه .

ثالثا : اقتناعه بفكرة تأثر الزبير خلال فترة وجوده في مصر باخلاق الأوربيين وادراكه لقوة اوربا .

رابعا : عدم تاييد فكرة الجمع بين الزبير وجوردون في الخرطوم او وضعه تحت سيطرته بل يعتقد أن واجب جوردون يقتصر على اعداد وسائل انسحاب الحامية لباقي العناصر المصرية .

خامسا : ان يصدر الأمر بتعيينه حاكما عاما على السودان بمصادقة حكومة جلالة الملكة ، ويقترن ذلك بالنص على اعتماده على موارده الخاصة للمحافظة على مركزه وأن يحصل على مبلغ

مناصب من المال من الحكومة المصرية ليبدأ به عمله . وأن يلقى ما يسمى بالمساعدة الادبية التى لن يفهمها .

سادسا : اقتراحه بان تكون اتصالاته بالحكومة المصرية عن طريق ممثل الحكومة البريطانية فى مصر ، وعدم اعتقاده فى جد الشروط التى وضعها جوردون لتعيينه .

سابعا : عدم تاكده من قبول الزبير لهذا المنصب المقترح من عدمه(٧٣) .

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٤م اجاب اللورد جرانفيل على برقية اللورد كرومر برفضه لفكرة تعيين الزبير رفضا مطلقا ، نظرا لعدم موافقة الرأى العام البريطانى على ذلك ووجود اعتراضات شديدة لفكرة تعيين الزبير خلفا لجوردون(٧٤) .

وفى وقت وصول هذه البرقية تلقى الورد كرومر مذكرة من جوردون حررها ببلدة أبى حمد فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٤م ورغم اختلافها بعض الشىء عن مقترحاته فى البرقية المؤرخة فى ١٨ فبراير ، فانها مكنت اللورد كرومر من تفهم الخطوط الرئيســـية لخطته التى يريد انتهاجها(٧٥) .

وبادر كرومر الى ابلاغ جوردون نص برقية جرانفيل المؤرخة فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٤م مضيفا اليها ملاحظاته التى تتلخص فى اختلاف آراء جوردون فى برقيته المؤرخة فى ١٨ فبراير عن آرائه الواردة فى برقيته المؤرخة فى ٨ فبراير ، وطلب من جوردون اقتراح اسماء اخرى جديدة غير الزبير لتولى ادارة شئون البلاد حتى جنوبى وادى حلفا او ادارة الحكم فى الخرطوم نفسها نظرا لوجود اعتراضات ضد الزبير فى انجلترا(٧٦) .

وقد عول كرومر على تأجيل اتصاله بجرانفيل ريثما يتلقى رد جوردون ، فجاءه هذا الرد فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م الذى أوضح فيه عدم استطاعة اقتراح رجل آخر غير الزبير وسهولة تنفيذ عملية الجلاء نفسها ، وصعوبة تأمين مصر ، وتحطيم المهدى بعد أن يستولى على الخرطوم . الا انه اقترح لتحطيم المهدى أن يرسل للزبير الف جنيه أخرى ، ومائتى جندى هندى الى وادى حلفا ، وضباط الى دنقلة للتظاهر بأن فى الامكان النزول بها ، وبين كيفية تحطيم المهدى فى الوقت الحاضر بسهولة(٧٧) .

ويذكر د . ابراهيم انه لا يدرى ان كانت فكرة استخدام الزبير باشا فى حد ذاتها وجيهة ام لا . لا شك أنه كان لبقا ويعرف السودان معرفة طيبة ، ولكن كيف يقاوم هذا الرجل دعوة دينية كدعوة المهدى ؟ حقا كان فى استطاعة الزبير ان يجمع حوله شيوخا وامراء وبعض الاتباع ، وانما كان لا يستطيع الصمود أمام الآلاف المؤلفة من اتباع المهدى ، الذين كانوا يستشهدون بالموت فى سبيله . وعلى كل فمسألة استدعاء الزبير تبين أن جوردون لم يكن متنبها كل التنبه لحقيقة الثورة المهدية(٧٨) .

وفى ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م وهو تاريخ وصول برقية جوردون كان قد مضى تسعة وثلاثون يوما على سفره من القاهرة ، وثمانية أيام على وصوله الخرطوم وفى غضون هذه المدة بصرف النظر عن ذكر آرائه الكثيرة المتناقضة اختط لنفسه لا اقل من خمس خطط ، تعارض بعضها مع البعض الآخر تعارضا كليا بينما لا يتفق ما بقى منها مع بعضه فى النواحى التى لها أهمية عظمى بنوع خاص ، فقد دفعه تيار هذه المراحل خلال هذه المدة من فكرة الحكومة فى وضع تقارير عن شئون السودان الى تحبيذ سياسة تحطيم المهدى ، ومن أقواله فى هذا الصدد أن تحطيمه أمر سهل

ميسور . ولزيادة ايضاح صعوبة الموقف بعث اللورد نورثبروك(٧٩) برسالة الى اللورد كرومر مؤرخة فى ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٤م تضمنت وصفا مفصلا لمدى صعوبة الموقف آنذاك وشذوذ جوردون وسرعة تقلب آرائه ، وقد سردها فى سبع نقاط وجميعها متناقضة واشتمل بقية الخطاب على الكثير من الاسئلة حول اضفاء الثقة على الزبير ، ومعاداة الزبير للمهدى والكثير من الاسئلة حول الزبير ، وفى نهاية خطابه يقترح لتحطيم المهدى من اجل سلامة مصر هو اطلاق مسلمين على مسلمين يحمل تركيا على القيام من اجل الاتراك ضد العرب(٨٠) .

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤م ارسل السير ايفيلين بارنج الى جرانفيل مضمون برقية جوردون المؤرخة فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤م . واضاف اليها بعض الملاحظات المهمة حول اقتراحات جوردون المتضاربة لاتمام الانسحاب من السودان من عدم انشاء حكومة قبل الرحيل ، والآخر باقامة حكومة مستقرة تخلف الادارة المصرية فيها بعد الانسحاب . وقد أوضح فى ملاحظاته أن جوردون فى جانب الطريقة الثانية وانه اى (بارنج) متفق معه ويؤيد تجربتها ، وقد بين ايضا مدى الفوضى التى ستحدث نتيجة لرحيل جوردون ما لم تتخذ بعض الاجراءات سلفا لمنعها . وبخصوص مسألة الزبير وتعيينه خلفا لجوردون كتب السير ايفيلين بارنج فى ملاحظاته الى جرانفيل ما معناه انه أن لم ترغب الحكومة الانجليزية فى تحمل اية مسئولية ، كان من الواجب منح جوردون والحكومة الخديوية مطلق الحرية لعمل أصلح ما يريان عمله وهو تعيين الزبير خلفا لجوردون مع اعطائه قدرا من المال ليبدأ مهمته ، الى جانب هبة سنوية مقدارها خمسون الفا من الجنيهات يستمر دفعها لمدة خمسة اعوام ، وذلك لمعرفة مدى أمكان الاعتماد على حسن سلوكه . ويؤكد بارنج ان هذه الهبة ستمكنه من الاحتفاظ

بجيش متوسط الحجم بينما يكون التدبير باكمله أقتصاديا بالنسبة للحكومة المصرية ، وفى نهاية رسالته يؤكد على تزكية الزبير دون غيره خلفا لجوردون كما يؤيده فى ذلك نوبار باشا(٨١) .

وفى اول مارس سنة ١٨٨٤ م اجاب جرانفيل على رسالة بارنج بطلب المزيد من الايضاحات عن الضرورة الموجبة للتعجيل بتعيين خلف لجوردون الذى سستطول اقامته فى الخرطوم بعض الوقت لأن الحكومة ستضع رايه موضع الاعتبار عن الشخص اللائق للمنصب ، وهى ترى ضرورة الحصول على موافقة السلطان فى حالة التعيين . وقد بادر السير ايفيلين بارنج بارسال صورة هذه البرقية الى جوردون . وفى نفس الوقت كتب جرانفيل لبارنج كتابا خاصا أوضح فيه وجهة نظر الحكومة البريطانية ، ويؤكد ثقتها فيه بخصوص رايه وراى جوردون ونوبار فى تعيين الزبير خلفا لجوردون ، ولكن طلب منه الاجابة على مدى ضمانه فى ان المعونة الرسمية التى تحدد للزبير تكون رشوة كافية تحول دون رجوعه الى مزاولة عملياته السابقة المربحة ، او حتى عدم انحيازه للمهدى ، وكان جليا ان بارنج لا يستطيع اعطاء الضمان لجرانفيل(٧٢) .

وخلال الفترة من ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م الى اول مارس من نفس السنة ارسل جوردون سيلا من البرقيات الى السير ايفيلين بارنج وكلها تدور حول الاخلاء ، ومسسألة ايجاد حكومة مستقرة بعد الرحيل . وفى ٢ مارس ١٨٨٤ م أبرق السير ايفيلين بارنج الى جوردون بأنه يرغب فى مساعدته وتأييده لولا صعوبة ادراك ما يريده لذلك طلب منه أن يدرس مقترحاته بعناية ويبلغها له فى برقية واحدة ، حتى يستطيع اذا دعت الضرورة الحصول على تعليمات الحكومة . وفى نفس اليوم أبرق بارنج لستيورات .

يبلغه باقتناع جوردون بأن فرضه مساعدته بأقصى سرعة ، ولكن الذى يزيد متاعبه هو تناقض برقياته فى مســـــائل دقيقة تتعلق بالسياسة(٨٣) .

وقد أجابه ستيورات فى برقية أرسلها فى ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م يشاركه فيها شعوره نحو برقيات جوردون الكثيرة(٨٤) .

وقبل البرقية السابقة كان بارنج قد أرسل برقية خاصة الى جرانفيل يبلغه فيها أيضا بكثرة برقيات جوردون ، وبالتالى كثرة اقتراحاته ، وبصعوبة تبليغه هذه المقترحات جملة واحدة أو بطريقة متتابعة ، وطلب اعطاءه ثقة الحكومة البريطانية ، وسرعة البت فى مسألة الزبير ، فأجابه جرانفيل فى ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م بأنه يعطيه الثقة والسلطة التامة التى يطلبها على أن يوافيه فيما بعد بأسباب طلبه هذا(٨٥) .

وقد قام جوردون بالرد على برقية بارنج المؤرخة فى ٢ مارس سنة ١٨٨٤ م بعدة برقيات وهو يعيد فيها اصراره على ارسال الزبير للخرطوم شرطا لنجاحه فى مهمته لان الزبير ســــيدرك أن حصوله على المعونة المالية يتوقف على سلامته ، وقد علل جوردون ضعف مركزه لأنه شخص اجنبى مسيحى ، واخيرا يطلب من بارنج ان يسأل ستيورات بلا تردد عن أى موضوع يريده ليقف على رأيه مستقلا عن رأى جوردون شخصيا . وهو يطلب ضرورة فتح الطريق من بربر الى سواكن وارسال مائتى جندى بريطانى الى وادى حلفا بقصد ادخال الهيبة فى قلوب المهديين(٨٦) .

وفى نفس الوقت وصل بارنج برقية من ستيورات مؤرخة فى ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م تتضمن اتفاقه مع جوردون فى ضرورة استقدام الزبير سريعا لأنه يملك هيبة كافية لحكم السودان عقب

الجلاء لبعض الوقت على الاقل ، وسيكون خصماً للمهدى ، وبما انه باشا وسط طائفة من الشايقية غير القانونيين ، فانه سيتمكن من الوصول الى مصادر المعلومات الصحيحة . وسوف يقدم الزبير مساعدة كبيرة عند سحب حاميات سنار . وقد اشار ايضا فى برقيته الى اقتراحات جوردون الثانوية بخصوص تطهير طريق بربر سواكن وارسال قوة صغيرة من خيالة الهنود أو البريطانيين الى بربر وارسال قوة من الخيالة البريطانيين الى وادى حلفا لان هذه الاجراءات توحى بوجود قوات تحت إمرتهم (يقصـــــد جوردون وستيورات) تساعد كثيرا فى مفاوضاتهم مع الثوار ، وتعجيل تنفيذ الجلاء(٨٧) .

وحتى هذا الوقت كان بارنج يضغط على الحكومة البريطانية لتوافق على تعيين الزبير خلفا لجوردون فى الخرطوم واقتصــر اعتراضه على فكرة ارساله فى الحال وكانت حجته فى هذا مزدوجة الاولى خوفه على حياة جوردون من حقد الزبير الدفين والثانية ثقته فى حكم ستيورات على الاشياء اكثر من ثقته فى حكم جوردون عليها . فحتى يوم ٤ مارس ظل ستيورات مترددا فى استصواب تعيين الزبير ، ولكن برقيته السابقة جعلت بارنج يعيد النظر فى نوعياته التى قدمها اليه فى ذلك الوقت . فقد كان واضحا أن الحالة تزداد حرجا فى الخرطوم ، والقبائل بينها وبين بربر تتردد فى الانضمام الى الثوار أو الحكومة ، بينما تدفعه الظروف دفعا الى ذراعى المهدى ، كما كان جليا أنه اذا كان لابد من عمل شىء لانشاء جبهة معارضة للمهدى ، وجب عدم اضاعة الوقت . وكان جوردون بالغ بشدة فى ارسال الزبير فورا ويقول بالنسبة لسلامته الشخصية أن مصلحة الزبير دون أضراره به . ولم يلبث ستيورات أن انضم الى رأيه فصار يؤيد تعيين الزبير فورا(٨٨) .

وفى ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م ابلغ السير ايفيلين جرانفيل برقيتى جوردون المؤرختين فى ٢ و ٣ مارس سنة ١٨٨٤ م ، وبرقية ستيورات فى ٤ منه واضاف اليها بعض الملاحظات التى تتلخص فى ضرورة سرعة ارسال الزبير خلفا لجوردون لأن التأخير سوف يضر جوردون وستيورات والحاميات المصرية ، ويرى بارنج ضرورة الاجتماع بالزبير قبل اعطاء رأيه النهائى ولا فائدة من رايه اذا لم تقرر الحكومة ذهاب الزبير من عدمه الى السودان ويتعجل رد الحكومة على هذه النقطة . وكان السير ايفيلين بارنج يقصد حين ارسل هذه البرقيات ، أن يرى الزبير لتكوين رأى نهائى عن صواب ارساله أو عدم صوابه بعد الانصات الى كلامه وملاحظاته وانفعالاته . وكان سيقول له اذا اتت عملية الجلاء بنجاح ، ويخص بذلك اذا عاد جوردون وستيورات الى القاهرة بسلام فانه يعين حاكما عاما على السودان كله ، ويأخذ مائة الف جنيه اعانة سنوية من الحكومة المصرية مادام سلوكه مرضيا . وعلى العكس اذا ما اصابهما ضرر ، أو على العموم اذا اتبع فيما بعد سياسة عدائية ضد مصر ، فانه يثير ثائرة كل من الحكومتين المصرية والبريطانية ، حينئذ يكون مصيره الاعدام اذا وقع فى قبضة احدهما . ومع ذلك لم تكن هناك فائدة فى الدخول فى اية مفاوضات من هذا النوع ، حتى تمنحه (اى بارنج) الحكومة البريطانية حرية التصرف فى الأمر طبقا لأفضل ما يراه ، والذى يجب ملاحظته أن جوردون وستيورات الحا فى برقيتى ٣ و ٤ مارس فى استصواب فتح طريق بربر سواكن ، بينما اقترح ستيورات ارسال قوة من الخيالة البريطانية أو الهندية من سواكن الى بربر(٨٩) .

وقد كان جوردون لسوء حظه يبعث بتلغرافاته الى السير ايفيلين بارنج . وقد رأينا كيف كان ينصب نفسه لمعاكسته والنصح

للحكومة البريطانية بعدم الالتفات الى شيء من مطالبه حيال تلك التصريحات التي تقدم ذكرها عن الجناب الخديو أو سياسة الانجليز الذين تعهدوا بمساعدته ومعاونته فى سبيل العمل على نجاح مأموريته حتى ان نجاحه كان متوقفا على ارسال مائة جندي الى أسوان ووادى حلفا ، فلم ير السير بارنج لزوما للمخاطرة بهذه الكوكبة الصغيرة ، فهل بعد ذلك كله من حاجة الى برهان بان جوردون أرسل ليموت ويترك السودان الى الفوضى ! ومن تلغرافات السير ايفيلين بارنج الى جوردون بتاريخ ٢ مارس عبارته التي يقول فيها « انني شديد الرغبة فى مساعدتك بكل طريقة » ثم نراه ينصح حكومته بعدم ارسال المائة فارس الى اسوان ووادى حلفا لان ارسالهم قد يكون سببا فى ابعاد الخطر عن جوردون بعض الابعاد وقد كان قصد جوردون من ارسال هؤلاء الجنود ان تصل أخبارهم الى المهدى بغلو كثير حيث يظن أن جنودا قادمون لامداد جوردون ، فلا يجسر على التقدم عليه ومناجزته ولو عملت الحكومة الانجليزية براى جوردون وارسلت المائة فارس لكانت النتيجة حسنة ولم تسقط بربر فى أيد المهديين حيث بسقوطها أحدق الخطر بجوردون ، وانقطع أمله فى وصول نجدة عن طريق وادى حلفا أو سواكن لان بربر نقطة التقاء الطريقين(٨) .

فى ذلك الوقت كان الجنرال جراهام مرابطا فى سواكن وعلى أهبة التقدم نحو عثمان دقنة . كان هناك أمل فى أن حسين باشا خليفة الذى كان وقتئذ فى بربر ، قد يستطيع فى حالة انهزام عثمان فتح الطريق الى سواكن بدون مساعدة قوة بريطانية ، يضاف الى ذلك انه مادام هناك أمل فى ارسال الزبير الى الخرطوم ، وبالتالى حل المسألة السودانية بالطرق الدبلوماسية ، فان بارنج لم يكن مستعدا لتحمل تبعة الموافقة على ارسال قوة بريطانية الى السودان ، لذلك أبرق بارنج الى جرانفيل

فى ٤ مارس(٩١) بعدم موافقته على اقتراح ستيورات بشأن ارسال خيالة بريطانيين او هنود من سواكن الى بربر ، وفى ٥ مارس أبرق جسرانفيل الى بارنج(٩٢) بقوله : « أن الحكومة الانجليزية ترفض تغيير شعورها من الزبير الذى تكون نتيجة الأسباب التى سردها جوردون وستيورات فى مذكراتهما المحررة فى ٢٣ يناير سنة ١٨٨٤ م على ظهر السفينة تانجور فاذا لم يكن فى الامكان ازالة هذا الشعور ، فان الحكومة لا تستطيع تحمل مسئولية ارساله الى الخرطوم . وفى نهاية برقيته أراد ان يستفسر من بارنج كيف رتب اقتراحه بحيث جمله بين تعيين الزبير ومنع أو عدم تشجيع تجارة الرقيق وصيده ثم بينه وبين سياسة الجلاء التام بل توخى سلامة مصر ، واراد ان يستفسر عن مدى التقدم فى مسألة انقاذ الحاميات ، ومقدار المدة التى تمضى حسب تقديره قبل انسحابها كلها أو الجزء الاكبر منها ، وبما انها تحتاج الى بيانات مفصلة عن كل حامية على حدة . كما رجاه أن يدلى برأيه فى الاقتراح الخاص باستشارة الزعماء المحليين عن الحكومة المستقبلة للبلاد(٩٣) .

ويبدو أن حكومة جلالة الملكة كان غرضها أن يمهد جوردون السبيل لوقوع البلاد فى مخالب الفوضى ، ويقضى على نفوذ مصر فى تلك الارجاء . أما الخديو توفيق باشا فكان مقصده اعادة الأمن والسلام الى تلك الاقطار ثم أجبر على تحوير مقاصده بحيث يجعلها مقصورة على انقاذ المخلصين من رعاياه من الخطر المحدق بهم من الشرور التى كان متوقعا حدوثها من نتيجة مأمورية جوردون الذى ارسل ليموت حتى يتم غرض دولته . على أن جوردون لم يكن جاهلا بكنه تلك النية . ولهذا كان يرسل التلغرافات تترى ويدون المذكرات لا ليقنع قومه بالعدول من ذلك العزم ، بل ليجعل التاريخ

حكما بينه وبين قومه لاعتقاده ان تلغرافاته ومذكراته لابد أن تنشر على الجمور ويطلع عليها العالم اجمع وهم لابد أن يحكموا له لا عليه(٩٤) .

الفشـــل فى شـــان اســـتخدام الزبير :

فى هذا الوقت بدأ الشـــعور باليأس يتســـربه الى نفس السير ايفيلين بارنج بعد أن تلقى برقية اللورد جرانفيل السابقة الذكر ، فقد ظهر منها أن الحكومة لم تكن تعلم بطبيعة الحالة على حقيقتها فى الخرطوم ، ومن ثم صار مطلوبا من بارنج أن يوفق بين اقتراح تعيين الزبير ومنع أو عدم تشجيع تجارة الرقيق وصيده ، وكذلك بينه وبين السياسة التى ترمى الى الجلاء التام ، وكذلك ضمان سلامة مصر والى بقية ما جاء بالبرقية المشار اليها سابقا من مطالب ، وهى تكليفه بأن يرسل تقارير تفصيلية عن كل حامية على حدة مع أنه كان قد سبق أن ارسل مثل هذه التقارير من قبل ورغم أن كل لحظة من اللحظات التى كانت تمر فى هذا الحين كانت عظيمة القيمة . فان الحكومة لم تدرك ذلك بل يزيد على ذلك انها ظنت أن جوردون وستيورات ليسا أمام خطر عاجل ، رغم كثرة ما أرسل الى لندن من البرقيات التى شـــرحت فيها الحالة تفصيلا اكثر من مرة . وأن هناك فسحة من الوقت لبحث خطوط سير العمل مستقبلا فى السودان . والذى يعنينا من كل هذا أنه كان من بين الاهداف التى يرمى بارنج من تعيين الزبير من ورائها ، أن يتولى تسهيل عملية انقاذ الحاميات المحاصـــرة بمنع القبائل المترددة فى موقفها من الانحياز للمهدى واســـتمالتها لجـــانب الحكومة(٩٥) .

وكتب آلن مورهيد تيسيل « لم يكن بارنج ميالا للمغامرات ولكنه كان يرى ان الموقف قد تدهور للغاية وكان ضروريا الاحتفاظ

بولاء قبائل الشمال والا قطعوا الطريق بين القاهرة والخرطوم ، وذلك لأن شيوخ هذه القبائل كانوا من اتباع الزبير »(٩٦) .

واخيرا بعد ان وازن بارنج كل شيء بعناية انتهى الى أن خير ما يجب عمله هو معاودة السعى للانتفاع بخدمات الزبير . ورأى أن الطريقة المثلى لحمل الحكومة للاذعان لمطلبه ، تكليف جوردون بارسال خطابا تكتب اسبابه بعناية ردا على اعتراضات جرانفيل فى برقيته المؤرخة ٥ مارس سنة ١٨٨٤ م ، ولذلك ارسل اليه فحوى هذه البرقية واضاف اليها الملاحظات الآتية وتتلخص فى :

اولا : هل يمكن اختيار رجل آخر غير الزبير ؟ وهل حجج تعيينه كافية لتخفيف ثقل عيوبه ؟

ثانيا : النظر فى مسألة جمع الزعماء فى الخرطوم للاتفاق معهم على مستقبل البلاد .

كذلك ابدى بارنج لجوردون اهتمامه فى ضرورة النظر فى كيف يتفق اقتراحه عن تعيين الزبير واعانته ماليا ، مع سياسة الجلاء ، ومع فكرة منع أو عدم تشجيع اصطياد الرقيق وتجارتهم ، ومع توخى سلامة مصر ؟ والى أى مدى يمكن الوثوق فى بقاء الزبير مواليا لمصر ؟ كما انه اليس من الجائز أن يتفق الزبير مع المهدى عندما يصبح قويا فيكون مصدر خطر اكبر منه مصدر تعاون مع مصر ؟ كما ابلغه أن كثيرين يعتقدون حرص المهدى على ثورته . وفى نهاية ملاحظاته طلب منه ان يجيب على جرانفيل بالمفاضة عن الخطوات المتخذة لانقاذ الحاميات بما فيها حامية دارنور(٩٧) .

وفى ٨ مارس سنة ١٨٨٤ م وصل لبارنج برقية من جوردون(٩٨) ردا على برقيته السابقة ملخص ما جاء فيها فيما يتعلق بارسال الزبير الى السودان معناه ضمان الآتى :

أولا : اخراج الموظفين المصريين من الخرطوم .

ثانيا : انقاذ حاميتى سنار وكسلا .

ثالثا : التأثير على من حوله لعلمهم أنه سيقيم هناك اقامة مستمرة .

رابعا : عدم استطاعته التدخل فى مسألة تجارة الرقيق لأن معاهدة سنة ١٨٧٧ م متعذرة التنفيذ ، كما أن الجلاء عن بحر الغزال والمديريات الاستوائية سوف يمنعه منعا باتا ، كما أنه يمكن الضغط عليه فى سواكن التى ستبقى فى أيدى الانجليز .

خامسا : لن يكون لديه الفرصة للاتفاق مع المهدى .

أما فيما يتعلق بسلامة مصر فان اقامته بالقاهرة أظهرت له مبلغ قوتنا . أما فيما يتعلق بمدى التقدم فى انقاذ الحاميات ، فقد قام جوردون بترحيل الرجال المرضى والنساء وأطفال الذين قتلوا فى كردفان ، أما سنار فهى فى أمان تام ، وكسلا صامدة . وختم برقيته بقوله ان كان للمهدى فى السودان قوة البابا فسيكون للزبير قوة السلطان ، كما أن الزبير الذى يكره القبائل هو الذى ضاعف نيران الثورة على أمل اختياره هو لاطفائها ، ولعل يد القدر الحديدية هي التى تحقق له بغيته اذا ما أرسل الى هناك(٩٩) .

وكتب ونستون تشرشل يقول : « .. لقد كان جوردون على حق عندما قال بأن الزبير باشا هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يكلف بهذه المهمة ، فنوبار باشا كان يعطف عليه كذلك الدكتور بوهند روف الرحالة الذى كان يؤكد ويثبت ما قاله الجنرال جوردون من تأثير الزبير باشا »(١٠٠) .

وفى نفس الوقت وصلت السير ايفيلين بارنج برقيات أخرى من جوردون تظهر ازدياد خطر المواصلات بين بربر والخرطوم .

وقد أضاف جوردون العبارة الآتية فى احدى برقياته هذه بقوله :
« .. وبالنسبة للخرطوم نفسها ليس هناك خطر عليها .. » ،
وفى ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م نقل بارنج الى جرانفيل برقية جوردون المطولة السابقة الذكر والمؤرخة فى ٨ مارس واضـــــــاف اليها :
« .. أن ارسال الزبير الى الخرطوم مع منحه اعانة مالية لا يتعارض مع سياسة الجلاء ، كما انه لن يؤثر فى مسالة تجارة الرقيق بأى ناحية من نواحيها ، اما خطر معاداته لمصر فهو خطر ضئيل يمكن احتماله.، ولا يمكن احتمال الاضرار المحققة التى تنتج من وراء الانسحاب بدون اعداد ما يلزم لحكم السودان فى المستقبل ويقع بعد ذلك تحت حكم المهدى»(١٠١) .

وقد كان من الممكن حينذاك أن ينتصر السير ايفيلين بارنج بعد هذا فقد قال جلادستون انه على استعداد لتجريب حظه مع الزبير رغم أن ذلك سيؤدى الى ان يسحب مجلس العموم ثقته منه ، واعطت الملكة فكتوريا موافقتها ولكن اعضاء مجلس الوزراء كانوا فى رعب من هذا القرار ، كما انه لم يكن من الممكن ان يفضل الراى العام فى انجلترا فكرة جوردون بتعيين الزبير حاكما للسودان ، فقد كان ذلك من شانه أن يسقط اى وزارة ، وكانت هذه المسالة تعادل قرار اباحة الدعارة فى انجلترا . ورغم ذلك فقـد كان من الممكن ان يوافق الراى العام على تعيين الزبير لو شرحت له أسباب ذلك . وكانت المراسلات التى جرت بخصوص الزبير حتى ذلك الوقت سرية ، ولكنه لم يكن عسيرا التقدم بهذا الاقتراح عن طريق الصحافة ومجلس العموم . وقد اختار جوردون هذه اللحظة لهدم سياسـة الحظر والمثابرة التى انتهجها بارنج ، ففى لحظة غضب بسبب تأخير طلبه بالسماح له بالمزيد من السلطة، وضــــع امام مراســـل جريدة التايمز وامام المجلس البريطانى فى الخرطوم كل المناقشات التى دارت حول مسالة تعيين الزبير(١٠٢) .

واما ما يتصل بالسير ايفيلين بارنج بخصوص هذا الموضوع فقد حدثنا تفصيلا عنه بقوله : « .. انه حدث عندئذ حدث قضى فعلا على كل امل فى الانتفاع بخدمات الزبير ، فحتى تلك اللحظة لم يكن اقتراح ارساله معروفا للناس ، وكان مستر باور مراسلا خصوصيا لجريدة التايمز فى الخرطوم . ففى ٨ أو ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ارسل له مورلى الذى كان مراسلا لتلك الجريدة للقطر المصرى برقية مرسلة له من مستر باور لتحويلها الى الجريدة بلندن ، وفيها يبين أن جوردون اعطاه جميع المعلومات الخاصة بمحتويات برقياته وعقب ذلك وصل بارنج خطاب من ستيورات تاريخه ٨ مارس عن تفصيلات هذا الموضوع مضيفا أنه ضمن هذه البرقيات برقية تتضمن استقالته اذا كانت اقتراحاته لن تنفذ ، كما تضايق من ستيورات لأنه لم يبلغ بارنج بارسال الزبير مع قوة بريطانية الى بربر ، فابلغه بان الصعوبة ليست فى القاهرة بل فى لندن(١٠٣) .

وكتب جوردون فى أوراقه بان بارنج اتهمه باذاعة سر البرقيات المتبادلة والخاصة بتعيين الزبير فى السودان ، وقد صرح بانه تعمد ذلك لينقذ حكومة جلالة الملكة من الغضب الذى تتعرض له من وراء هذه الخطوة . وقد نتج عن اذاعة جوردون هذا السر زوبعة من الاحتجاجات على تعيين الزبير ، ليس فى انجلترا فحسب بل كان سببا فى زيادة الصعوبات الخاصة بمفاوضة الزبير نفسه بعد أن كان بارنج فى موقف يمكنه من طلب الزبير باشا ، وافهامه بانه كان غارقا حتى ذلك الوقت فى سحابة دكناء حجبت سيرته ، وأن الفرصة سنحت لاستعادة اعتباره وخبرته ، وأصبح هو فى مركز يتيح له املا شروطه على بارنج ، والواقع أنه تلقى النصح فى القاهرة بفعل ذلك ، من أولئك الكثيرين الذين كانوا ينتظرون اية فرصة تمكنه من اظهار عداوته لانجلترا وهذا ما قاله بارنج(١٠٤) .

أما بالنسبة للأمر الذى احدثه افتضاح هذا السر فقد أرسل المستر سيبرج رئيس جمعية محاربة الرق الى اللورد جرانفيل فى ١٨ مارس سنة ١٨٨٤ م بأنه مكلف من قبل الجمعية التى انعقدت بكامل هيئتها لابلاغكم ان اى وضع تضع فيه الحكومة هذا الشخص وهو الزبير يكون تحقيرا لانجلترا وفضيحة لأوربا ولكن هذا التصرف من هذه الجمعية ، كان عملا غير حكيم ، فلاشك ان هذه المعارضة الى جانب الحقيقة التى تدل على أن المسألة استغلت حزبيا فى انجلترا ، تسببت فى رفض آراء كل من بارنج وجوردون وستيورات(١٠٥) .

وقبل أن تعرض برقية جرانفيل ردا على برقية بارنج المؤرخة فى ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ، يجب أن نشير للمكاتبات والبرقيات التى طارت بين جوردون وبارنج فى ٩ و ١٠ و ١١ مارس سنة ١٨٨٤ م ، ففى ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ابرق جوردون لبارنج مخبرا اياه بأنه سينتظر رأيه بشأن الزبير ، فاذا كانت الأسلاك البرقية مقطوعة فسيعتبر سكوته موافقة على اقتراحه ، ويبقى فى الخرطوم منتظرا الزبير والاستعراض البريطانى فى بربر ، وقد كان لايزال هناك بعض الامل فى أن يسمح بالانتفاع بالزبير ، ولكن بالنظر الى احتمال اضطراب المواصلات البرقية مع الخرطوم فى أية لحظة ، لم يكن عدلا ولا لائقا أن يدع بارنج الأمل يداعب جوردون ، بأن الحكومة تنوى ارسال حملة الى بربر ، لذلك فقد أرسل له بارنج يجيبه فى الحال على برقيته بأنه حسب علمه لا تنوى الحكومة ارسال قوة انجليزية الى بربر(١٠٦) .

وفى ١٠ و ١١ مارس سنة ١٨٨٤ م تلقى بارنج طائفة اخرى من برقيات جوردون ولكنه اشار فيها الى أن الشيخ عبيد لم يقرر بعد الانضمام للمهدى أم لا ، وأن الفائدة المرجوة من استخدام الزبير قد نقصت كثيرا بسبب تأخير البت فى مسألة تعيينه ، مما

أضطر الموالين له الى الانضمام للعدو . ومما قاله جوردون فى برقيته : « .. اذا كانت الحكومة البريطانية مصممة على عمل الاستعراض العسكرى البريطانى فى بربر وتعيين الزبير والاحتفال بوضعه فى الخرطوم يستحق هذا العمل بقاءه فى الخرطوم وبالعكس اذا لم تقرر الحكومة هذه الخطوات ، فانه لا يرى فائدة من بقائه لأنه يستحيل عليه مساعدة الحاميات الأخرى ، ويتسبب فقط فى التضحية بجميع الجنود والموظفين هنا ، واستطرد جوردون فى برقيته يقول : « انه يرجو أن تقبل حكومة جلالة الملكة استقالته من بعثته ، وانه سوف يأخذ جميع المخزونات والسفن الى مديريات خط الاستواء ومديريات بحر الغزال ، حيث يعتبرها كأنها تحت حكم ملك بلجيكا ، وسوف يمكن فى هذه الحالة نقل جميع الموظفين المصريين والجنود البيض من بربر الى دنقلة ثم وادى حلفا ، ويكون هذا هو الرأى النهائى لجوردون ، وهذا فى حالة تصميمهم على الجلاء الناجز عن الخرطوم .. » .

وقد اجاب جرانفيل على برقية بارنج المؤرخة فى ٩ مارس سنة ١٨٤ م ، وفى ١١ مارس بما يأتى : .. بحثت الحكومة برقيتك المؤرخة فى ٩ مارس بعناية فيما يتعلق بحكومة الخرطوم والسودان مستقبلا ، ولكنها تعتبر ان الأجوبة على الاستفهامات الخاصة بتعيين الزبير غير شافية .. وفى ختام البرقية شرح الحلول التى يمكن أن تقدمها الحكومة البريطانية فى سبيل اتمام الانسحاب .

وفى ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل جرانفيل برقية الى كرومر جاء فيها « .. تود الحكومة أن تعلم اذا كان جوردون يقصد باقتراحه أن الذى يخلفه على السودان كله أم لا ، واذ لم يكن ذلك فأية مراكز يخلفه عليها ؟ وهل سلطة هذا الخلف تمتد الى نقط يمكن أن تكون مراكز تساعد تجار الرقيق وصياديه

على مزاولة نشاطهم » نقل بارنج محوى هذه البرقية ، وطلب منه البقاء في الخرطوم حتى يتصل ثانية بالحكومة الانجليزية ، وحذره من الذهاب الى بحر الغزال والمديريات الاستوائية بأية صورة من الصور ، ويبدو أن جوردون لم يتسلم هذه البرقية ، وقد ندم بارنج فيما بعد على ارسالها بهذا المعنى ، فقد كان من الافضل كما قال بارنج ان يترك له الحرية فى الذهاب جنوبا . وكان من الأفضل لبارنج ان يقبل النتيجة التى تدل على أن الحكومة صممت على عدم استخدام الزبير باشا ، فلو كان جوردون أعلن قبل ثورة القبائل بين بربر والخرطوم عن قرب الاحتفال بتعيين الزبير باشا حاكما عاما على السودان مع جنود من السود يكونون تحت تصرفه للمحافظة على النظام لكان من المحتمل الا ينضم الشيخ عبيد واتباعه للمهدى ، وبذا افلتت الفرصة من جوردون ، ويبدو من برقيتى جرانفيل المؤرختين فى ١١ و ١٢ مارس أن مسألة تعيين الزبير لم تبحث بعد ، لذلك فقد ارسل بارنج الى جرانفيل ملخصا لبرقيات جوردون الاخيرة وأجاب بافاضة على الأسئلة التى وجهها له كما ارسل له برقية خاصة جاء فيها : « .. اذا قررتم فى النهاية ارسال الزبير ، أرجو ابقاء القرار سرا اذا أمكن حتى التحدث اليه هنا ، فقد بلغنى أنه لن يذهب الى الخرطوم الا اذا جاء جوردون الى القاهرة خشية اتهامه اذا حدث لجوردون مكروه » ، ولعل أعلان جوردون لمسألة تعيين الزبير أمر مؤسف للغاية ، لان مراسلى الصحف يترددون على هذا الأخير بينما يحضه بعض الناس فى القاهرة على املاء شروطه باعتبار الانجليز لا تستطيع السير بدونه ، وهذا كله يجعل مساومته شاقة . فأجاب جرانفيل بارنج فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م بما معناه انه يرفض اقتراح جوردون بتعيين الزبير أو ارسال جنود بريطانيين الى بربر ، ويترك لجوردون حرية البقاء فى الخرطوم لاقامة حكومة مستقرة او الرحيل عنها » .

وفي ١٤ مارس سنة ١٨٨٤ م كتب جرانفيل لبارنج يخبره : « بأن الوزارة اجتمعت مرتين ولم يكن جلادستون حاضرا ، فكان هناك انقسام في الرأي عن وجود أو عدم وجود منافع للزبير، ولكن أعضاء مجلس العموم مجمعون على أنه لا توجد حكومة من الاحرار أو المحافظين تستطيع تعيينه ، أما مسألة ارسال جنود الى بربر فهي صعبة جدا فقد تؤدي الى متاعب لا نهاية لها » .
وقد أجاب بارنج على برقية جرانفيل المؤرخة في ١٣ مارس ، وقد استعرض في هذه البرقية تعليمات الحكومة الى جوردون وتعليقه عليها الى أن وصل « .. ومن الناحية الأخرى اذا كان القصد مجرد تأجيل اقتراح استخدام الزبير بضعة شهور أخرى ، فاني أؤكد أن هذا التعطل لا يسهل مأموريته ، بل على العكس من ذلك أعتقد أن مشقة اقامة حكومة مستقرة تزيد ولا تتناقص .. » .
وقد أشار أيضا الى الرأي القائل بالجلاء الفوري عن الخرطوم ، والاتجاه الى بربر وصعوبة تنفيذ ذلك ، وأشار الى أمكانية التقهقر دون تعرض جوردون وستيورات لأي خطر ، وابدى موافقته المطلقة على مقترحات جوردون بخصوص سحب الحاميات ، واعداد حكومة مستقلة كذلك قوله بعدم وجود خلف له غير الزبير ، وفي نهاية برقيته أشار الى عدم وجود من يخلف الزبير والأسس الخاطئة التي تقوم عليها الآراء السائدة ضده ، والصعوبات التي ستظهر اذا ما تم تعيينه(١٠٧) .

تطور الاحداث ، والنتائج التي ترتبت نتيجة عدم استخدام الزبير :

تطورت الاحداث وتتابعت بعد ذلك بصورة خطيرة ليس من اليسير على أولي الأمر في مصر أو بريطانيا ضبطها أو العمل على وقفها بأي صورة من الصور ، ففي الوقت الذي وصلت فيه الرسالة سالفة الذكر الى جرانفيل التي عرض فيها بارنج تقويمه للموقف برمته ، وصل من الانباء ما يؤكد انضمام الشيخ عبيد

للمهدى وثورة القبائل ما بين بربر وشندى ، وفى ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل جرانفيل الى بارنج برقية يبلغه فيها بتمسك الحكومة الانجليزية بتعليماتها الموضحة فى برقيته المؤرخة فى ١٣ مارس ويخبره فيها « .. وبينما لم يتغير رأيها فى الزبير ، ويبدو ان فكرة انتظار النتائج الطيبة من وراء تعيينه تضاءلت كثيرا .. » ، وقد كان واضحا انه لا فائدة من الاستمرار فى هذه المكاتبات ، فالحكومة مصممة على عدم ارسال الزبير ، ولم يعد هناك شك فى انضمام القبائل ما بين بربر والخرطوم الى المهدى ، وأن الوقت المناسب لارسال الزبير قد مضى ، لذلك ارسل بارنج الى جوردون فى ١٧ مارس سنة ١٨٨٤ م برقية يبلغه فيها بنتيجة مراسلاته مع جرانفيل ، واضاف اليها بعض الملاحظات التى جاء فيها « .. فى ظنى ان فكرة ارسال الزبير قد تلاشت نهائيا ، وان واجبك الآن ان تسير فى اعمالك كاحسن ما تستطيع ، وفى حدود التعليمات الواردة فى برقيات جرانفيل .. » . ومن المؤكد ان هذه البرقية لم تصله . وفى نفس التاريخ أرسل بارنج الى جرانفيل رسالة ذكر فيها عدم ضرورة الاستمرار فى مراسلاته بشأن الزبير(١٠٨) .

وقد بدأت الاحداث منذ ١١ مارس تجرى بسرعة بصورة قضت فى النهاية على كل امل فى اخلاء الخرطوم . ففى الحادى عشر من مارس كان جوردون قد ابرق بان الثوار يشرعون فى حصار الخرطوم ، وفى نفس اليوم أبرق لشقيقته يخبرها بانه ربما قد تكون هذه آخر رسالة يبعث بها لها نتيجة لتحرج الموقف . وفى ١٢ مارس قطع الثوار الخط التلغرافى ما بين الخرطوم والعالم الخارجى ، وقد كان ذلك سببا فى ان جوردون لم يتلق فى حينه البرقية التى بعث بها بارنج مع التعليمات المرسلة له من لندن بتاريخ ١٣ مارس ، ولا شك أن جوردون

كان لايزال لديه الفرصـــــة ـــ برغم قطع خط التلغراف فى ١٢ مارس وبداية الحصار على الخرطوم ، وكذا خلال شهر ابريل باكمله وحتى منتصف مايو ـــ للخروج من الخرطوم والنجاة بنفسه ومن معه عن طريق بربر ولكنه اضـــــاع هذه الفرصـــــة فى الفترة من ١٨ فبراير ســـــنة ١٨٨٤ م حتى ١٢ مارس ، ولم تصل اليه رسالة بارنج المؤرخة فى ١٣ مارس الا فى ٩ ابريل عن طريق رسول خاص(١٠٩) .

وفى ٢٨ مارس سنة ١٨٨٤ م كتب جرانفيل لبارنج رسالة مطولة ســـرد فيها اســـباب رفض اســـتخدام الزبير ، واشار الى الاتهامات التى دأب جوردون فى مناسبات مختلفة على ترديدها فى احاديثه عن الزبير ، كما اشار بشىء من الحدة الى ان بارنج وستيورات سبق أن غيرا فى آرائهما الاصـــلية تغييرا كبيرا فى مراسلاتهما(١١٠) .

وفى ١٤ ابريل سنة ١٨٨٤ م أجاب بارنج ببرقية اشار فيها الى ما تضمنته رسالته السابقة عن مسالة تعيين الزبير ، وتعبيرها بصدق عن راى الحكومة وجاء فى نهايتها ما يأتى « .. فاذا تيسر فى النهاية الوصول الى حل افضل من الحلول السابقة ، فانى أكون أول من يسلم بخطئه فى اقتراح ارسال الزبير »(١١١) .

ولا يغيب عن اذهاننا ان نذكر انه فى الوقت الذى راى فيه جوردون أنه لا فائدة من استمالة المهدى ، فكر فى انتداب الزبير باشا ليكون وكيلا له نظرا لأنه من رجال السودان العظام وله كلمة مسموعة وأقارب واخوان ، فأرسل له برقية يقول له فيها « .. سعادة افندم الزبير باشا بمصر نحن عينا سعادتكم وكيلا لحكمدارية عموم الســـــودان ، فيكون معلوم سعادتكم ذلك وعند حضوركم لبربر تخابروننا وتســـعون لما فيه الاصـــــلاح بحضور

سعادتكم تنظرون فيما اذا كان يمكن ارسال وابورين لحضور سعادتكم ويجرى ارسالهما وسعادتكم تعملون ترتيب كيفية حضوركم للخرطوم بالوابورين المذكورين والاثنين الآخرين ببربر بواسطة أعمال دراوى من الحديد لوقاية ما يهم من العساكر من ضرب الرصاص وتحضرون ما هو لازم معكم من الجمليين وتعملون مقدما استكشافات بالطريق بدون مخاطر لسعادتكم افندم »(١١٢) .

فاجاب الزبير عليه في ١٦ أبريل سنة ١٨٨٤ م بالتلغراف التالى « الى جوردون باشا بالخرطوم — قد تشرفنا بورود تلغراف سعادتكم المتضمن تعييننا من طرف سعادتكم وكيلا لحكمدارية عموم السودان ونعرف سعادتكم اننا في غاية التشكر ونهاية الممنونية من حسن التفات سعادتكم وجميل توجهاتكم في سائر الاحوال ويسوءني ان اعرف جنابكم مع غاية الأسف بأن الحالة الحاضرة لا تسمف الآن بالمرغوب وارجو الله تعالى ان يديم سلامتكم ويتم نجاحكم بما فيه الخير والصلاح العمومى افندم »(١١٣) .

ولم يبخل الزبير باشا على جوردون بالمساعدة بناء على اوامر الحضرة الخديوية ، فقد ارسل في ٢١ مايو سنة ١٨٨٤ م بواسطة فضل الله افندى ومحمد ابو جبالى ومحمد ولد رحمة خطابين الى عشائر السودانيين والقبائل المحاصرة والخرطوم يرجوهم فيها ادخال هؤلاء الثلاثة لمقابلة جوردون ، وطلب منهم أن يطلقوا له الحرية ويرافقوه حتى كرسكور في حالة ما اذا اراد المهاجرة ، ولكن كل هذه الجهود لم تغن شيئا ، وكان هذان الخطابان موجهين الى أعيان السودان لنصحهم لاظهار الطاعة والانضمام لجوردون(١١٤) .

ولقد كان لقطع المواصلات بين الخرطوم والعالم الخارجى أثره فى دفع الوزارة البريطانية فى التفكير فى ارســــال حملة لانقاذ جوردون تصـــل الى هناك فى نوفمبر ، فى حين يتولى جوردون الدفاع عن الخرطوم حتى هذا الميعــاد ، وفى ١٩ مايو سقطت بربر ، وفى ١٣ يوليو ارســـل جوردون الى القاهرة بانه يستطيع الدفاع عن الخرطوم لمدة اربعة اشـــهر ، ورغم أنه اخذ فى خلال هذه الفترة الجهد لرفع الحصـــار والحصـــول على المؤن الكافية وتحصين العاصمة ، ورغم احرازه لبعض الانتصارات على قوات المهدى ، فان كل هذه المحاولات لم تفلح ، فقرر أخيرا ارسال ستيورات لمصر لشرح الموقف واستعجال حملة ولسـلى الا أنه قتل هو ومن معه فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م قبل أن يصل الى مصر(١١٥) .

حمـــلة الجنرال ولســـلى :

عينت انجلترا الجنرال اللورد ولسلى قائدا عاما فى مصر ، واصـــدرت تعليماتها الى الجنرال ســـتيفنسن قائد عام جيش الاحتلال البريطانى باعطائه كل معونة ممكنة ووصل اللورد ولسلى الى القاهرة فى ٩ ســـبتمبر سنة ١٨٨٤ م وكانت معظم القوات المصرية فى ذلك الوقت على الحدود ، عاملة على تحصين اسوان وكروسكو ووادى حلفا ، فاصدر ولسلى أمره الى الجنرال وود سردار الجيش المصرى بالاضطلاع مع رجاله ببحث التســهيلات للحملة الجديدة ، وصل ولسلى الى وادى حلفا مصحوبا باركان حربه فى يوم ٥ اكتوبر وقرر البقاء فيها لمدة شهر قبل سفره الى دنقلة . وفى يوم وصوله أستلم تقريرا من الميجر كتشنر ، يذكر فيه أن الكولونيل ستيورات ـــ مساعد جوردون فى الخرطوم ـــ قد ضـــرب بربر بقنابل مدفعية احدى بواخره التى كانت تحمل

اربعين جنديا ، وأن البواخر الاخرى المصاحبة لها قد اضطرت الى العودة الى الخرطوم ، أما هذه الباخرة فقد اصطدمت بالشاطىء على بعد يومين من مروى ، واضطر راكبوها للنزول منها ، مما نتج عنه قتل ستيوارت وصحبه بعد مهاجمة الأهالى لهم . كان من نتيجة ذلك أن وصلت تعليمات برقية من لندن بعد ثلاثة أيام الى ولسلى تشرح له أن هدف حملته الرئيسى هو مساعدة الجنرال جوردون على ترك الخرطوم ، فعليه أن يتجنب كل عملية هجومية بعد ذلك . ولقد أصرت هذه التعليمات على ضرورة تحديد ولسلى لعملياته الى اقصى درجة ممكنة ، وكان عليه أن يتذكر جيدا أن سياسة الحكومة البريطانية هى العمل على انهاء سلطة مصر على السودان . كما أنها تقبل تعيين أحد الرؤساء الوطنيين — غير الزبير — للمحافظة على النظام ، وضمان حسن سير الملاحة فى النيل ، والمحافظة على السلم مع مصر ، ودفع الهجمات الموجهة ضدها من الثوار ، وعدم تشجيع تجارة الرقيق .

أمر ولسلى مدير دنقلة بالسير فى أقرب وقت ممكن صــــوب مروى ، ويعمل كل ما فى وسعه لكى يصل الى تحرير الأوربيين الذين قد يكونون قد وقعوا أسرى فى أيد الأهالى هناك . وكان على هذا المدير أن يحاول اغراء رجال القبائل على افتداء الأسرى الأوربيين بمبلغ من المال . ولكن وقت العمل كان قد انقضى ، وأبرق ولسون فى يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م أن الأهالى قد رأوا جثثا تعوم فى النيل منذ ثلاثة أسابيع . وهكذا لم يكن فى استطاعة أى عملية حربية أن تنقذ هؤلاء الأوربيين .

وقد اعترضت عقبات كثيرة وجســـــيمة طريق النيل هذا ، فكانت الحملة تحتاج الى ٨٠٠ سفينة ذات غاطس مسطح لنقل الجنود حتى مروى ، وكانت تحتاج الى عدد كبير من الجمال لنقل

المهمات ولمهام الاستطلاع فى الصحراء صوب الخرطوم ، ثم كان على المصريين ان يقوموا بجرها فوق الشلال . ويبدأ ركوب الجند فى السفن فى أول نوفمبر ولكن سرعان ما ظهرت مصاعب جديدة، وهى نقص كمية الفحم اللازم لتسيير هذه السفن ، مما تسبب فى تعطيل جديد لمدة ثلاثة أسابيع .

وفى أثناء ذلك الوقت وصل الجنرال ولسلى الى دنقلة فى يوم ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ م ، وقرأ فى اجتماع رسمى فرمانا صادرا من الخديو وموجها الى المديرين والعلماء والقضاة والوجهاء والتجار وشيوخ القبائل فى السودان يعلنهم فيه أنه قد عين قائدا عاما للقوات البريطانية المرسلة للسودان ، وانه قد حصل على تعليماته من الخديو ، وصار من الواجب عليهم اطاعة أوامره .

ووصلت القوات البريطانية متتابعة الى كورتى ثم أصدر ولسلى أمره الى الجنرال ستيوارت فى يوم ٣٠ ديسمبر بالتقدم فى الصحراء صوب شندى ثم صوب المتمة على النيل حيث كان يأمل ان يصل بعد اسبوع . ولكنه اشتبك وهو على بعد ٢٣ ميلا من هذه القرية فى قتال مع قوة من الثوار من بربر والمتمة وأم درمان تبلغ حوالى ١٠,٠٠٠ رجل . ولكن هذه المعركة المسماة أبو طليح لم تمنع الانجليز من التقدم صوب الخرطوم .

وتسلم الكولونيل ولســـــون قيادة هذه القوة البريطـــانية المتجمعة قرب النيل وشاهدت فى يوم ٢١ يناير سفن جوردون الاربع التى كانت قد حضــــرت لطلب الانقاذ والنجدة . ولكن الانجليز اضاعوا ثلاثة ايام فى سحب هذه السفن فوق الصخور فى الشلال السادس وما أن وصلوا الى قرب جزيرة توتى حتى تأكدوا من عدم وجود أى علم يرفرف على سراى الحاكم العام فى الخرطوم . وبعد قليل هاجمت نيران مدفعية الثوار السفن المصاحبة

للقوة الانجليزية . كانت الخرطوم قد سقطت فى أيدى الثوار فى يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م ، ووصلت النجدة متأخرة .

أما الجنرال السير ايفيلين وود الذى كان قد استلم أوامر ولسلي — بعد مقتل ستيوارت وقبل وصول انباء سقوط الخرطوم — لتنظيم انسحاب الجنود ، فانه قابل القوة الانجليزية فى منتصفه الطريق عائدة من الخرطوم مؤكدة سقوطها فى ايدى السودانيين . ولم يكن هناك أى مجال للقيام بأى عملية هجومية ، خصوصا انه لم يبق للانجليز الا ٣٥ جملا من ٢٫٢٠٠ . وكان على الجنرال وود أن يعتنى بالجرحى وبمخازن الامداد والتموين بين رجال منهوكى القوى وفى حالة لا يحسدون عليها من الروح المعنوية وقد كان هذا الهجوم المضاد من جانب القوات البريطانية فى شرقى السودان وشماله ، علاوة على تاثيرات امدادات حملة الانقاذ مما ساعد على تقوية روح الكفاح عند انصار المهدى وأدى الى سقوط الخرطوم فى أيديهم ، كمرحلة نهائية فى انتصارات الثورة(١١٦) .

وهكذا كانت نهاية تصميم وعناد الحكومة البريطانية — ممثلة فى جلادستون وجرانفيل والسير ايفيلين بارنج فى القاهرة — فى عدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير فى مساعدته فى عملية الاخلاء بالسودان أو الموافقة على تعيينه حاكما عاما للسودان بعد خروج جوردون وستيوارت منها . ورغم تأييد الكثيرين من المصريين والانجليز انفسهم لهذا الاقتراح ، ورغم البرقيات الكثيرة التى تبودلت بين القاهرة والخرطوم من جهة وبين لندن والقاهرة من جهة أخرى بخصوص هذا الاقتراح ، فانه لم يلق صدى لدى الساسة الانجليز وكان اعتراضهم على ذلك هو ان الزبير أولا وقبل كل شىء تاجر رقيق ، وليس من المنطق أو اللائق تعيينه فى مثل هذه الوظيفة أو طلب مساعدته لجوردون فى المهمة التى وكلت اليه فى السودان . رغم انه لم يكن هناك حل

بديل لهذا الاقتراح ، كما أن الحكومة الانجليزية كانت تخشى عند تعيين الزبير أو الاستعانة به فى السودان أن يقوم بالانتقام من جوردون لمقتل ابنه ، وهذا من الاسباب الظاهرية التى تحجج بها سياسة الانجليز لعدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير . لأن السياسة البريطانية فى ذلك الوقت كانت تهدف الى أبعد من ذلك وهو اقصاء النفوذ المصرى عن السودان بأية وسيلة ، ولو كان ثمن ذلك حياة جوردون وستيوارت ومن معهما من المصريين والاوربيين على السواء . ولم تكن حملة ولسلى سوى خطوة اتخذتها الحكومة الانجليزية من جانبها ، حتى لا يقال أن انجلترا قد تركت قائداً من أبنائها دون أن تهب لانقاذه كما كان الهدف منها اظهار روح التعاون فى صورة مزيفة للخديو فى مصر بأن انجلترا حريصة على عدم فقد مصر للسودان . وقد ترتب على عدم الأخذ باقتراح تعيين الزبير باشا حاكما عاما للسودان أو الاستعانة به فى عملية الاخلاء النتائج الآتية :

أولا : ضياع الوقت الذى كان فى الامكان استغلاله للقيام بعمل عسكرى مخطط لتنظيم عملية اخلاء الحاميات المصرية فى السودان بجميع مديرياتها .

ثانيا : فشل حملة هيكس باشا ووقوعها فى شراك قوات المهدى وكان من الصواب عدم ارسالها فى هذا الوقت ، والى هذا المكان (كردفان) لأن هزيمتها كانت سببا فى تقوية شوكة المهديين واضعاف القوة الدافعة للاستمرار فى عملية سحب الحاميات المصرية من السودان .

ثالثا : تقلص النفوذ المصرى رويدا رويدا من مديريات السودان حتى انتهى الى الخرطوم التى كانت هى الأخرى عرضة لزوال النفوذ المصرى منها بين لحظة واخرى .

رابعا : فقد مصر لاعداد هائلة من جنودها وموظفيها نتيجة عدم التخطيط الجيد لعملية الاخلاء او الاخذ بانسب الحلول وهو تعيين الزبير باشا فى عملية الاخلاء ذاتها .

خامسا : مقتل كل من ستيوارت ومن معه قبل أن يصل الى القاهرة لشرح الحالة على المسئولين بها كى تســـرع الحملة الانجليزية فى التقدم لانقاذ الخرطوم .

سادسا : مقتل جوردون باشا قبل ان تصله حملة الانقاذ بعد أن ضيق عليه الساسة الانجليز الخناق من جميع النواحى ، فكلما كان يقترح كانوا هم يرفضون دون بديل لمقترحاته ، حتى لقى مصيره المحتوم على ايدى المهديين .

سابعا : بروز مكانة واهمية الزبير وســـط هذه الاحداث وظهوره بمظهر الرجل المنقذ الذى لا غنى عنه فى جميع الاحوال .

ثامنا : القضاء نهائيا على النفوذ المصـــرى فى الســـودان بسقوط العاصمة الخرطوم فى ايدى المهديين ومقتل جوردون وفشل حملة ولسلى .

تاسعا : يضاف الى ما سبق من نتائج رئيسية انه كان هناك نتائج جانبية او فرعية اهمها فقد الحكومة المصــــرية للكثير من الاموال ، والاسلحة والذخائر ، والسفن وما الى ذلك من المخزونات التى كانت توجد بالخرطوم وعواصم المديريات .

وهكذا كما رأينا النتائج التى ترتبت على عدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير وهى ولا شك كان لها تاثيرها الواضح على الموقف السياسى والعسكرى فى كل من مصر والســودان وما جاورها فى ذلك الوقت . ولو ان الحكومة البريطــــانية لم تتشدد وتصر على عنادها ، لكانت النتائج التى سبق ذكرها عكس

ذلك ، ولكن لم يكن هناك من سبيل الا ان تتقبل الحكومة المصرية هذا الوضع على مضض منها نتيجة الضغط السياسي الذى مارسته عليها بريطانيا ممثلة فى معتمدها السير ايفلين بارنج (كرومر) وما تبع ذلك من احتلالها العسكرى لمصر .

ما بين مؤيدى ومعارضى استخدام الزبير فى السودان :

وقد كان هناك الكثير ممن كانوا يؤيدون اقتراح استخدام الزبير فى السودان وكذلك كان هناك القليلون الذين يعارضون ذلك ، الا ان المنطق والصواب يقران استخدام الزبير فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ السودان ، لأنه لم يكن هناك من حل آخر للخروج من هذه الأزمة التى تفاقمت فى ذلك الوقت . وسوف نعرض هنا لآراء من تناولوا هذا الموضوع فى المعالجة التاريخية من مؤرخين وسياسيين سواء من المصريين أو الاجانب .

كتب السياسى المعروف ونستون تشرشل يقول فى هذا الموضوع : « .. يجب على مؤرخى المستقبل أنفسهم فى تقرير ايهما كان على حق او على باطل ؟ جوردون ومؤيدوه أم الحكومة الانجليزية ؟ والذى يبدو أن الحكومة البريطانية لم تكن مهتمة فعلا بهذه المسألة فحينئذ فى هذه الحالة ليس لديها هناك اى سبب أو حق فى تفويتها الفرصة على الزبير » . وفى موضع آخر يقول : « .. وكان رفض السماح بتعيين الزبير باشا بمثابة قبول أو التسليم بأن شئون أو أعمال السودان كلها هى فى المقام الاول تمس شرف انجلترا كما أنها تمس شرف مصر .. وبرفض السماح للزبير باشا للذهاب الى السودان بدأ نزاع طويل يتخلله نوع من اليأس بين الحكومة ومؤيديها ومعارضيها ، وكان من الواجب على الأطراف الشرعية التى لها صلة بالموضوع ان تقترح حلولا اخرى

عندما أوصى هؤلاء برفض طلب الزبير رغم أن جوردون ومن معه كانوا يضعون الخطة تلو الخطة بقصد عدم فقد الأمل فى الوصول لى حل مناسب ، ولكن الطرف الآخر وهو الحكومة البريطانية اتخذ موقفا عكسيا يتسم بالصلف والعناد تجاه هذه المشكلة .. »(١١٧) .

ونخرج بنتيجة مؤداها أن ونستون تشرشل — وهو رجل له ثقله فى عالم السياسة — كان من مؤيدى الأخذ بأحد الحلول التى اقترحها جوردون ومن أهمها استخدام الزبير باشا ، وليس رفضها جميعا دون أدنى سبب لذلك ، وقد عاب كما رأينا موقف حكومته المتشدد من جهة عدم قبول تعيين الزبير فى السودان دون النظر لمصلحة مصر وانجلترا من وراء تعيينه .

ومن الآراء التى عرضت بشأن استخدام الزبير ما كتبه د . جلال يحيى بقوله : « .. بدأ الجنرال جوردون مهمته فى الخرطوم دون أن يظهر من بعد النظر مثل ما أظهره مساعده الكولونيل ستيوارت ، فاعتقد منذ وصوله للخرطوم انه جاء الى السودان محررا ، ولكن سرعان ما تبلور شعور السودانيين نحوه وشعر هو بالاتجاه الطبيعى لهذا التبلور ، فاضطر الى تغيير اتجاهه بشكل يجعل منه اكثر تطابقا مع أوامره التى استلمها من لندن . وسرعان ما شعر جوردون بتلك الحمى التى سادت السودان فى ذلك الوقت حقيقة أن جنوده كانوا من المصريين والسودانيين ، ولكنه كان أجنبيا قبل كل شىء . وكان جوردون يعتبر بالنسبة لتلك الجماعة من الثوار — الذين كانوا يأسفون على الغاء تجارة الرقيق — اكبر عدو قديم ، واخذ اتجاه الثورة الدينى يزداد وضوحا بعد وصول جوردون المسيحى . شعر جوردون اذن بنوع من العزلة النفسية ، وشعر انه لن يقدر على عمل اى

شيء بمفرده ، فأخذ يطلب من الحكومة الانجليزية في كل يوم طلبا جديدا ويقترح عليها اقتراحا خاصا .

وكان اقتراح جوردون الخاص بارســـــال الزبير هو أكثر الاقتراحات التى ألح عليها ، ولم يكن يهدف من هذا الا الى توكيد فصل السودان عن مصر ، وتوكيد سيطرة انجلترا على شئون السودان . وقد استطاع في هذه المسألة أن يكسب تأييد السير ايفلين بارنج، وهو من اعتبرته انجلترا خبيرا في الشئون السودانية، وكان هذا فاتحة لتأييد آخرين من المســـــئولين البريطانيين في القاهرة . وهكذا نرى ان ســـتيوارت الذى كان مترددا في هذا الموضوع يصبح المنادى بتنفيذ هذه السياسة ، مثله في هذا مثل نوبار ، وسيؤيد السير ايفلين بارنج جوردون في هذا المشروع كل التأييد وســـيأسف مر الاســف على رفض الحكومة البريطانية له .. » .

وفي موضع آخر يقول : « .. ووجدت الحكومة البريطانية نفسها في موقف حرج ، وخاصة ازاء الرأى العام البريطانى ، واحتجاجات جمعية منع تجارة الرقيق . وكان جوردون قد بدأ باعادة تجارة الرقيق في السودان ، وأخذ يطالب بارسال الذى كان أكبر تاجر الرقيق في الاقاليم السودانية . ولم تكن الحكومة البريطانية مســـــتعدة للتفكير في هذه الأمر ، وكانت ترفض كل مسئولية تنتج عن ارساله .. » .

وفي موضـع آخر يقول : « .. واخيرا فان فكرة ارســــــال الزبير الى الخرطوم قد رفضت نهائيا ، وكان هذا الرفض البات سببا في نشوب الخلاف بشكل نهائى بين حكومة لندن ومبعوثها في الخرطوم ، فاعتقد جوردون بأن حكومته تريد فرض رأيها عليه ، وأن تحرمه من حرية الحركة ، وتقطع عليه خط التراجع ، واعتقد

أن رفضـها الموافقة على ارســـال الزبير لاخلاء الحاميات من السودان يفرض عليها مسئولية انقاذه هو فى وقت قريب . واذا كان على الحكومة البريطانية أن تحدد مسئولياتها ومسئوليته هو ، فلم يكن عليها الا ان تقبل استقالته من هذه المهمة ولكن شيئا من هذا لم يقع . وفقد جوردون سيطرته على أعصابه ، ولكنه بقى فى الخرطوم مدعيا أن شرفه الشخصى يحرم عليه التخلى عمن عهد بهم اليه »(١١٨) .

حتى السير ايفيلين بارنج بعد مضى عدة أعوام يرى أن استخدام الزبير كان امرا واجبا ، ولو لم تضع الحكومة البريطانية المراقيل التى تمنع استخدام الزبير وقت ارسال برقية جوردون الاولى فى ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م لتغير سير الحوادث ، ولو أيد ستيوارت جوردون مرة واحدة لاضطر بارنج للاستسلام لالحاح جوردون فى طلب ارسال الزبير ، وهو الطلب الذى كره الموافقة عليه فى الابتداء ، ولأمكن سفر الزبير فى نهاية فبراير او أوائل مارس ، ومن الجائز أن اعلان سفره كان ســوف يمنع القبائل المتارجحة فى موقفها حول الخرطوم من الانضمام للمهدى . ولكن الفرصة المواتية افلتت سريعا ويتضح مما حدث بعد بحث للمسألة امتد الى اسبوعين وهو اكثر من المدة الضـــرورية لبحثها ، وحتى لو خضعت الحكومة البريطانية وقت انتهاء المراسلات فى منتصف مارس لما أمكن عمل شىء مفيد بعد فوات الفرصة ، وقد كتب لورد نورثبروك لبارنج يبلغه بانه يعتقد بانه لو ارسل الزبير الزبير لكان ارساله رمية من رمايات مقامر ، وان جميع الاحتمالات كانت توحى بانقلاب على جوردون ، وأن من شأن توطيد سلطته أن يكون خطره على مصر اكثر من الخطر الذى تتعرض له الآن ، والراى الذى انتهى اليه لورد نورثبروك كان ضد الزبير ، ولو أن

بارنج كان يرى أن الفـــائدة من تعيين الزبير تتارجح على تلك المجازفات عند الموازنة مع عدم تعيينه(١١٩) .

وفى ٢١ مارس ســنة ١٨٨٥ م ارســل جرانفيل الى بارنج خطابا يبلغه فيه بانه كان هناك تشكك كبير فى الآراء حول استحقاق الزبير لارساله الى السودان ، ولم يكن شىء من هذا القبيل بالنسبة للتصويت فى مجلس العموم . فقد حدث أن ثلاثة من الاعضـــاء المؤيدين للزبير لم يتغلبوا عليه ويوافقوا على اقتراح لوم الحكومة المقدم فقط بل طالبوا برفض اقتراح أرسال الزبير فى الحال . اما جلادستون فقد قال فى مجلس العموم فى يوم ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٥ م ، انه لو وافقت الحكومة البريطانية على ارســـال الزبير عندما طلب منها ذلك ، لكان اى خطاب يرســـله هذا المجلس الى التاج كافيا لشــــل حركة الوزارة قبل مضى ٤٨ ساعة ، وبرغم أن قرار الرفض كان نتيجة لراى الوزارة وحكم اعضائها ، فانه حكم البرلمان وحكم الناس ايضا على المسالة . ولا شـــك أن اكثر هذا الدفاع صحيح لولا وجود الاختلاف البين بين الحكومة من جانب والبرلمان والجمهور فى الجانب الآخر فالاولى كانت على علم بالحقائق ، والجانب الآخر يجهلها الى حد كبير ولو تم تعيين الزبير لكان من المحتمل امكان تفادى وقوع كارثة بالخرطوم ، فاذا كان بارنج على رايه هذا فالمســئولية الرئيســية واقعة بالطبيعة على الحكومة التى يراســـها جلادستون وكانت العدالة تقضى بقســمة هذه المســئولية بين البرلمان الانجليزى والشــعب وخصوصا جمعية محاربة تجارة الرقيق ، وبالرغم من ذلك وحتى مع افتراض عدم الخطأ فى تقدير الحقائق يجب التسليم بان اى حكم غير صائب فى مسألة بالغة الصعوبة كهذه المسالة يستحق التسامح فيها على الاقل(١٢٠) .

ويمكن تلخيص الأسباب التى أدت الى عدم استخدام الزبير فيما يلى :

أولا : الموقف المتعنت الذى اتخذته جمعية مقاومة تجارة الرقيق تجاه الزبير ، واثارتها للرأى العام البريطانى عن طريق الصحف ، وكذلك الحكومة البريطانية ممثلة فى جلادستون وجرانفيل .

ثانيا : سياسة المراوغة التى مارستها الحكومة الانجليزية تحت رئاسة جلادستون وجرانفيل فى الاجابة على المقترحات والحلول التى كان يقترحها جوردون ، ويبلغها الى المسئولين فى الحكومة الانجليزية عن طريق السير ايفيلين بارنج فى القاهرة ومماطلة الحكومة فى اتخاذ رأى حازم وصريح فى أى منها .

ثالثا : الضغط الذى مارسته الحكومة الانجليزية على الحكومة المصرية لكي تمنعها من أن تتخذ اى قرار من جانبها تراه ضروريا لانقاذ الموقف فى السودان ، وعلى الاخص الأخذ باقتراح استخدام الزبير الذى لم يكن هنالك حل بديل له لانقاذ الموقف .

رابعا : عدم ثقة الحكومة الانجليزية فى المقترحات والآراء التى اقترحها جوردون حلا للموقف الشائك فى السودان ، مما جعلها تستغرق مدة أكثر من اللازم للتأكد من صحة مقترحاته هذه ، مما جعل الموقف فى السودان يسير من سيىء الى أسوأ حتى أفلت زمام حل الموقف من يديها فى النهاية .

خامسا : السرية التى فرضتها الحكومة الانجليزية وساستها على البرقيات والمكاتبات المتداولة بينها وبين بارنج من ناحية وبين بارنج وجوردون من ناحية أخرى حول اقتراح استخدام الزبير فى السودان أو تعيينه حاكما عاما عليها ، مما جعل الرأى العام البريطانى والصحافة البريطانية تجهل حقائق الموقف ، وحقيقة

شخصية الزبير المؤيدة لتعيينه فى منصب الحاكم العام ، والتى لو عرفها الشعب والصحافة لكان بالامكان ان يتغير الموقف لصالح الزبير ولصالح كل من الحكومة المصرية والبريطانية والسودان ذاته ، وفى نفس الوقت انقاذ جوردون من الموقف المتحرج الذى اوقعته فيه سياسة حكومته الملتوية .

سادسا : كثرة ما اقترحه جوردون من خطط وافكار الواحدة تلو الاخرى دون التمسك باحد هذه الحلول ولو لمدة وجيزة حتى يتم البت فيها ، مما جعل المسئولين من الانجليز يتشككون فى ايها يصلح للخروج من هذه الأزمة ، كما انهم كانوا ضد فكرة ارسال حملة لانقاذ جوردون وتعيين الزبير . وعلى كل فقد ايد كل من السير ايفلين بارنج وستيوارت ونوبار باشا والحكومة المصرية الاقتراح الخاص بتعيين الزبير حاكما على السودان لانقاذ الحاميات المصرية اولا ولانشاء حكومة مستقلة فى البلاد بعد رحيل جوردون عنها ، وذلك عن اقتناع بمنطق الحقائق والواقع الحى للمشكلة دون أدنى تحيز ، ولكن كان لكل طرف من هذه الاطراف بعض التحفظات التى اشترطها لاستخدام الزبير أو اى حل آخر لانقاذ الموقف فى السودان .

نفى الزبير باشا الى جبل طارق سنة ١٨٨٥ م :

انتهينا الى ان اعداء الزبير من الانجليز وغيرهم قد نجحوا فى مساعيهم من اجل العمل على انهيار اقتراح جوردون باستخدام الزبير فى السودان بعد ان وضعوا امامه ما شاءوا من العراقيل فى طريق هذا الحل ، واغلقوا جميع المنافذ دون أن يطرحوا حلا بديلا لاقتراح استخدام الزبير أو ابداء اسباب رفضهم لهذا الاقتراح ، او الاخذ باحد الحلول التى اقترحها جوردون وستيوارت.

للخروج من الموقف المتأزم ، بل رفضوها جميعا وتركوا جوردون ومساعده ستيوارت وحيدين يصارعان المهدى وجيوشه بما لديهم من امكانيات لا تذكر ، الى أن انتهى الأمر بمصرع ستيوارت أثناء توجيهه الى مصر لاستعجال حملة الانقاذ ، ومقتل جوردون فى النهاية بعد تمكن المهديين من دخول العاصمة الخرطوم ، وفى أثناء وجود ولسلى وحملته فى دنقلة تم ضبط أربع خطابات قيل انها من الزبير باشا ارسلها لأحد المشايخ فى أسوان لتسليمها للمهدى ، فبعث ولسلى ببرقية الى بارنج فى القاهرة بهذا المعنى لكى يأمره بالقبض على الزبير باشا ، وعند عرض هذا الموضوع على الخديو ونوبار باشا لم يوافقا على ما جاء ببرقية ولسلى(١٢١) .

وقد ترتب على ذلك أن أشاع المغرضون من أعداء الزبير أن الهدف الأساسى من المكاتبات التى تم ضبطها والمرسلة من الزبير للمهدى ، هو التمهيد لهروب الزبير الى السودان لكى يشارك المهدى فى ثورته وقيادتها ، ثم العمل بعد ذلك معا للزحف على مصر ، وهكذا افلح الواشون فى وشايتهم وتم القبض على الزبير(١٢٢) .

لم تلبث الأوامر أن صدرت الى قوات البوليس فى مساء ٢١ من يناير سنة ١٨٨٥ م بمحاصرة قصر الزبير بالقللى(١٢٣) ومهاجمته لتفتيشه ، والبحث عما يثبت لهم اتصاله بالمهديين ، فلم يعثروا بعد عملية تفتيش دقيقة على شىء يؤيد دعواهم هذه ، فمادوا وان كانوا لم يكفوا بعد ذلك عن تحين الفرصة المناسبة للقبض عليه وابعاده عن القاهرة . إلى أن كان صيف نفس العام عندما دعاه الشيخ عمر السنوسى أحد العلماء المغاربة ، وكان يقطن بالاسكندرية ، لقضاء أشهر الصيف هناك ، فقبل الزبير الدعوة فسافر الى الاسكندرية ونزل ضيفا عليه . وفى صباح أحد

أيام شهر يوليو سنة ١٨٨٥ م طلب مقابلة الزبير أحد الضباط الانجليز ، وبعد مقابلته أبلغه فى رقة ولطف أن قائد السفينة انديا ـ India ـ وكان قد تعرف عليه الزبير من قبل فى دار محافظة الاسكندرية أثناء زيارته له ـ يدعوه لتناول قدح من الشاى على ظهر السفينة فى الساعة الرابعة من بعد الظهر فقبل الزبير الدعوة شاكرا ، ومضى الى هذا الميعاد دون أن يدرك ما الذى تخبئه له الاقدار من وراء هذا الكرم المفاجىء من القائد الانجليزى ، وهذه الدعوة غير المنتظرة ، وبعد أن فرغ الاثنان من تناول اقداح الشاى وتبادل الاحاديث ، تأهب الزبير لمغادرة السفينة ، عندئذ تلاحظ للزبير أن السفينة قد بدأت ترفع مراسيها ، وتمضى بهم متجهة نحو عرض البحر . ادرك الزبير المغزى من وراء هذه الدعوة ، ثم تلفت الى القائد الانجليزى كأنما يسأله تفسيرا لهذا الاقلاع المفاجىء ، عندئذ تقدم قائد السفينة نحوه وأبلغه فى رقة انه قد أصبح اسيره منذ تلك اللحظة ، وان الأوامر قد صدرت اليه بنقله الى جبل طارق(١٢٤) .

وكان السير ايفلين بارنج ـ بعد أن رفض كل من الخديو ونوبار باشا فكرة القاء القبض على الزبير ـ قد أمر العساكر الانجليزية بالقبض عليه فى منزل الشيخ السنوسى بالاسكندرية كما تم القبض على ولديه ، وأرسل الجميع الى جبل طارق(١٢٥) .

بعد أن وصلت السفينة الى جبل طارق نزل الزبير ومن معه بقصر الملكة فكتوريا بالجزيرة ، وقضى الزبير فى هذا المنفى ما يقرب من العامين ، ولم يسمح له بالعودة الى القاهرة الا فى سنة ١٨٨٧ م(١٢٦) .

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن الزبير باشا قد أمضى فى الأسر فترة ثلاثين شهرا ، وفى مقال كتبه أحد الضباط

الانجليز الذين كانوا على اتصال بالزبير باشا اثناء فترة أسره بجبل طارق « ١٨٨٥ م ــ ١٨٨٦ م » أن الزبير قد اقام فى مقر محافظ جبل طارق الصيفى(١٢٧) .

وفى خلال الاشهر الثلاثة التى قضاها الحارس مع الزبير رأى الكثير ، فكتب عن الزبير انه أعتاد أن يقص عليه كيفية سير المغامرات التى قام بها فى اوليات حياته فى بحر الغزال ، وعندما توطدت العلاقة بين الاثنين اخذ يحدثه عن السودان والجنرال جوردون والمهدى وتجارة الرقيق وباشاوات القاهرة ونظام العوائد والضرائب وطريقة الحكم فى وطنه بطريقة ملؤها الحماسة . وقد كانت هذه الأحاديث تتميز بنوع من الجدية والحقيقة ، وكان ينقلها بترجمة خبيثة رجل يدعى حامد(١٢٨) . وقد كانت اقامة الزبير بجبل طارق طوال فترة اسره تكلفه مبلغا يصل الى مائة جنيه فى الشهر ، ورغم ذلك كان يعانى من نقص الأموال ، وقد كانت مسالة ترك الزبير بهذا الوضع السيىء دون إبداء الاسباب لذلك غير مرضية ، فهو لم يقدم للمحاكمة لجريمة أو جناية ارتكبها ، كما انه لم يتم الافراج عنه . وقد كان هذا هو السؤال الذى رفعه العديد من مواطنى جبل طارق ، الذين كانوا يسائلون انفسهم فى هذا الوقت لماذا لم تطبق وسائل العدالة على الزبير ؟ وكان من الصعب الا تصدق أن السبب كان معروفا فى حالة عرابى ، ولكن كان الامر مجرد شك وحكم على اشياء سابقة يمكن الصاقها بالزبير(١٢٩) .

وفى اثناء اقامة الزبير بجبل طارق زاره فى احد الأيام السير جوى آدى ، وطلب منه أن يكون مستعدا لحضور اجتماع مهم يعقد فى قاعة الاجتماعات بالقصر فى اليوم التالى . وفى الموعد المحدد اجتمع المؤتمر بحضور الحاكم ، وياور خاص لجلالة الملكة ، وبعض

الضباط الانجليز والمترجمين ، وبدأ الحديث بسؤال الزبير فى مسألة قبول الحكم فى السودان مستقلا عن حكومة مصر . وقد كان اقتراحا غريبا بالنسبة للزبير لم يسعه الا أن يرفضه رفضا باتا ، فلم يكن على حد قوله : « .. تاريخ أسرتنا منذ عام ١٨٢١ م — أى منذ بدء اتصال ولائها بأسرة الحكم فى مصر — لا يقبل هذه الخيانة أو عرضا لحكم السودان عن طريق الانجليز » . وكان من الواضح أن الانجليز يريدون أن يجيب الزبير بالايجاب ، ويجعلوا منه أجيرا لمصلحتهم ، فلما اشتد الجدل حول هذا الأمر غادر الزبير الاجتماع غاضبا ، وأبى أن يخوض فى شئون بلاده مع هؤلاء الانجليز(١٣٠) .

وكتب جاكسون عن الزبير عندما كان يتناقش معه فى الدور الذى لعبته بريطانيا من أجل ارساله الى جبل طارق بقوله له : « .. أنت انجليزى غير متفهم أو مدرك ولكنك سطحى بسيط بالضبط » وقد كان الزبير دائما يرجع فضل اطلاق سراحه من جبل طارق الى السير وينجت . وفى احدى المناسبات أعطى جاكسون تعبيرا ملموسا يدل على اعترافه بالجميل تجاه السير وينجت(١٣١) .

ويصف المستر سدنى لو الزبير عندما تعرف عليه حديثا بقوله أنه ذكى وبشوش وشفيق وجنتلمان ، فقد تجاذب معه الحديث بعد تناول طعام الغداء فى أحد الأيام فى مقر الحاكم . ويضيف المستر سدنى لو فى وصف الزبير بأنه كان رجلا يبدو عليه سمات العظمة ، فارع الطول نحيل الجسد ، وكان دائما يلبس الطربوش وأحيانا العمامة ، وفى بعض الأوقات كان يرتدى قبعة من السلك ، كما كان يتسم بالصراحة والوضوح ، ولكنه نادرا ما كان يرتدى الزى العربى ، وفى بعض الأحيان كان يرتدى زيا أزرق اللون ينتمى الى عصر الامبراطورية الثانية ، ولكنه فى

العادة كان رداؤه أسمر اللون أو بلون الخردل وفي بعض الأحيان يرتدي جاكيتا ضيقا أسود اللون وسروالا مخططا وسساريا من الجلد .وحذاء شرقيا مألوفا ، وكان في ردائه هذا أشبه بالأوربي الذي لم تكتمل مدنيته ، وكانت يداه مرسومتين بدقة حساسة ذات أصابع طويلة جدا وقدماه نحيفتان طويلتان أيضا . أما ملامحه فكانت سوداء جدا وغريبة حقا على ذلك اللون الاسمر ، وكانت جبهته بارزة تشبه الجمجمة يبدو الجلد منها مشدودا والعينان غائرتين لا يكاد يبدو لهما بريق ، ولم يكن يتزين بأية مجوهرات باستثناء خاتم شاحب اللون غير شفاف كان قد أحضره معه من بحر الغزال ، وقد منحه للمستر سدني لو عندما غادر جبل طارق .
وقد كان الزبير نادرا ما يخرج من مقره الى الأرض المحيطة لأنه لم يكن يشعر بالابتهاج في هذه المنطقة التي حددت فيها اقامته او بالنسبة للظروف المحيطة به ، ولكن خطواته كانت تتصف بالسرعة والانسياب والتي نسميها بحركة الحصان ، وقد كان هناك وداع حزين بين كاتب المقال والزبير اراد الزبير أن يسجله بقوله :
« لقد اضحيت رجلا عجوزا وأصبحت من الآن ارتقب الموت ، ولكنني قبل أن أموت أحب ان أرى بلادي التي شهدت أيام صباي تنعم بالسكينة والسلام ، وأن أرى التجارة تزدهر عبر النيل من اقصاه الى أدناه قد لا أعود الى وطني ، ولكن اذا ما تيسر ذلك فانني سأعمل على تقديم النصيحة التي اعطيها الآن لشعبي الذي سيبارك ويذكر اسمي بكل ما هو طيب لانني لا ارغب في أن أكون عظيما ، فسوف انال ما استحقه من دعوات في قبري بعد موتي بزمن طويل ولو انهم استخدموني لعمل اي شيء فانني ساكون مسرورا وسيكون ذلك شيئا طيبا ، واذا لم أعد بلا فائدة فان ذلك ايضا شيء طيب ، ولكن دعني وعائلتي نرحل من القاهرة الى السودان فسوف اذهب الى احدى المدن المقدسة مكة او المدينة او القدس ، وهكذا اقضي بقية ايامي .. »(١٣٢) .

كانت هذه آخر كلمات الزبير وهو يودع صاحب هذا المقال والحارس لمقر اقامته ، وقد رأينا كيف أنها تعبر عن نفس صافية لا يلمؤها الحقد أو الضغينة على أحد بل كانت هذه النفس فريسة لمن ظنوا به سوءا دون أن يحمل لهم هو أى كراهية رغم ما فعلوه معه .

وقد اعتاد الزبير أثناء فترة اسره ان يسلى نفسه بترديد بعض القصائد من الشعر يجد فيها وحدته ، وملاذا للتفريج عن نفسه ، وبعد أن أمضى هذه الفترة الطويلة فى الاسر وتأكد المسئولون من براءته ، أو على وجه الصواب زال السبب الذى أخافهم من بقائه فى القاهرة ، فى الوقت الذى بلغت فيه المهدية أوجها فى السودان ، فأخلى سبيله وسمحوا له بالعودة الى القاهرة ، فبلغها فى شهر اغسطس سنة ١٨٨٧ م وتشرف بمقابلة جناب الخديو محمد توفيق الذى شمله بعطفه وأهداه عربة فاخرة تجرها الجياد ، وسيفا أثريا نقشت عليه كلمة الحروب الصليبية ورصع مقبضه بالذهب والماس(١٢٣) .

* * *

هوامش الفصـــــل الرابع

(١) هـ . س جاكسون (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) : جوردون باشا من ص ٦٧ — ٦٨ .

(٢) Churchill, W. : The River War P. 17.

(٣) Sparrow, G. : Gordon Mandarin P. 120.

(٤) Churchill, W. : Op. Cit., P. 17.

(٥) Jackson, H.C. : Behind The Modern Sudan P. 99

(٦) عبد الرحمن زكى : أعلام الجيش والبحرية فى مصر فى أثناء القرن التاسع عشر جـ ١ ص ٩٤ .

(٧) سارى نصوجلر : وفيها التقى الجيش العثمانى تحت قيادة السردار محمد على باشا بالجيش الروسى تحت قيادة البرنس الكسندر ولى عهد قيصـــــر روسيا ، الذى كان قد تحصن فى هذه المدينة وكان الزبير قد عهد له بقيادة احدى فرق الجيش العثمانى ووكل اليها فى هذه المعركة بمهمة القيام بالهجوم على تحصينات العدو بقصد فتح ثغرة فيها كى يستطيع منها الجيش العثمانى ان يتدفق خلال الجيش الروسى . وكانت خطوط العدو منيعة ، فحاول الزبير بفرقته أن ينال من هذه التحصينات بالهجوم عليها بالمواجهة فلم يستطع . الا أنه فى فجر اليوم التالى فوجىء الأعداء والنوم يداعب أجفانهم برجال الزبير وهم يدفعون أمامهم حشودا من الخيل كان الزبير قد أمر بأن توقد صهواتها بالقش وأن تضرم فيه النار ، فلما أحست الخيل بالنار فوق ظهرها مضت تعدو وتثب ورجال الزبير من خلفها يوجهونها نحو صفوف الأعداء ، الذين ما لبث الهرج والمرج أن وقع بينهم من جراء هذه المفاجأة ، فانتهز الزبير هذه الفرصة وقذف الى المعركة بكل قوته فلم يمض وقت قليل حتى كان قد استطاع زحزحة الجيش الروسى عن مواقعه

وفتح الثغرة المنشودة في صفوفهم ، فلم يلبث الجيش العثماني أن تدفق من خلالها واحتدمت المعركة ، واستمر القتال الى ما بعد منتصف الليل وانتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني بفضل شجاعة ودهاء الزبير .

(٨) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ص ١١٤ — ١١٥ .

(٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ص ١١٩ — ١٢٢ .

(١٠) Gessi, R. : Seven years in the Sudan P. 305.

(١١) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ص ٩٤ .

(١٢) عبد الرحمن زكي : نفس المرجع ص ٩٤ .

(١٣) السعيد بك حسين : أحد سناجق الجيش لدى جوردون وكان من قبل يعمل نخاسا مع ابن الزبير ، وهو من قبيلة الجميعاب . ولما استماله جوردون ولاه مديرية شكا ؛ ثم خرج على الحكومة ولكن تم اخضاعه وجيء به الى الخرطوم وأنعم عليه جوردون بعد ذلك برتبة الميرميران الرفيعة مع لقب باشا وعينه قومندانا على جنود الباشبوزق وجعل حسن ابراهيم وكيلا له .

(١٤) ادريس ابتر : كان من اتباع والد سليمان وعقب سجن جوردون له نتيجة وشايته بسليمان تمكن من استمالة قنصل المانيا بالخرطوم نظير ألف جنيه ، فأبرق لجوردون يخبره بأن ادريس ابتر قد سجن ظلما ، وانه برىء مما نسب اليه ، وكان قنصل المانيا من أخص أصدقاء جوردون ويثق به ثقة عمياء ، فأفرج عن ادريس وعينه مديرا لبحر الغزال والتمس له من الجناب العالي الرتبة الثالثة ، وأمام هذا الاجراء الذى اتخذه جوردون لم يسع ابراهيم فوزي باشا الا ان قدم استقالته لجوردون محتجا باعتلال صحته ، فقبلها كما أنه رآها فرصة لأن يرشحه فعينه حاكما عاما على اقاليم خط الاستواء وأنعم عليه برتبة الاميرالاي والوسام المجيدي الثالث .

(١٥) ابراهيم فوزي باشا : من الشخصيات العسكرية المصرية في السودان، وقد كان له دوره في أحداث بحر الغزال وثورة سليمان ، ورافق جوردون وستيوارت باشا اثناء توجههما للخرطوم في ٢٧ يناير سنة ١٨٨٤ م لتنفيذ الاخلاء، وبعد ذلك قبض عليه وسجن بعد سقوط الخرطوم ، ولكن أفرج عنه بعد ذلك ضمن ٨٨ سجينا بعد دخول الجيش المصري الانجليزي أم درمان سنة ١٨٩٨ م .

(١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ١٢٤ — ١٢٦ .

(١٧) Gessi, R. : Op. Cit., PP, 116, 181 — —182.

(١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ١٣١ — ١٣٢ .

(١٩) Jackson, H. : Op. Cit., P. 100.

(٢٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٢١) Gessi, R : Op. Cit., P. 240.

(٢٢) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٨٢ .

(٢٣) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : تاريخ سودان وادى النيل ج ٢ ص ص ١٨٤ — ١٨٦ .

(٢٤) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٦ .

(٢٥) ضرار صالح ضرار تاريخ السودان الحديث ص ٩٢ .

(٢٦) سواكن : وهى تقع على البحر الاحمر وهى عبارة عن جزيرة محيطها ميل ونصف ميل ، وهى مدينة تجارية قديمة العهد هى تربط السودان بالحجاز والهند ومصر ، ويربطها بالسودان طريق بربر ، وقد افتتحها السلطان سليم العثمانى سنة ١٥١٢ م فظلت تابعة للدولة العلية يتولاها حكام من قبل والى الحجاز الى أن تنازل الباب العالى عنها لمصر سنة ١٨٦٦ م .

(٢٧) عثمان دقنة : أصله من أكراد ديار بكر الذين حضروا الى سواكن مع السلطان سليم الفاتح واختلطوا بالهدندوه وكان منهم قبيلة الدقناوى ، وقد ولد فى سواكن ونشأ بها واشتغل بالتجارة مع السودان والحجاز بالرقيق ، ولما منعت الحكومة تجارة الرقيق ساءت حالته وسجن مرة أخرى فى جدة مع أخيه بسبب اتجارهما بالرقيق وعندما علم بالدعوة المهدية أعتقد فيها وآمن بها وحث عليها ، وكان يعرف اللغة العربية ولغة الهدندوه والبجة وكان شهما شجاعا مهيبا وقد عينه المهدى أميرا على السودان الشرقى .

(٢٨) جلال يحيى (دكتور) : مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ج ٢ ص ٤٢٦ .

(٢٩) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٧ .

(٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٣١) مسز سارتوريوس : وهى زوجة الكولونيل سارتوريوس مساعد بيكر باشا قائد حملة سواكن .

(٣٢) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٩٢ .

(٣٣) ترنكلت : مرفأ على ساحل البحر الأحمر .

(٣٤) جلال يحيى : (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .

(٣٥) جلال يحيى (دكتور) : نفس المرجع ص ٢٠٢ .

(٣٦) انظر تفاصيل ثورة سليمان في أول الفصل .

(٣٧) هـ . س جاكسون : (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٣٨) محمد صبري : المرجع السابق ص ٨٥ .

(٣٩) رؤوف باشا : (١٢٩٦ : ١٢٩٩ هـ — ١٨٧٩ : ١٨٨٢ م) خلف جوردون وصدر الأمر العالي بتعيينه في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٧ هـ الموافق ٢٧ مارس ١٨٨٠م وقد باشر رؤوف باشا جميع الأعمال التي نيطت به بهمة ونشاط واهتم على وجه الخصوص بتحديد النفقات وتحصيل الأموال وكان آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة المهدية .

(٤٠) مكي شبيكة : (دكتور) : السودان في قرن ١٨١٩ — ١٩١٩ م ص ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٤١) زاهر رياض (دكتور) : السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال ص ١١٩ .

(٤٢) محمد فؤاد شكري (دكتور) : مصر والسودان (تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٣٠ — ١٨٩٩ م .) ص ص ٣١٢ — ٣١٥ .

(٤٣) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٤٤) احمد شفيق : (مذكراتي في نصف قرن) ص ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٤٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٨٩ .

(٤٦) Moorhead, Alan : The White Nile PP. 223 — 224.

(٤٧) Crabites, P. : The Sudan and slavery PP. 200 — 202.

(٤٨) جلال يحيى : (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٤١٨ — ٤٢٠ .

(٤٩) ضرار صالح ضرار : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٥٠) الشاطر بوصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ١٧٦ .

(٥١) Moorehead, Aaln : Op. Cit. P. 224.

(٥٢) الشاطر بوصيلي : المرجع السابق ص ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٥٣) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٥٤) شوقي الجمل (دكتور) : المرجع السابق جـ ١ ص ٨٨ .

(٥٥) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٥٦) تقدم أن الحكومة المصرية لما بلغها خبر هلاك حملة هكس في شيكان عن رأيها على اخلاء السودان فلما عرض هذا القرار على وزارة شريف باشا للتصديق عليه قدم الوزراء استعفاءهم من الوزارة فشكلت وزارة أخرى برئاسة نوبار باشا في يناير سنة ١٨٨٤ م وعرض القرار عليها فصدقته وندب لهذه المهمة عبد القادر باشا فاعتذر لأنه كان مايقنا الفشل بغير جند . فانتدب لها جوردون فحضر للقاهرة في ٢٥ يناير ١٨٨٤ م وتشرف في اليوم التالي بمقابلة الخديو ؛ فأصدر له فرمانا بتوليته حاكما عاما مفوضا على السودان وأمرا آخر يتضمن الغرض الذي ندب له وهو الاخلاء ونصه « أن الغرض من ارسالكم الى السودان ارجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار الى مصر وذلك مع حفظ النظام في البلاد باعادتها الى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصري ولنا مزيد الثقة انكم تتخذون افضل الطرق لاتمام هذه المهمة طبقا لرغبتنا والسلام » .

(٥٧) الكولونيل ستيوارت : الذي قدم تقرير عن السودان في سنة ١٨٨٣ م وهو الذي صحب جوردون بعد ذلك الى الخرطوم في فبراير سنة ١٨٨٤م في مهمة اخلاء السودان ، ثم قتله الثوار المهديون عند قرية هبة في طريق عودته مع آخرين الى مصر بالقرب من أبي حمد في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٤م بعد ثمانية أيام فقط من مغادرته الخرطوم .

(٥٨) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ١٢٥ .
(٥٩) جلال يحيى (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٤٢٠ — ٤٢١ .
(٦٠) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ١٩٥ .
(٦١) كرومر : (تعريب عبد العزيز احمد) : بريطانيا في السودان ص ٥٠.
(٦٢) شرار سالم شرار : المرجع السابق ص ١٤٧ .
(٦٣) Churchill, W. : Op. Cit., P. 88.
(٦٤) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
(٦٥) Churchill, W.: Op. Cit., PP. 88 — 89.
(٦٦) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
(٦٧) محمد صبري : المرجع السابق ص ١١٢ .
(٦٨) كرومر (تعريب عبد العزيز حمد) : المرجع السابق ص ص ١٠٥ — ١٠٦
(٦٩) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : ص ص ١٠٦ — ١٠٧ .
(٧٠) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ١٠٧ .

(٧١) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ١٢٧ .
(٧٢) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٠٩ .
(٧٣) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٠٦ — ١١١ .
(٧٤) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
(٧٥) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
(٧٦) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
(٧٧) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
(٧٨) على ابراهيم عبده (دكتور) : المنافســـة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠ — ١٩٠٦ م ج ١ ص ٨٩ .
(٧٩) اللورد نورثبروك : وزير البحرية البريطانية في حكومة جلادستون .
(٨٠) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : المرجع السابق ص ص ١١٢ — ١١٧ .
(٨١) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١١٨ — ١٢٠ .
(٨٢) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٢٠ — ١٢١ .
(٨٣) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٢١ — ١٢٢ .
(٨٤) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ١٢٢ .
(٨٥) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ١٢٢ .
(٨٦) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٢٣ — ١٢٤ .
(٨٧) كرومر (تعريب عبد العزيز) : نفس المرجع ص ١٢٤ .
(٨٨) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٢٤ — ١٢٥ .
(٨٩) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٢٥ — ١٢٦ .
(٩٠) ابراهيم فوزى : السودان بين يدى جوردون وكتشنر ج ١ ص ٢٠٠ .
(٩١) انظر ملحق الوثائق المنشورة الوثيقة رقم (   ) .
(٩٢) انظر ملحق الوثائق المنشورة رقم (   ) .
(٩٣) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : المرجع السابق ص ١٢٧ .
(٩٤) ابراهيم فوزى : المرجع السابق ج ١ ص ص ٢٩٥ — ٢٩٧ .
(٩٥) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : المرجع السابق ص ص ١٢٧ — ١٢٨ .
(٩٦) Moorehead, Alan : Op. Cit., P. 219.
(٩٧) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : المرجع السابق ص ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٩٨) انظر ملحق الوثائق المنشورة الوثيقة رقم (
(٩٩) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : المرجع السابق ص ص ١٢٩ — ١٣١
(١٠٠) Churchill, W. : Op. Cit., P. 45.
(١٠١) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : المرجع السابق ص ص ١٣١ — ١٣٢
(١٠٢) Moorehead Alan : Op. Cit., P. 250.
(١٠٣) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : المرجع السابق ص ص ١٣٢ — ١٣٣
(١٠٤) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٣٣ — ١٣٤
(١٠٥) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(١٠٦) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(١٠٧) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٣٥ — ١٤١ .
(١٠٨) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ١٤١ ، كذلك انظر أيضا ملحق الوثائق المنشورة الوثيقة رقم (   ) .
(١٠٩) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .
(١١٠) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : المرجع السابق ص ص ١٤١ — ١٤٣ .
(١١١) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ١٤٣ .
(١١٢) احمد شفيق : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٩ .
(١١٣) احمد شفيق : نفس المرجع ج ١ ص ٢٧٠ .
(١١٤) احمد شفيق : نفس المرجع ج ١ ص ٢٧١ .
(١١٥) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ص ١٢٩ — ١٣١ .
(١١٦) جلال يحيى (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٤٤٥ — ٤٤٨ .
(١١٧) Churchill, W. : Op. Cit., PP. 44 — 45.
(١١٨) جلال يحيى (دكتور) : المرجع السابق ص ٤٢٩ — ٤٣١ ، ٤٣٢ .
(١١٩) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : المرجع السابق ص ١٤٤ .
(١٢٠) كرومر (تعريب عبد العزيز احمد) : نفس المرجع ص ص ١٤٥ — ١٤٧
(١٢١) احمد شفيق : المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٦ .

(١٢٢) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق جـ أ ص ٥٤ .

(١٢٣) وكان الزبير قد انتقل اليه بعد أن أهداه اياه جناب الخديو توفيق باشا سنة ١٨٨٠ م .

(١٢٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٠ .

(١٢٥) احمد شفيق : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٦ .

(١٢٦) شوقي الجمل (دكتور) : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٨٦ .

(١٢٧) Ribblesadale, Right H. : Conversation with Zobeir Basha, at Gibraltar P. 1.

— مقر المحافظ الصيفي : وهو المستقل عن المقر الحكومي والكائن على الصخور الجرداء ما بين منطقة Europa Point وخليج — Catalan المطل على المضايق ، وكان هذا المقر في حراسة ضابط من الحامية كانت مهمته ادارة شئون المنزل في الحدود التي تسمح بها الامكانيات المتاحة للزبير باشا ، وكذلك المصروفات الأخرى ، ومن مهامه أيضا تسلم رسائله من أفراد محدودين وأن يحقق رغباته في حدود الامكان . كان هذا الحارس هو صاحب هذا المقال ، وقد كلفه السير جون أدى بهذه المهمة بصفة خاصة ، وكان الحارس يقيم مع الكتيبة الثالثة في فرقة الأسلحة منذ ديسمبر ١٨٨٥ م . وقد تحمل هذه الواجبات التي كلفه بها الى أن تخلى عنها في العاشر من مارس ١٨٨٦ م عندما عاد الى وطنه في الاجازة .

(١٢٨) حامد : جاء هذا الرجل الى انجلترا كحارس شخصي لتسليم اوين عرس بحر يزور شواطىء انجلترا ، وتعلم الانجليزية في مدرسة — Roads — The Borough ، وقد كان غالبا ما يتفاخر بقصص الرجال المتوحشين والحيوانات المتوحشة في بحر الغزال ودارفور . وقد عمل كمترجم للزبير طوال مدة أسره بجبل طارق .

(١٢٩) Ribblessadale, Right H. : Ibid. P. 4.

(١٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٢ .

(١٣١) Jackson, H.C. : Op. Cit., P. 107.

(١٣٢) Ribblessadale, Right Hon : Op. Cit., P. 15.

(١٣٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٤ .

* * *

الفصل الخامس

الزبير باشا رحمة في نهاية حياته

الزبير باشا رحمة في نهاية حياته

بعد عودة الزبير الى مصر من منفاه بجبل طارق بعد ان قضى به قرابة العامين اسيرا دون ان يركتب اى خطأ يبرر نفيه ، سوى ما أشاعه حوله الواشون من انه حاول الاتصال سرا بالمهدى عن طريق المراسلات ، مما دعا المسئولين فى القاهرة من الانجليز الى ابعاده ريثما تهدأ الأوضاع ، وتستقر الأمور السياسية والعسكرية فى السودان ، وتنجلى حقيقة الموقف • وما زالت هذه الأسباب التى كانت سببا فى نفيه الى جبل طارق حتى سمحوا له بالعودة ، فكانت عودته الى القاهرة بعد هذا النفى هى بداية لنهاية حياته السياسية والعسكرية ، التى بدأت بمساهمته مع عرب الرزيقات ، وانتهت فوق صخور جبل طارق • وعند عودته أحس ان الحوادث قد سبقته بل خلفته وراءها ، وأن دوره السياسى قد انتهى فعلا ، فاستكان لهذه النهاية التى ارادتها له الأقدار(١) •

وقد صارت حياة الزبير بعد ذلك خالية من المتاعب السياسية طابعها الهدوء المطلوب لرجل أنهكته الأحداث السياسية والعسكرية على مدى فترة طويلة من حياته •

عاش الزبير بعد عودته من منفاه فى قصر الجيزة بالقرب من القاهرة ، وكان يقوم بين الحين والآخر بزيارات للسير ايفلين

بارنج • وكان يطالب اللورد كرومر أثناء حديثه معه بأن يحاكم أمام محكمة على الجـــرائم التى ظن المسئولون انه ارتكبها تأكيداً لبراءته ، أو منحه قدراً كبيراً من المال كتعويض له عن الفترة التى قضاها فى منفاه بجبل طارق ظلماً(٢) •

وقد كان هذا المطلب مثار خلاف بينه وبين الحكومة فى مصر لم ينته الا بعد وفاته ، ولم يكن الخلاف حول مسألة تعويضه سبباً يمكن ان ينغص حياته الهانئة التى وجدها فى القاهرة ، فقد التقى به ونستون تشرشل وكان شاباً صغيراً فى طريقه الى معركـــة أم درمان ، فى القاهرة بعد عدة سنوات ، وكان يلبس معطفاً من الفراء وحذاء لامعاً ويحيط به جو من الثراء والسلطة(٣) •

تعويض الحكومة المصرية للزبير ماديا :

امتد الخلاف فى مسألة تعويض الزبير ماديا منذ جـــاء الى مصر لمقابلة الخديو اسماعيل لأول مرة فى سنة ١٨٧٥م حيث تقرر يومئذ حجزه فى القاهرة وعدم السماح له بالعودة الى السودان ، فقررت الحكومة فى نفس الوقت صرف مبلغ مائة جنيه شهرياً له كمرتب ثابت مع صرف مرتب آخر لعائلته فى الســودان ، فلما صادر جوردون أمواله وتجارته فى السودان عقب ثورة ابنه سليمان كما تقدم ، اصر الزبير على ان ترد له هذه الاموال التى لم يكن لجوردون الحق فى مصادرتها ، مادام لم يثبت عليه اشتراكه فى هذه الثورة أو التحريض عليها ، ولكن طلبه هذا رفض ، فأضطر ان يرفـــع أمره للقضاء مطالباً الحكومة المصرية بأمواله المصادرة ، وبمبلغ يزيد على المليون جنيه قيمة ما انفقه فى فتوحاتهبالسودان،وكتعويض له عن مقتل ابنه(٤) • وقد ترافع عنه فى هذه القضية السير ماريوت لدى الحكومة الانجليزية بقصد تحصـــيل هذا المبلغ فلـــم يفلـــح ورفضت القضية رفضا نهائيا(٥) •

وعندما رأت الحكومة المصرية أنه قد آن الأوان لتعويض رجلها هذا ، قرر مجلس النظار في أول مايو سنة ١٨٨٣م ضم ما يصرف لعائلته في السودان الى مرتبه مع منحه خمسين جنيها شهريا كتعويض ، ليبلغ جملة مرتبه مائتي جنيه شهريا على ان يكون صرف ذلك اليه مدة حياته ، ومن بعده تصرف لأولاده وأزواجه بحسب القسمة الشرعية بحيث أنه عند وفاة أحد منهم يصير قطع ما كان مربوطا له كما هو مذكور بصورة الأذن الصادر من المالية للروزنامجة في العشرين من مايو سنة ١٨٨٣م • وقرر مجلس النظار أيضا في جلسته المنعقدة في الثامن من نوفمبر سنة ١٩١١م رفع هذا المرتب الى ثلاثمائة جنيه أي باضافة مبلغ مائة جنيه (كمنحة لمساعدته بصفة شخصية محضة علاوة على مرتبه اعتبارا من أول نوفمبر المرقوم بشرط الا يتوارث من بعده) • ولم يكن هذا المبلغ الضئيل ليكفي احتياجات الزبير ومن معه ، وهو الذي اشتهر بالكرم وحب العطاء طوال حياته ومما يذكر بهذه المناسبة ما رواه بعض الكتاب « من أن اظهر صفاته الكرم والشجاعة وحب الفخر والسلطة » • وقد اشتهر كرمه منذ كان ملكا في بحر الغزال ، فقصده الكثيرون من أهل البيوتات في السودان الذين خانهم الدهر فأزال كربتهم وفرج ضيقهم ، وقد ذكر الزبير في بعض مجالسه المبالغ الكبيرة التي أخذها قومه وهو في بحر الغزال ، فبلغ مجموعها نحو العشرين ألف جنيه ولم تزل داره الى الآن (١٩٠٠م) مقصدا عامرا لمن خانه الدهر وخذلته الأقدار من أهل السودان المصري والغربي • والزبير بطبعه أبي النفس ، سهل الجناب ، قوي الارادة ، قريب الى الخير ، بعيد عن الشر ، محب للعلم وأهله ، غيور على الاسلام والمسلمين مع مسالمة الذين على غير دينه وهو لم يزل في معيشته المنزلية من المأكل والمشرب والملبس على نحو ما كان عليه في السودان ، ولكنه اذا خرج لبس الطربوش لباس الافرنج(٦) •

حياته في القاهرة واتصالاته برجال الحكم وكبار العلماء :

استقر الزبير بعد عودته من المنفى بقصر الجيزة(٧) على مقربة من القاهرة ، ومن ثم بدأ سريعا يندمج في تيار الحياة العامة ، ويوالي اتصالاته بكبار رجال الدولة ومشاهيرها من العلماء والادباء ورجال الجيش والحكم ، وكان هو بصفته محبا للعلم وأهله ، فصارت داره مسرحا للمناقشات والندوات العلمية والسياسية من جانب المقربين اليه ، فشارك في هذه الندوات الكثير من الشعراء الذين مدحوه في مصر والسودان ، فاجزل لهم العطاء ومما يذكر عنه أنه شارك بقدر كبير من المال في طبع بعض الكتب الدينية بليدن(٨) ٠

ولم تمض على اقامته بقصر الجيزة مدة كبيرة حتى تركه الى حلوان التي لم يلبث أن طابت له الاقامة فيها بعد زيارته للسودان سنة ١٩٠٥م ، فابتنى لنفسه قصرا فيها ليقضي بقية عمره ٠ وكان الزبير كثيرا ما يمضي وقته متنزها في حديقة قصره ، أو الخروج في عربته الفاخرة الى شاطيء النيل بحلوان ، أو الى ميدان سباق الخيل بالمدينة الذي انشأه واجرى فيه عشرة من اجود الخيول العربية الأصيلة ، أو بين رياض الجزيرة الغناء ، أو الذهاب الى قصر عابدين حيث يستأذن في الدخول على سمو خديو مصر عباس حلمي الثاني ، فيلقاه جنابه الكريم بالبشر والترحاب ، وقد كان الزبير أثناء اقامته بمصر كثيرا ما يقتضيه الواجب من زيارات للأصدقاء والاخوان والمشاركة في الاحتفالات والمناسبات الرسمية ، فاذا ما أقبل المساء عليه أضيئت الأنوار في داره ، وفتحت حجرة الاستقبال لتلقي الضيوف الأعزاء عليه أمثال عبد القادر باشا حلمي حكمدار السودان وافلاطون باشا وعثمان غالب باشا محافظ القاهرة ، والشيخ سليم البشري وصالح باشا صبحي وحسين باشا

فوزى ، وحسين باشا سرى ، وجودة بك ، واحمد الحسيلى بك ، وغيرهم من الأصدقاء الذين انسته عشـــرتهم اهل الســـودان ، فيتسامرون معا ويستزيدون من اخبار السودان التى يرويها لهم(٩)

وقد حفلت الكثير من المراجــــع بقدر كبير من المناقشـــات والندوات التى عقدت مع الزبير سواء فى مصر او الســـودان فى اخريات حياته ، فعلى سبيل الذكر ذكر لنا جاكسون جانبا من هذه المناقشات فقد سأله ذات مرة بقوله لماذا اختارك جوردون لأن تعود معه الى السودان ؟ وقد كنت تاجر رقيق بينما جوردون كرس سنوات عديدة من حياته لكى يضع نهاية لتجارة الرقيق فى السودان ؟ وهنا اجاب الزبير بقوله « ربما فى الحقيقة قد فعلت مثلما فعل جوردون لكى اقضى على تجارة الرقيق ، وعن نفسى لم ارسل للقاهرة قط أى فرد سواء كان عبدا أو طواشيا (خصى) وعندما حرر جوردون جميع العبيد ، فانه فعل ذلك لكى يطلق سراحهم او يعطيهم حريتهم مع ان كثيرا منهم كانوا بعيدين عن أوطانهم كل البعد ، ولا يعرفون كيف يكتسبون معيشتهم فى بلاد غريبة ، وانا اعلم علم اليقين بان تجار العبيد كانوا يهاجمون سكان السودان الجنوبى ، ثم يبعثون بهم الى القاهرة أو الى الشمال ، وللعلم فان مايربو على عشـرة آلاف من هؤلاء العبيد قد ماتوا اثناء نقلهم عبر الطرق وذلك بسـبب سوء المعاملة وسوء التغذية وكثرة ما استعمل معهم من الأساليب الوحشية . ولقد اعتاد جوردون ان يصنع اكواما من عظام هؤلاء العبيد فى اماكن مختلفة خلال مروره لكى يسترشد بها ، ولكى تكون علامة على انه مر فى هذا الطريق ، ويعتبر هذا استخفافا بالحياة ومن يمتلك عبيدا يتطلع الى الوقت الذى يصلون فيه الى القاهرة ، وذلك لا لشىء سوى العمل الذى لا يفتر فى منـــازل الباشـــوات والأغنياء بجانب اننى كرهت بشدة فساد وقسوة الحكومة المصرية ، واردت ان اجمع اكبر عدد منهم ، وكان كل موظف مصرى من حاكم

فالشودة الى الى كاتب مقتنع بتجارة الرقيق ومنهمك فيها ، وعندما القيت القبض على بعض العبيد ، فبدلا من أن اقوم ببيعهــــم قمت بضـــمهم الى جيشى الخاص معطيا لهم اجورا ممتـــازة ، وحياة المغامرات التى يحبونها ويفضلونها ، وكثير من هؤلاء السودانيين الجنوبيين كانوا محاربين عظماء والكثير منهم انضم الى برغبته وارادته الحرة ، ولم يكن لهم أن يفعلوا ذلك لو لم أعاملهم معاملة حسنة وقد كانت جيوشى تصيب النجاح تلو الآخر لدرجة أن تجار العبيد وموظفى الحكومة أصبحوا غيورين منى ، ونتيجة لذلـــك ظلوا يرسلون تقارير كاذبة الى جناب الخديو يخبرونه فيها بأننى انوى القيام بثورة ضد الحكومة ، وعندما طلب منى الخديو الحضور الى القاهرة كتبت اليه قائلا بأننى على اتم استعداد لذلك كما أننى كنت أرغب فى أن أتناقش معه فى أحسن الطرق لادارة الاقليم الذى غزوته بمساعدته ، وقد اخذ الزبير يسترجع فى أيامه الأخيرة بساطة طفولته الشائقة ، وكان الكولونيل برنارد (فيما بعد سير ادجار) واحدا من الذين يحبون استضافة الزبير باشا بغرض الاكرام ، وكان دائما ما يلعب معه لعبة عادة ما كانت اثنى عشر دورا لا يفشل حتى تسبب له سعادة غامرة ، وعندما كان الباشا يحضر لتناول الشاى يجد اريكة خاصة به غير مشغولة معدة لجلوسه ، وبمجرد جلوسه يبدأ فى لعب الحواجز المفتوحـــة ، وعندما بلـــغ الزبير الثمانين من عمره تقريبا ، وأصبح ضعيف البنية خائر القوى بحكم مرور السنين رفض أن يعتقد أنه أصبح رجلا هرما ، وفى محاولة لرفع مؤثرات الشيخوخة عن كاهله كان يلجأ الى الكى بالأسياخ الحديدية المحمومة .

وكان الزبير كما وصفه جاكسون رجلا ذا عبقرية فذة فى التنظيم ، وكان عظيم الكرم الذى سبب قلقا بالغا للحكومة ، وقـــد أعطى معاشا كما سلف الذكر تعويضا له عن فترة أسره بجبـــل

طارق ، ومع ذلك اثبت هذا الدخل انه غير كاف لرجل كان يعيش في بحبوحة أيام كان في جنوب السودان ، وكان العديد من الخدم يسعون اليه ، وكان هناك مجموعة من الفقهاء يجلسون خارج حجرته يرتلون الأدعية والصلوات بدون انقطـــاع ، والحـــراس المسلحون والأسود المقيدة بالأغلال تحرس منزله من التطفل ، ولم يحسن الزبيـر لحظه العاثر لهذا المعاش القليـل ، وظـل يجزل العطاء الى زواره في أم درمان (الجايلى) كما كان سخيا مع الآخرين في الأيام الخوالى ، ولم يكن من المدهش انه عندما انتقل الى رحمة الله ترك خلفه الكثير من الديون التى كان على الحكومة أن تدفعها ، وربما كانت مميزات شخصيته هى التى جعلته في الغالب عزيز القدر للذين يعرفونه جيدا ، ويعرفون ثقته العالية في النظم الانجليزية ، التى خدمها بإخلاص وتفان حتى وفاتـه ، وبالرغـم من الأحداث التى كان يجب أن تستفز أى رجل وتزلزل من ايمانه أو اعتقاده ، فابنه سليمان قد اعدم بأوامر من جوردون ، وهو نفسه سجن في جبل طارق ولكنه رغم ذلك لم يحمل لبريطانيا اى حقد أو ضغينة بسبب ما ناله من قصاص غير مستحسن على يد الانجليز ، معتقد انه عوقب لسوء فهم الانجليز وانخداع السلطات المصرية ، وكان دائما يشير الى فضل السير ونجت في اطلاق ســـراحه من جبل طارق . وقد حدث في سنة ١٨٩٩م أن قامت بعض الفرق السودانية بالتمرد بتحريض من المصريين ، ولكن الجنرال ونجت الذى كان كان قد عين لتوه حاكما عاما للسودان ، وسردارا للجيش المصرى نجح في حفظ الأمن والعمل على استتباب الأمور ، ولم يلبث ونجت بعد القضاء على المتمردين أن استلم الكثير من خطابات التهديد ، ولكن لم تلبث الأوضاع أن هدأت ، وحضر كثير من الناس ومعهم الزبير باشا الى محطة السكة الحديد لتوديع السير ونجت وحرمه عند سفرهم الى الاسكندرية ومنها الى ميناء تريستا ، وعند وصول

السير ونجت الى المكان الذى بجوار الرصيف الذى ترسو عليه السفن دهش لرؤية الزبير باشا يخف نازلا من العربة التالية لعربته وكان هناك فى هذا اليوم حشد وازدحام غير عادى ، فطلب السير ونجت من الزبير باشا أن يسير معه ، وكان ونجت متحيرا جدا لوجود صديقه القديم على الدوام يتوسط بشخصه بينه وبين هذا الزحام ، وعند وصول السفينة شكر ونجت الزبير على مجيئه من القاهرة الى الاسكندرية لتوديعه مرة اخرى ، وهنا أجاب الزبير بقوله « قد وصل مسامعى انه كانت هناك محاولة تدبر لاغتيالك فى الاسكندرية ، ولكن اسالك الاعتذار لتوسطى بينك وبين حشود مستقبليك ومودعيك ، ولكننى كنت عازما على الا تصلك اى رصاصة قاتلة عدا التى تخترق جسمى »(١٠) .

كانت هذه احدى المناقشات التى دارت بين الزبير وجاكسون فى اخريات ايامه ، وقد تبينا من خلال هذا الحديث مدى الاقتناع القوى للكاتب بشخصية الزبير ، واكثاره من المديح والاطراء له وعرض الصفات الطيبة التى كان يتحلى بها وما كان فى ماضيه السياسى والعسكرى فى السودان من مغامرات ومسئولات مع الحكومتين المصرية والانجليزية ، كما نستشف من هذا الحديث مدى أعزازه وحبه للسير ونجت الذى كان له فضل الافراج عنه عندما كان فى جبل طارق ويشير هذا الحديث أيضا الى مدى اخلاص الزبير للحكومة المصرية ووفائه لها عندما عرض عليه الانجليز فى جبل طارق تولى الحكم فى السودان ، كما أشار هذا الحديث الى مدى اخلاص الزبير للانجليز رغم مافعلوه معه .

اتصال الفرنسيين بالزبير فى مصر :

حدث اثناء اقامة الزبير فى القاهرة وبالتحديد فى سنة ١٨٩٦م أن زاره سرا فى احد الأيام بعض كبار الفرنسيين من أصحاب

النفوذ في بلادهم ، وجلسوا معه الى ما بعد منتصف الليل بساعتين يحاولون اقناعه بالتوسط بينهم وبين رابح لعقد اتفاق لوقف الحرب الدائرة بينه وبينهم بسبب (برنو) التي كانوا يريدون الاستيلاء عليها ، أو يطلب منه الزبير الانسحاب منها بمقتضى الاتفاق الذي يتم عقده معهم ، وقد عرضوا على الزبير نظير ذلك مبالغ طائلة من المال ، كما ابدوا له استعدادهم لتنفيذ كل ما يطلبه منهم دون أدنى اعتراض ، غير ان الزبير رفض قبول عروضهم هذه أو للتوسط بينهم وبين رابح • وذلك لأن الزبير كان قد نفض يديه من أمور الحرب والقتال ، وما يجري في السودان منذ مصرع ابنه سليمان • وكان لذكر اسم رابح وانباء الحرب والغزو رد فعل في نفسية الزبير جعلته يحس بريح حزينة تهب في صدره ، وتسود له مواكب الماضي وذكريات أعوام طويلة قضاها بين رائحة البارود وحلاوة النصر من معركة الى أخرى • وقد كان اخر ما اتصل باخبار رابح بعد ان رفض التسليم لرومو لوجسي مع سليمان ابن الزبير ، أن مضى نحو الغرب ومعه الف من الرجال المسلحين الى ان وصل برنو ، ففتحها واسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته دكوه جنوبي بحيرة تشاد الى أن دخلت برنو هذه في نطاق النفوذ الفرنسي ، فجردوا عليه جيوشهم ، ولكنه كان ما يزال القائد الذي سار تحت لواء الزبير من نصر الى نصر ، فهزم هذه الجيوش في اكثر من معركة دامية • ولهذا السبب التجأ الفرنسيون الى الزبير للتوسط بينه وبينهم ولكن الزبير خيب آمالهم(١١) •

وتذكر المصادر التاريخية أن رابح كان قد قضى على بعثة للفرنسيين في سنة ١٨٩١ يقودها كرامبل J. Crampl وفي نفس العام قضى على بعثة فرنسية أخرى يقودها الملازم البحري بريتونت Bretonnet عند توجوبا Togoba بعدها اتخذ الفرنسيون في سبيل التغلب عليه خطوات فعالة ومؤثرة حتى

قتل على يد قوة فرنسية بقيادة جنتيل Gentil حاكم امارة الشارى بالقرب من بحيرة تشاد(١٢) ٠

وقد كان الموقف الذى اتخذه الزبير من عرض الفرنسيين موقفا سليما لا يمكن الطعن فى صحته ، فقد أبت عليه كرامته ووطنيته وأخلاصه كقائد عسكرى ، وزميل كفاح قديم لرابح أن يدنس يديه بهذه الأموال ، او ان يقبل عقد اتفاق لا يعلم هل يرتضيه رابح أو لا ؟ . كما انه ليس من المستبعد ان يكون هؤلاء الفرنسيون مدفوعين دفعا من قبل اعداء الزبير من الانجليز وغيرهم لاختبار مدى حياد الزبير من جهة ما يدور فى السودان ، وخاصة بعد عودته من الأسر ، او العمل على ايقاعه فى شرك الموافقة تحت تاثير الأموال لكى يمكن اتخاذ موافقته هذه ذريعة تثبت عليه امكانية معاودته الاتصال بقواده القدامى للتدخل فيما يحدث فى السودان بأى صورة من الصور ، وفى هذه الحالة يتيح لأعدائه الفرصة لأن يفعلوا به ما يشاءون ، ولكنه كان الرجل الذى لا يلين امام اغراء المادة ، فأوصد بذلك الأبواب جميعها أمام من أرادوا له المكيدة وأبت عليه وطنيته وشرفه العسكرى خيانة زميل كفاح قديم ٠

السماح للزبير بالسفر الى السودان :

لم تملك السلطات الانجليزية والمصرية فى القاهرة بعد مضى ثلاثة عشر عاما على عودة الزبير الى مصر من منفاه بجبل طارق ، واجتيازه فترة الاختبار هذه بنجاح تام ، وتأكد أولى الأمر من حياده وانصرافه كلية عن الاهتمام بالشئون السياسية والعسكرية ، وما آلت اليه احداث السودان من تطورات سريعة الا ان تعمل على توفير جو من الثقة والأمان لهذا الرجل ، وترد اليه ثقتها فيه ، ومن

ثم أعاد اليه كرومر فى سنة ١٩٠٠م ماصودر من أملاكه فى عهد جوردون(١٣) ٠

كانت هذه الخطوة التى اتخذتها الحكومة فى سبيل تصفية جو الخلاف وعدم الثقة الذى كان قائما بينه وبينها ذات اثر طيب فى نفسية الزبير وتبع هذه الخطوة من جانب الحكومة خطوات أخرى بعد سنوات قليلة تأكيدا لاعادة ثقتها فيه ، وهى السماح له بالسفر الى السودا ن، وكان ذلك فى اواخر سنة ١٩٠٢م ، وكان الزبير فى هذه الآونة قد بلغ من الكبر مبلغا ، فقد قارب عمره فى هذه السنة على الثانية والسبعين ، واصبح الطريق ما بينه وبين النهاية المرتقبة قريبا جدا ، وقد طالت به أيام الفراق والبعد عن الأهل والوطن ، واخذ حنينه وشوقه يزداد بعد غياب للعودة الى بلاده لكى تكتحل عيناه برؤية الأرض التى ولد فيها والربوع التى عاش عليها ، وقضى فيها معظم مراحل حياته تاجرا وقائدا وفاتحا مظفرا ينتقل من نصر الى نصر ، ولم يكن قرار الحكومة الخاص بالسماح للزبير بالسفر الى السودان قرارا عشوائيا أو ينطوى على نوع من الشفقة أو العطف عليه ، بل جاء نتيجة الأسباب التى اشرنا اليها بالاضافة الى استقرار الأوضاع فى السودان السياسية والعسكرية ، بعد ان تم استرداده والقضاء المبرم على النفوذ الفعلى للمهديين واستئصال شأفتهم وذلك بمقتل خليفتهم عبد الله التعايشى فى موقعة أم درمان ٠

وصل الزبير الى الخرطوم فى اواخر سنة ١٩٠٣م وأمضى فيها عامين زار فيهما اهله وعشيرته ، ودبر أمر املاكه التى ردت اليه وادارة شئونها ، وابتنى له دارين فى أم درمان (الجيلى) وقضى بين اهله هناك فترة استعاد فيها الكثير من ذكريات الأعوام الماضية(١٤) ٠

وقد بادر أحمد افندى سيف النصر لدى وصول الزبير رحمة الى الخرطوم باستضافته فى منزله الخاص فى ام درمان ، فسر الزبير باشا سرورا عظيما لهذا الاكرام ، وكان حمدى افندى وقتذاك مأمورا لمدينة ام درمان وله النفوذ والسلطان ، وكان اهل السودان فى ذلك الحين اشبه ما يكونون بالمريض الذى نجا من الخطر وبدأ يسترد عافيته رويدا رويدا ، وذلك بعد مانزل بهم من محن على يد حكومة عبد الله التعايشى خليفة المهدى ، فقدم حمدى أفندى الممكن والمستحيل من الخدمات لحفظ مكانة الزبير باشا فى اعين قومه مما حببه الى قلوب السودانيين وجعل الألسنة تلهج بالشكر والثناء عليه حتى ان الزبير باشا نفسه خاطبه ذات مرة بزجل سودانى اخذ القوم هناك يرددونه فى مناسبات شتى(١٥) ٠

وقد حدث فى اثناء وجوده بالسودان فى يناير سنة ١٩٠٥م ان بلغه خبر زيارة صديقه الشيخ محمد عبده لربوع السودان ، فتاقت نفسه لرؤيته والتشرف بدعوته لزيارته فى مزارعه بالسقاى ، وهى تقع شمالى الخرطوم وتبعد عن الجابلىبمقدار عشرة كيلو مترات وكان قد ابتنى له فيها قصرا من طابقين ، غير انه كان يعانى فى هذه الأيام من وعكة الزمته الفراش فرأى ان يوجه الى الشيخ محمد عبده كتابا يدعوه فيه لزيارته فكتب اليه يقول :

من الزبير رحمة باشا العباسى بالسقاى ، الى رئيس العلماء الكرام وزين الاكرمين الفخام ، عزيز الأصل ، وشريف الحسب والنسب ، جناب حضرة محمد عبده مفتى الديار المصرية والأقاليم السودانية ، دام معززا مكرما أمين ٠ بعد تقديم السلام المشتمل على الأيادى والاقدام ، بغاية كل ادب وخضوع وزيادة احترام ، مع سؤالى القلبى عن صحتكم وعما انتم فيه وعليه من الأمور الخيرية ، التى نرجو دوامها عليكم بكرة وعشية ، انه على ما يشاء قدير ،

وبالاجابة جدير ، ثم احيط شريف علمكم وهو أنه قد بلغ مسامعى حلول اقدامكم الشريفة بعاصمة بلادى السودانية بالخرطوم ولما بينى وبينكم من المحبة والمودة الخالصة والمخلصة ، فلا شك ولا ريب أن تكون الآن انت ضيفا لى خاصة دون اشراف السودان كلها ، وقد كنت قبل قيامكم من مصر فرحا مسرورا بقدومكم وتشريف بلادى بها مستعدا لتشريفى بمقابلة ذاتكم مع أول كرام الناس المستعدين لمقابلتكم · ولكن يااسفا وياأسفا قد منعنى ما منع قبل أبرهة الحبشى عن البيت الحرام عن مشاهدتكم وتشريفى بمقابلتكم بسبب ما حدث لى من اللطف الشديد ، ولغاية تاريخه ملازم الفراش، انتظر العفو من الله عز وجل ، وارجو من كرمكم المشهور قبول ما تضمنته هذه الرقعة بالنيابة عن شخصى مع أسفى وعدم مرادى ، كما أن الأمور كلها تجرى بحسب مقادير الله تعالى ، وليست تجرى على حسب خواطر العباد ·

واهنيكم وثم اهنيكم واهنى اشراف بلادى كلها من علمائها الكرام واشراف قبائلها بقدوم اقدامكم السعيدة ووصولها بعاصمتها بالخرطوم ، واهنى نفسى غاية ونهاية ملحوقا بهم ، اعادكم الله تعالى الى مصر سالمين غانمين ، معززين مكرمين،فرحين،مسرورين، من علمائنا جميعا ، واهالينا آمين ·

وفى الختام اقبلوا فائق الاحترام ·

٢٦ يناير سنة ١٩٠٥م

الزبير رحمة باشا العباسى بالسقاى

كاتبـــه

وقد أعتذر الامام عن عدم الزيارة أعتذاراً رقيقا لضيق وقته . وقد زاره بعد ذلك فى حلوان بعد عودته ألى مصر فتذاكر معه فى شئون السودان(١٦) ·

لم تستمر زيارة الزبير للسودان سوى عامين حتى عاد الى مصر حيث اقام فى حلوان التى بنى له فيها قصرا وكان يقيم قبل ذلك فى قصر احمد حشمت(١٧) ٠

وقد اقام الزبير فى قصره بحلوان خلوة لتعليم الصغار القراءة والكتابة والدين ، وقد اختار لهذه الخلوة الشيخ سيتى وكان هذا الشيخ يدعو الزبير باشا عند قراءة فاتحة الكتاب ، وكان من ضمن التلاميذ ابنه سعد الدين الزبير وقد حفظ القرآن على يده ٠ ومما يذكر عن الزبير فى آخريات حياته انه كان يجلس عقب صلاة الجمعة بين أهله فى مكان ما فى حديقة منزله الواسعة ، ثم يأمر بوضع هدف على بعد مناسب ، ثم يتبارى الابناء فى محاولة اصابة هذا الهدف ومن ينجح فى اصابته ينل جائزة مالية من الزبير(١٨) ٠

الشعر فى حياة الزبير :

وحديثنا فى هذه النقطة ينقسم الى قسمين :

أولا : كيف استطاع الزبير أن ينشىء شعرا ؟ وما هو هذا الشعر ؟ ٠

ثانيا : ما قاله الشعراء من شعر فى مدح الزبير واشادة بسه وببطولاته فى حياته وبعد مماته ٠

أولا : ما أنشده الزبير من شعر فى حياته :

ولابد لنا أن نقف قليلا لنرى كيف ان الزبير التاجر المعروف والقائد المظفر قد دخل فى حياته الشعر ، برغم ما حفلــت به من المشاغل والأحداث الجسام المتتابعة التى لم تعطه الفرصة المناسبة لكي ينشيء شعرا بالمفهوم الأدبى المعروف لدى الشعراء ، كما انه لم يكن لديه موهبة قرض الشعر ، علاوة على أنه لم يدرس أصول

قرض الشعر . ولكن الشيء الذى يمكن أن نعزو اليه قيام الزبير بانشاء الشعر هو أن البيئة التى ولد فيها قد ساعدته الى حد كبير على ذلك ، يضاف الى ذلك المواقف العصيبة التى تعرض لهما واوقعته فريسة للكثير من الضغوط النفسية فكان يلجأ الى قرض الشعر تفريجا عن نفسه الحزينة .

ونصل الى القول بأن ما انشأه الزبير يشبه الشعر الى حد بعيد ولكن فى صورة أزجال انتظمت فى عدد قليل من القصائد القصيرة التى لا تحكمها قواعد لغوية معينة ، وقد قالها وهو فى ظروف نفسية صعبة اضطرته لانشائها لكى يفرج بها عن نفسه ويسلى بها وحدته ، فحين كان اسيرا بجبل طارق كان كثيرا ما يختلى بنفسه ، وتهيج اعماقه بنوازع الغربة ، ويشتد حنينه الى دياره واهله وما كان فيه من عز وسؤدد ، فكان ينشىء القصائد التى يبثها همه وما يجيش به صدره على الطريقة التى ينشىء بهما بها الشعراء السودانيون قصائدهم ومن هذه القصائد قصيدته التى انشأها وهو فى جبل طارق يقول فيها :

بعد الأهل والونسه	وبعد العز والحرسه
بعد انتظام العساكر المؤسسة	وبعد فرسان تمشى المقصه
انقلب الدهر وانعكس	بحبس الزبير فى الأندلسه
يارب ياخالق الكون يا مؤسسه	عجل بالفرج قبل النفسه
نرجع ونشوف عزا مؤسسا	من فضلك ياكريم لاينقصا(١٩)

ومما قاله أيضا وهو فى جبل طارق تلك الأبيات :

ياليل مانى هيـن ولانى هوين	فى الكفر والاسلام أسمى بيـن
وفـى قومـى هناك بيتى بيـن	للمسافر والمقيم قدحى ليـــن
ولجارى والعشير جانبى ليــن	للاقارب والارحام بعطى بهيـن
توفيقا من المولى الكريم المهيمن	وكل شى منه والأمر بين(٢٠)

وقد سأله حمدى أفندى سيف النصر ذات مرة عما كان ينتابه من هموم وهو أسير فى جبل طارق فأجابه « كنت ادوبى » أى أغنى بغناء السودان وأخاطب أعضاء جسمى لأن الحـــراس لا يفهمون لغتى ، وانا اجهل لغتهم ايضا فكنت أقول :

كـم يا الســاق اخلفنــاك فـوق بشــاريه
وكـــم اليد جلدنـــا بـك جنــى الوحشــية

وكم يا الفـم إنعمنــاك مـرارة وشــــيه
ســـتين لمـــوم أهـــل العصـر عاريـة(٢١)

وكما كان الزبير ينشيء شعرا لنفسه كان ايضا يردد بعض الأبيـات التى كان يحفظهـــا ويرتاح بترديدهـــا فى منفاه بجبـل طارق منها :

ســلوا أم عمـر كيــف بـــات اســـيرها
تفـك الاســـرى دونـــه وهـــو موثـــق

فمـــا هـــو مقتـــول ففـــى القتـل راحــــة
ولا هـــو ممنـــون عليـــه فيطلـــق(٢٢)

لقد أمتدح الزبير حمدى أفندى سيف النصر ذات مرة نظير الخدمات التى قدمها للزبير حين عودته للسودان ، واستضافته له فى منزله ، هذه الأبيات :

انت يا حمدى رفيقى وتمام كيفى
ودرجة عصاى وبلاى وسيفى
مطمورة فلاى مونة خريفى وصيفى
ستار عيوبى عن نساى وجارى وضيفى

وقد اخذ القوم يرددون هذه الأبيات فى شتى المناسبات(٢٣) ٠

ثانيا : ما قاله الشعراء فى مدح الزبير والاشادة به وببطولاته فى حياته وبعد مماته ٠

ويتلخص حديثنا فى هذه النقطة فى أن كثير من الشعراء المصريين والسودانيين قد امتدحوا الزبير رحمة مشيدين ببطولاته وامجاده وشجاعته وشخصيته المحبوبة فى حياته وبعد مماته ٠ وكان على رأس هؤلاء الشعراء شاعر النيل العظيم حافظ ابراهيم ، وكذلك شاعر السودان المشهور أبو شوره وهو فى نفس الوقت شاعر بلاط الزبير الخاص ، وكذلك الشاعرة السودانية المشهورة بنت مسيس ، وفى الأسطر القادمة سوف نرى ما قاله هؤلاء فى مدح الزبير ٠

ويروى لنا صاحب كتاب الفروسية فى الشعر الشعبى السودانى أن شاعر الجعليين أبو شوره كان على الاخص شاعر البلاط للزبير ، ويصف أبو شوره قتال الزبير وقواده ضد حملة البلالى سنة ١٨٦٩م بقوله :

نقتك ذقن الرجال	ساها الدقيقة ام طوطة
فى اليوم ابا حرب	ستك نقر مبسوطة
بوارق عنقرة وحامد	البسى وذلك مفروطة
سكيت البلالى	من وقع فى البوطة

وتصف الشاعرة بنت مسيس فروسية الزبير فتقول :

سموك الزبير فارسا تشد الحيل
وسموك الزبير فارسا لصد الخيل

وسموك الزبير صالحا تقيم الليل
وسموك الزبير بتغير هوية الليل

قاهر

والعاصي باقي لكير

قاهر

والعاصي باقي لكير

وهناك قصة تذكرها عن الزبير وهو انه قد بلغه أن الخارجين على النظام من عرب الرزيقات قد قتلوا أخا لهم وبعض التجار السالكين بطريق القوافل ما بين بحر الغزال وشكا ٠ وكانت رؤياه منامية وقد عرف بصدقها ، فاصبح الزبير متجهم الوجه لا يستطيع احد أن ينظر اليه أو يفاتحه فى أمر .. فأمر الزبير بسرج فرسه فعلم الجميع أن هناك غزوة جديدة ، ولخشيتهم من سؤال الزبير عن الجهة المتوجهين اليها ، اتفقوا جميعا أى قواد الزبير على أن يجعلوا للشاعر أبى شورة نصيبا من المال والعبيد أن هو تمكن بلباقته التى عهدوها فيه والذكاء الحاد من معرفة الجهة التى ينوى الزبير غزوها ، وقطعوا على أنفسهم عهداً بذلك اى بدفع ما اتفقوا عليه لأبى شوره ، فهيأ الشاعر نفسه لذلك الموقف وبعد اسراج الخيول ، وامتطى كل واحد صهوة جواده ، اسرع الشاعر ابى شوره الى فرس الزبير ، وامسك بعنانه ، فما وضع الزبير قدمه على الركاب حتى انشد الشاعر ابى شوره ووجهه فى اتجاه مغاير عن الزبير قائلا :

ابو مشي الحسك يخلـــع

تعزل في القلوب بهم تبلـــع

الوجـدال تــزرع وانـت بتقلـع

غــاطس يا ادراتيـش مقلـــع

فرد الزبير بحزم قائلا « شايل قللا » وهي اسم بلد ، فاسترسل أبي شورة بعد ما عرف المكان الذي سوف يتوجهون اليه للغزو ·

ويذكر المؤلف أن غزوات الزبير تذكره بذلك الفارس الشاعر العربي دريد بن الصمة الذي قيل عنه انه غزا مائة غزوة في بلاد العرب ، كما خلد أبو الطيب المتنبي سيف الدولة بن حمدان وغزواته لاستتباب ملكه في بلاد العرب والروم · وعلى كل فليست هنــاك فروسية دون أن يكون لها فرسان مغامرون يتمايزون في صفاتهـم واقتحامهم لمواطن الاقدام ، لكي تعرف دروب الفروسية ومقاييسها بينهم ، ولولا الحياة الفانية ولقاء الموت في الميادين لربما اختلت الفروسية وتلك الفضائل والمميزات يصورها الشــاعر أبو الطيب المتنبي فيقول : —

ولا فضــل فيهـا للشــجاعة والنــدى

وصـــبر الفتـــى لـولا لقـــاء شـــعوب

ويقول الكاتب ان الأبطال لم يعدموا هذا التمييز لتاريخهــم ومآثرهم الحية ، لذا كان جريا ان يتغنى الشعب السوداني ببطولة الزبير ود رحمة ، وأن تنال مواقفه واعماله ورسالته التي اداهـــا كثيرا من تمجيد البطولة والكرم والنبل ، ولولاه لفقد الســـودان مساحات ومديريات شاســعة اضـــيفت رقعتهـــا الى الجمهورية

السودانية ، ولولا بعض العقبات لكانت هناك اقطار أخرى ضمن نطاق السودان(٢٤) ٠

وعندما انتصر الزبير باشا على عرب الرزيقات أخذ انصاره ينشدون له أنشودتهم المشهورة وهى :

« حد باى فرط بوارقه حاقتل عربيا رابطة الدرب جاى نخاس زمانه ياناس حد باى » ومعنى هذه العبرة ان الزبير باشا الشجاع جاء بخيله ورجاله واقتص من الأعراب قطاع الطرق وحد باى ٠ لقب من القاب الفرسان عندهم(٢٥) ٠

وقد مدحته الشاعرة المشهورة بنت مسيس مرة أخرى بقصيدة نظمتها له بعد نزوله الى مصر منها قولها :

فـي الخرطـوم نـزل ادانـي بالباجـور
وفـي بربـر رسـا بالقهـوة غفره بـدور

جابـوا لــه الجمـال الوجـه العتمـور
حلـق الريـف نـزل قـال لمصـر دسـتور

فـي بلـد النصـارى كـم سحت بالباجور
كـل صـبح جـديد راكـب علـى الملتور

من قمـت الجهـل انت المقـديم ماصـور
ادوك الإمـان خـديفين عليـك الجـور

في السودان قبيـل ما يشـبهوك الناس
ويا جبـل الذهب الصـافى الشـاك نحاس

يـاروذ النصـارى عن قصـزة الكيـاس
خليـت المجـوس اليـس مـن القرطاس

عـدى عصره زين في ديار بـلاد النـاس
وفي دار الغروب دقيـت للرجـال اسـاس

كم قتل السـلاطين خلـى الديـار يبـاس
ود رحمة الزبير قام الرجالة خـلاص(٢٦)

وهذا الشعر الذي انشدته الشاعرة بنت مسيس غريب فـي الفاظه غامض المعنى وليس من السهل فهم معانيه بسهولة لأنـه يميل الى العامية أكثر من ميله الى اللغة الفصحى ، وكانت هذه عادة شـعراء السـودان ان ينشئوا شـعرهم بالعامية ليسـهل ترديده بين العامـة •

واخيرا فقد رثاه شـاعر النيل العظيم حافظ ابراهيم عندمـا بلغه نبأ وفاته ، وكان عندئذ في طريقه الى السودان ليستشفي من مرض أصابه فتحركت حينئذ أشجانه وهو يهل على السودان بعد ان غاب عنه أسده ، واقفرت رباه من صورته فكتب يقول :

يـا روضـــة النيليـن جئـت مسلمـــا
فعليـك مـن لـــدن الالـــه ســـلام

لـي فـي ربوعـك مـن رجالك معشـر
شـــم ، اذا جـــار الزمـان كـــرام

ايـن الزبير ؟ ابو الفـوارس والنـدى
قـد غيبتـــه عـــن حمـــاك رجـــام

قـد كـان فخــرا للبـــلاد وذكـــره
بـــاق بهـــا ماكـرت الاعـــوام

كفـــاه سودنـــاه كفـــة حاتـــم
جـودا ، وكفــة عنتــر وحســــام

ولـــى فــاودع كـــــل قلــب حســــرة
ويكــى عليــه العــــرب والأعجـــــام

فحبـــــاه رب الكائنـــــات نعيمـــه
وسـقى ثـراه مـن السـماء غمام(٢٧)

وهكذا حفلت حياة الزبير بالشعر الذى مدحه به الكثير من شعراء مصر والسودان كذلك ما قاله وانشأه من شعر لكان يردده دائما عندما يضيق صدره أثناء فترة أسره بجبل طارق وهى الفترة التى شهدت كثرة ترديده لهذا الشعر ·

رحلة الزبير الأخيرة الى السودان :

بعد طول اقامة الزبير فى مصر امتدت لسنوات عديدة بدأت منذ وصوله اليها فى العاشر من يونيو سنة ١٨٧٥م حتى تاريـــخ رحلته الأخيرة الى السودان فى العاشر من أغسطس سنة ١٩١٢م لم يبتعد فيها الزبير عن مصر الا مرات معدودة ، بدأت بسفره فى الرابع عشر من أغسطس سنة ١٨٧٧م ضمن الحملة التى ارسلتها مصر لمساعدة الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا ، ثم عودته منها فى السنة التالية ، والمرة الثانية التى ترك فيها مصر عند نفيه الى جبل طارق فى يوليو سنة ١٨٨٥م ، ثم عودته من المنفـــى فى أغسطس سنة ١٨٨٧م · والمرة الثالثة هى زيارته الاولى للسودان فى أواخر سنة ١٩٠٣م ، وعودته منها فى أوائل سنة ١٩٠٥م · وبحسبة بسيطة نجد ان الفترة التى قضاها خارج مصر فى اسفاره هذه لم تزد على خمس سنوات بينما امتدت اقامته فى مصر الى السبعة والثلاثين عاما ، وبذلك يمكن القول بأن مصـــر أصـبحت بالنسبة للزبير بمثابة الوطن الثانى ، ولكننا لا نستطيع ان نقول انه قد اصبح مواطنا مصريا ، لانه بالرغم من طول مدة اقامته فى مصر ،

وبالرغم من أسفاره الكثيرة خارجها والأحداث والظروف التي مر بها، والشخصيات التي احتك بها وعرفها ، وبالرغم من المظاهر الحضارية التي لمسها في مصر وخارجها ، فان كل ذلك لم يجعله يفرط في التمسك بسودانيته ، وكل ما يتصل بها من عادات وتقاليد انعكست صورتها في شخصيته وسلوكه اللذين حببا اليه الكثيرين ممن عرفوه واتصلوا به ، وان كان قد تأثر بنواح اخرى تعتبر أسساسا من النواحي المظهرية التي لا تمس الجوهر في شيء وهو جانب الزى فكان كثيرا ما يرتدى البدلة والطربوش وهما على غير لبس أهل السودان · الا انه رغم ذلك عاد الى وطنه السودان وهو متمسك بكل ما هو سوداني فحق لوادى النيل أن يفخر به ويضعه بين عظمائه ·

تاقت نفس الزبير للعودة الى الوطن بعد ما هرم جسمه ، واعتلت صحته ، وبلغ من الكبر مبلغا ، وأصبح الطريق بينه وبين لقاء ربه قريبا ، فرأى أن يقضى ما بقي له من عمره بين أهله وذويه ، وكان قد تمنى على الله يوما انه اذ ما أدركته المنية أن يوارى جسمانه في تربة وطنه لتحتضن ذلك القلب الذى شرب من ماء النيل ، فكان لا يكف لحظة واحدة عن أن يخفق من أجله · فما اقبلت امسية العاشر من اغسطس سنة ١٩١٢م حتى كانت محطة القاهرة للسكك الحديدية قد بدأت تموج بحشود المودعين من كبار رجال الدولة والجاليات الاجنبية ، وقد أحاطت بقطار خاص أعدته الحكومة ليقل الزبير رحمة والثلاثمائة من رجاله المخلصين ، وهى الحاشية التي عاشت في كنفه راضية سعيدة ، الى السودان · بينما كان في الجانب الآخر عربة صغيرة تخترق شوارع القاهرة تحمل ابنه سعد الدين من المدرسة الحربية متجهة الى المحطة لكي يشارك في وداع ابيه ولكي يتزود منه بالحنان الذى يغمر به الوالد ابنه ، وكذلك لكي يتزود بالنصح والارشاد اللازمين لابن صغير ، فمرقه

والده من ملابسه الرسمية ونادى عليه ثم عانقه ، وفى هذه اللحظة انهمرت دموع الفراق على وجنتى الأب والابن ، ولم يستطع كل منهما أن يمنع نفسه بما تفيض بما كانت تكتمه من شجن ، فكان منظرا مؤثرا حقا ، ولكن سرعان ما استعاد الزبير رباطة جأشه وأخذ يوصى ابنه بالنصائح اللازمة وبالسمعة الحسنة والمسلك الطيب والجد والمثابرة ، ثم حاول أن يطمئنه فمضى يحدثه بأنه قد أوصى المسئولين فى القاهرة بأن يكون الحاقه بعد تخرجه هو انتهاء دراسته بالقوة المصرية بالسودان حتى يكون الى جواره ، ولكنه كان اللقاء الأخير بين الأب وابنه ثم تحرك القطار والزبير يدعو لابنه بقوله « هداك الله وأبلغك مناك » وسافر الزبير الى السودان وترك مصر فكانت رحلة بلا عودة(٢٨) .

وفاة الزبير باشا وهو بالسودان :

توفى الزبير فى صباح السادس من يناير سنة ١٩١٣م بعد حياة امتدت الى اثنين وثمانين عاما ، التقى فيها بالموت فى ساحات القتال وميادينه أكثر من مائة وخمسين مرة ، فكن يلقاه فى كل مرة أسدا هصورا يصول ويجول ويزوغ منه دائما وينتصر عليه ، وقد بلغ نبأ وفاته الى ابنه سعد الدين فى مصر حيث استدعاه قائد المدرسة الحربية وأنهى اليه نبأ وفاة والده . وعرض عليه باسم الحكومة المصرية اعانة مالية ، مع رغبتها فى أن يكون سفره للسودان فى الحال هو ومن يرغب من أفراد أسرته على نفقتها . وفعلا سافر الابن سعد الدين الى السودان بينما كانت الأمور تجرى على نحو آخر فيها فقد نكست أعلام الأمة بأكملها حدادا على وفاة الزبير ، وعطلت المصالح والمتاجر ليشترك الجميع فى مراسم ذلك الاحتفال العسكرى المهيب الذى أعدته الحكومة لتشيع به جثمان الفقيد الراحل الى مقره الأخير فى الجابلى . ومضى النعش على

عربية مدفع تحف بها الأورطة الثالثة عشرة السودانية بموسيقاها ، ومن خلفه مضى كبار رجال الحكم فى السودان وأعيانه ، وكبار أفراد الجاليات الأجنبية هناك ، الذين حضروا فى قطار خاص قام بهم من الخرطوم الى الجايلى للاشتراك فى تشييع الجنازة • وكان على الجانبين يقف الأهلون ومعهم الرجال الذين ذاقوا حلاوة النصر فى ميدان القتال تحت أعلام القائد الراحل ، وقفوا يتطلعون الى المشهد الباكى الحزين ، وفى عيونهم دموع الحزن وفى قلوبهم حزن أعمق •

وقد بلغ ابنه سعد الدين الزبير السودان بعد أن تم كل شيء متعلق بمراسم الجنازة وانتظر يتقبل مع الأسرة ما فاضت به قلوب الجميع من عزاء ومواساة ، ولم يكن والده فى هذه اللحظة هو الذى مات بل كان الذى مات هو رجل مصـــر والسودان قبل كل شيء وفى يوم الاثنين الموافق ٦ يناير سنة ١٩١٣ م كتبت جريدة الاهرام بعددها (٢٩) ١٥٩٣ تحت عنوان الزبير باشا تنعى رجل السودان المشرق والغرب كله وتقول « وصل الينا والاهرام تطبع نبأ وفاة المرحوم الزبير باشا رحمة السودانى المشهور ، وقد توفى رحمه الله فى أم درمان بين أهله وذويه ولا متسع اليوم لبسط شيء من تاريخه وشهرته فى مصر والسودان يكاد يغنى عن تعريفه تغمده الله بطيب رحمته ورضوانه والهم أهله وذويه الصبر الجميل » • وهكذا توفى الزبير باشا والأمة السودانية كلها حزينة على فراقه كذلك كل من فى مصر بل فى العالم العربى بأجمعه • وذلك لأنه فقد بطلا من أبطاله الذين صنعوا للسودان تاريخا حافلا بالانتصارات ، ولايفوتنا أن نذكر فى نهاية الحديث عن الزبير رحمة ان السيف الأثرى ذا المقبض المرصع الذى كتبت عليه عبارة الحروب الصليبية ، والذى كان قد أهداه الخديو اليه عقب عودته من منفاه بجبل طارق ، يرقد

الآن فى المتحف البريطانى بلندن وهو أمر لا ينبغى السكوت عليه بل يجب المطالبة به من جانب الحكومة السودانية .

هكذا كانت نهاية الزبير باشا التاجر الناجح ، والفاتح المنتصر ، والقائد المظفر بعد حياة امتدت الى اثنين وثمانين عاما حفلت على طولها بالكثير مما لايستطاع حصره من الوان الكفاح والنجاح فى ميادين الحرب والمغامرة . لذلك فانه لايعوزنا فى هذا المقام أن نعيد ذكر ما حفلت به حياة هذا الرجل العظيم من أمجاد وانتصارات او سرد ما تحلى به من صفات طيبة ، فقد كفانا ما سبق ذكره فى صلب الرسالة نقلا عن معاصريه من المؤرخيين ورجال السياسة والحكم وكبار العسكريين ، الذين كان منهم أصدقاؤه وأعداؤه ، لايسعنا الا أن نختتم حديثنا عن الزبير باشا بالقول بأنه كان شخصية لها من القوة والعظمة ما يجعلنا نضعها فى مصاف عظماء وأعلام التاريخ ، وقد كانت حقا جديرة بالدراسة والبحث وبذل المزيد من الجهد فى سبيل الوصول الى حقيقة ما حفلت بـه حياته وما اكتنفها من غموض . رحم الله الزبير باشا وهو يكافح فى سبيل وطنه ودينه .



هوامش الفصل الخامس

(١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ٢٠٧ .

(٢) Jackson, H.C. : Behind The Modern Sudan P 100.

(٣) Moorehead, Alan : The White Nile P. 182.

(٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢١٦ .

(٥) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٣ ص ٨٧ .

(٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢١٦ ـ ٢١٧ ، ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٧) قصر الجيزة : وهو خاص بالخديو اسماعيل ولد به الامير احمد فؤاد وكان يكون جزءا من حديقة الحيوان ، وقد نزل به الزبير بعد قصر العباسية الذى كان يقع بجوار شريط السكة الحديد أمام جامعة عين شمس وكان يزوره بقصر الجيزة الامير حسن باشا الابن الثالث للخديو اسماعيل .

(٨) عبد الرحمن زكى : اعلام الجيش والبحرية فى مصر اثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٥ .

(٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٩ ، ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(١٠) Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 105 — 108.

(١١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(١٢) Collins, O. Robert : The Southern Sudan 1883 — 1898 P. 189.

(١٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٦ .

(١٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٤٦ ٠

(١٥) محمد أحمد الجبري : في شأن الله او تاريخ السودان كما يرويه اهله ص ١١٧ ـ ١١٨ ٠

(١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٦ ـ ١٤٩ ٠

(١٧) قصر احمد حشمت : وهو مدرسة محمد علي الابتدائية الملاصقة حاليا لقسم السيدة زينب وهو أول شارع طور سينا بحي السيدة ، وأمام هذا القصر كان يقيم خدمه وحشمه من العبيد أمام حارة درب الشمس ، وقد حدث بالقصر حريق أتى على جميع ما به من النفائس والوثائق والتحف فدمرهـــا ٠

(١٨) من حديث مع ابنه الاستاذ محمد جميل الزبير رحمة الذي يقطن حاليا بمنطقة امبابة على النيل في أحد العوامات امام مبنى وزارة الثقافة ٠ وهو من أصغر أبنائه ويبلغ من العمر السبعين عاما وله ولدان ، وقد اعتاد التردد علي السودان سنويا لمباشرة أعماله ومصالحه هناك وقد استطعت مقابلته اكثر من مرة للحصول علي ما يمكن الحصول عليه من معلومات أو وثائق واخيرا ارشدني الي بعض النواحي المهمة في حياة والده والتي ساعدتني في هذه الرسالة ٠

(١٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٤٤ ٠

(٢٠) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ص ٨٦ ـ ٨٧ ٠

(٢١) محمد احمد الجابري : المرجع السابق ص ١١٨ ٠

(٢٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٤ ٠

(٢٣) محمد احمد الجابري : المرجع السابق ص ١١٧ ٠

(٢٤) سليمان خـــالد عبد المحمود : الفروســـية في الشـــعر الشـــعبي السوداني ص ٣٦ ـ ٤٠ ٠

(٢٥) محمود القباني : السودان المصري الانجليزي ص ٣١٦ ٠

(٢٦) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ص ٨٨ ٠

(٢٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢١٤ ـ ٢١٣ ٠

(٢٨) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٢٠٨ ـ ٢١١ ـ ٢١٢ ٠

(٢٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ، ٢١٨ ٠

❋ ❋ ❋

الخاتمة

ونتائج البحث

الخاتمـــــة

ونتـــائج البحـــث

بعد أن استعرضنا في سطور الفصـــول الخمسة الســابقة للرسالة الأصول الأولى لأسرة الزبير باشا رحمة منذ هجرتها من العراق فرارا من بطش المغول الى بلاد الشام ثم انتقالها الى مصر ، وما واجهته خلال هذه المراحل من مصاعب اتسمت بالقسوة والمرارة وخاصة في مصر عندما لم تجد ما كانت تعقد عليه الآمال ، فكان من نتيجتها وفاة الجد الأكبر الشيخ جموع بن غانم ، وورث الابن ويدعى جميع تركة أبيه المثقلة بالاموال ، الذى لم ينظر مترقبا تطور الاحداث بل عول على أن ينحدر مع أهله وعشيرته ومن اثر الانضمام اليه مع النيل نحو الجنوب والاستقرار على جانبى النيل الأبيض .

وقد تلا ذلك استعراض مفصل لحياة الزبير باشا منذ مولده بجزيرة واوسى الهادئة الخضراء فى السابع عشر من محرم سنة ١٢٤٦هـ الموافق الثامن من يوليه سنة ١٨٣١م ، ثم نشأته وتعلمه واشتغاله بالتجارة ، ثم سفره مع ابن عمه الى الجنوب ، والتحاقه بقافلة ابى عمورى ، ثم استقلاله بنفسه . وما أعقب ذلك من قيامه بسلسلة رحلاته الى بلاد قولو سنة ١٨٥٨م ، وبلاد النيام نيام فى سنة ١٨٥٩م ، ١٨٦٣م ، وبلاد الملك كريم سنة ١٨٦٢م ، ثم بلاد الملك

دوية سنة ١٨٦٤م وأخيرا بلاد عدوه شكو وابنه سيها سنة ١٨٦٥م وحروبه مع الملك تكمه وعدوه شكو ، ونجاحه في تكوين مملكة واسعة الاطراف مع جيش قوى في تلك المناطق لحماية ملكه وتجارته فكانت البداية لتاريخ حافل بالاحداث في حياته ٠

وقد امتد الحديث عن قصة صراع الزبير في منطقة بحر الغزال وشكا ودوره فيها الى مسألة اتهام الحكومة له بتهمة الاتجار في الرقيق ، واتخاذها ذريعة للقضاء على نفوذه وسلطانه بتلك المناطق بتوجيه حملة تحت قيادة شخص يدعى محمد البلالى ، الذى لم يكن مرغوبا فيه من قبل اهالى تلك المناطق أو الزبير نفسه لادعاءاته الكاذبة بملكية بعض الأرض في منطقة حفرة النحاس ، وخروجه عن الاهداف المحددة للحملة من قبـــل الحكومة ، والتى كان من نتيجتها وقوع الحرب بين الزبير وممثل الحكومة التى انتهت بمصرع محمد البلالى وتبرئة الزبير من تهمة عصيان الحكومة ، ثم قيامه بتقديم فروض الولاء والطاعة لها ٠

ولا يتوقف تاريخ الزبير عنـد مصـرع البلالى بـل يسوقنا للحديث عن مرحلة اخرى من مراحل صراعه وهو صراعه مع عرب الرزيقات ، بسبب نقضهم لاتفاقهم معه بخصوص طريق التجارة ثم اندلاع الحرب بين جيش الزبير وجيوش عرب الرزيقات ، و رغم حرج موقف الزبير في هذه الحرب بسبب استعمال الرزيقات للخيل في قتالهم ، فانه استطاع هزيمتهم قرب شــواطىء بحر الغزال والاستيلاء على عاصمتهم ، برغم رفض السلطان ابراهيم تقديم اى نوع من المساعدة له اثناء الحرب ، أو قيامه بتاديبهم ثم هـــرب مشايخهم منزل وعليان الى السلطان ، وقيامهم ببث بـذور الفتنـة والعداوة بينه وبين الزبير ، ثم قرار الحـــكومة الخديوية بتعيين الزبير حاكما على مديرية بحر الغزال وشكا بعد أن رأت فيه الرجل القوى التى يمكنها الاعتماد عليه في تنفيذ مخططاتها ٠

وتتوالى الاحداث ويتطور الصراع بين السلطان ابراهيم والزبير بسبب الرزيقات وينتقل من ميدان النصح والارشاد فى صورة الخطابات الى ميدان القتال ، وتراها الحكومة فرصة ثمينة لغزو سلطنة دارفور وادخالها ضمن ممتلكاتها ونفوذها فى السودان ، فتاخذ جانب تاييد الزبير فى هذا الصراع وتمد له يد العون والمساعدة ، بل انها ترى فيه الرجل الذى يمكن أن يحقق لها ما لم تستطع تحقيقه فى مرحلة من مراحل التاريخ من أهداف ، فيصدر الخديو اوامره لحكمدار السودان بتشكيل حملة عسكرية للزحف على دارفور من جهة الشرق يتولى هو قيادتها ، بينما يترك للزبير مهمة الزحف عليها من جهة الجنوب ، ويسوق الزبير جيوشه يفجر الموقف ، فتثور ثائرة السلطان لهذه التحرشات العسكرية ٠ فيحاول علاج الموقف عن طريق تقديم الهدايا والأموال لشريف مكة وحكومة الباب العالي ليتوسطا لدى الخديو لوقف نزيف هذه الحرب ولكن سفراءه يقعون أسرى فى أيدى رجال الحكومة ، فيبدأ فى مواجهة قدره بشجاعة ويعد للموقف عدته ، فيرسل الجيش تلو الاخر لجهة الجنوب لمقابلة الزبير وكسر شوكته فيلقاه الزبير فى كل مرة بشجاعة لم يعهدها السلطان فينتصر عليه وينتهى الأمر بمصرع القائد أو انسحابه ، ويسجل التاريخ انتصارات الزبير على عدوه ٠ يعزم السلطان رأيه على الخروج بنفسه لمقابلة هذا القائد الذى لا يعرف الهزيمة ، ولكن الاقدار كانت تكمن له نفس مصير من سبقوه ، فيلقى الهزيمة الساحقة عند بلدة منواشى على يد جيش الزبير وتنتهى المعركة بمصرعه فى الخامس والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٤م ٠

ويواصل جيش الزبير المظفر تقدمه نحو العاصمة الفاشر فيدخلها فى الثالث من نوفمبر سنة ١٨٧٤م منتصرا ، ويلحق به

جيش الحكمدار الى الفاشر فدخلها فى الحادى عشر من نوفمبر من نفس العام ، ولا وجه للمقارنة بين الدور الذى قام به جيش الزبير والدور الذى قامت به حملة الشرق بقيادة الحكمدار لأن الفرق بين الاثنين شاسع • وبذلك انطوت من التاريخ صفحة سلطنة دارفور وصارت من ممتلكات الحكومة الخديوية فى السودان •

ولا يتوقف دور الزبير التاريخى فى تشكيل احداث دارفور ، فيرى فيه الحكمدار اليد الطولى للبطولة بمن ثار من أقارب السلطان ضد الحكومة فينجح الزبير فى هذا الاختبار ويسوق هؤلاء الثائرين أسرى • ويطمع الحكمدار فى بسط سلطان الحكومة على أقاليم جديدة فيعهد للزبير بمهمة غزو برقو ووادای ، ولكن الخديو يأمره برفع يده فيفعل • والزبير فى كل هذا هو دائما القائد الظافر المنتصر الثاقب النظر والمنفذ لأوامر الحكومة الخديوية التى لم يتوان لحظة عن التفانى فى خدمتها •

ويرسل الخديو تهنئة للحكمدار والزبير على هذا الانتصار مع الانعام عليه بالرتب والنياشين وترى الحكومة فى وجود الزبير بعد أن ادى الدور المطلوب منه خطرا عليها ، فيحدث الشقاق والاختلاف بينه وبين الحكمدار حول مكانه فى ادارة المديرية الجديدة وأسلوب تنظيمها فيسافر الى القاهرة بعرض حقيقة الحالة على الخديو • فيرى الخديو افضلية بقائه فى مصر فيحزن لذلك الزبير ولكنه يكتم ذلك ويحاول ان يتلاءم مع طبيعة الحياة الجديدة فى القاهرة بعد ان تنكرت الحكومة له •

ويبرز الزبير بشخصيته وشجاعته كقائد عسكرى يقف وراءه النصر أينما ذهب عندما عهد له بقيادة الفرق المصرية المشتركة فى الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧م ، فيستقبله السلطان العثمانى

ويهنئه على شجاعته • ويقضى فترة نقاهة فى العاصمة التركية من عناء الحرب ويعود الى القاهرة مرفوع الرأس •

ويحيط به الواشون ويتلقى اتهاما ببث الفتنة ضد الخديو لدى السلطان العثمانى ، وتثبت الاحداث براءته من هذا الاتهام • ولكن الأقدار ارادت له أن يتلقى نبأ مصرع ابنه على يد رومولوجيسى بايعاز من جوردون والتنكيل بذويه وأهله ومصادرة أمواله ، بل يطلب جوردون من الخديو محاكمة الزبير ومصادرة أمواله فى مصر عقابا لما اقترفه ابنه ، ويجيب الخديو بأنه لا ينبغى ان يؤخذ الأب بجناية الابن •

وفجأة تشب ثورة المهدى فى السودان ، وتهب نارها فى كل مكان ، وتضيع كل هيبة وسلطة للحكومة ، وتخسر نفوذها تدريجيا عن مناطق كثيرة نتيجة ضغط جيوش المهدى وهزائم قواتها المتكررة ، وتشعر الحكومة بحاجتها لبد قوية تستعين بها لكبح جماح المهدى وأتباعه ففى البداية ترسل حملة تحشد لها امكانيات ضخمة ، وتعهد بقيادتها للجنرال هيكس باشا فتلقى الهزيمة المنكرة بكردفان ، ويحتاج الأمر لوقفة أخرى لوضع النقط فوق الحروف ، فترى الحكومة فى انقاذ سواكن وتأمين الطريق ما بينها وبين بربر والقضاء على عثمان دقنة ضرورة • فترسل حملة بقيادة مسيو جمويل بيكر ، وتعهد للزبير بقيادة الفرق السودانية المشتركة فى الحملة ، ولكنه عندما علم بأنه سوف يتلقى أوامره من بيكر رفض الاشتراك فيها فكان نصيبها الهزيمة الكاملة •

ويستدعى الخديو صديقه جوردون لإنقاذ الموقف فى السودان وينفذ سياسة الاخلاء بعد أن اجبرت الحكومة الانجليزية الحكومة المصرية على ذلك • ويأتى جوردون الى القاهرة بعد أن تلقى

تعليماته من حكومته ، ويستقبله الخديو ويعتذر له عما بدر منــه تجاهه ويزوده الخديو بالتعليمات والأوامر اللازمة بمهمته • ويطلب جوردون اصطحاب الزبير باشا الى السودان لكي يضمن نجـــاح مهمته ويتعجب السير ايفلين بارنج لهذا الطلب فيوافقه في بدايـة الأمر ويلتقي الرجلان مع عدد من ممثلي الحكومتين وتشتعل حدة المناقشة بين المجتمعين فالزبير لا ينسى ان جوردون هو الذي امر بقتل ابنه سليمان • ويخرج السير ايفلين بارنـــج بنتيجة مؤداها استحالة الجمع بين الرجلين في مكان واحد لأن في ذلك خطرا على حياة جوردون وفي نفس الوقت يصر جوردون على مطلبه بخصوص الزبيـــر •

ويسافر جوردون مع مساعده ستيوارت الى السودان ، وهو في كل بلد يمر به يرسل البرقية تلو الأخرى لبارنج في القاهرة يعيد فيها اقتراحه بارسال الزبير لأنه الشخص الوحيد الذي يمكن أن يواجه بشخصيته وقوة نفوذه سطوة المهدي وسيطرته وأسباب اخرى ، وتتبادل كل من القاهرة والخرطوم ولندن البرقيات حول هذا الاقتراح وهي تحمل في ظاهرها طابع المناقشة لهذا الاقتراح وفي مضمونها الرفض ويسوء الموقف في الخرطوم والحكومة الانجليزية مصرة على رفض الاقتراح ، وفي نفس الوقت ترفض حلولا اخرى يعرضها جوردون أو ستيورات او الحكومة المصرية • وينتهي الأمر باجتياح المهديين للخرطوم ومصرع جوردون وستيوارت • وقبل ذلك تفيق لندن من ثباتها وترسل حملة بقيادة ولسلي لانقاذ جوردون ولكنه يصل بعد فوات الأوان وتفقد مصر السودان بأكمله وسط اعتراضات جرانفيل وجلادستون وبارنج وسياسة حكومة لندن الملتوية •

وتخشى حكومة لندن قيام اتصالات من أي نوع بين الزبيـر والمهديين في السودان ، فيلقي عليه القبض وهو في الاسكندرية

ويحمل أسيرا الى جبل طارق • ويظل حبيسا فى منفاه الى أن تبدأ الأوضاع فى السودان • وتستعيد القوات الانجليزية والمصـرية السودان • فيسمح للزبير بالعودة الى القاهرة بعد أن أسر ظلما فى هذه الفترة •

ويعود الزبير باشا لممارسة حياته العادية فى القاهرة وتصرف له الحكومة المصرية ولأهله معاشا تعويضا له عما فقده وعن خدماته السابقة ويلتقى فى منزله كبار رجال الدولة من الحكام والعلماء والشعراء وتعقد مجالس العلم • ويشتد حنين الزبير لرؤية بلاده • فيسمح له بالسفر اليها • فيطمئن على أهله ومصالحه هناك ويقفل عائدا الى القاهرة ويحاول الفرنسيون الاتصـال بالزبير وهو فى القاهرة لعقد اتفاق معه لاجبار رابح على التسليم أو وقف حربه ضد الفرنسيين نظير أموال يدفعونها له • ولكن الزبير رفض خيانة رفيق كفاح قديم وينتهى أمل الفرنسيين بالفشل •

ويعود الزبير الى حياته العادية مرة أخرى • فيسـافر الى السودان مرة أخرى وكان بلغ من الكبر مبلغا • وتودعه القاهرة كلها على محطة السكك الحديدية تكريما لشخصه الكريم وتعبيرا عن تقدير الجماهير له • ولكنها كانت الرحلة الأخيرة التى لـم يعـد منها •

وفى صباح السادس من يناير سنة ١٩١٣م يطير الى القاهرة نبأ وفاة الزعيم السودانى الزبير باشا فيخرج لوداعه أعداؤه قبل أصدقائه ، وتودع الخرطوم بل العـالم العربى الزبير باشا الى مثواه الأخير فى الخرطوم • بعد حياة حافلة امتدت الى أكثر من اثنين وثمانين عاما • التقى فيها بالموت فى ساحات القتال وميادينه أكثر من مائة وخمسين مرة ولكنه يموت فى نهاية الأمر وهو على

فراشه • وهكذا انطوت صفحة مجيدة لأول شخصية سودانية فرضت نفسها على الأحداث وصنعت لبلادها الكثير من الأمجاد التى لن تنسى ابدا بل سيذكرها الشعب السودانى وشقيقه شعب مصر على الــــدوام •

وقد رثاه شاعر النيل حافظ ابراهيم كما نعاه الاهرام فى عدده الصادر بتاريخ يوم الاثنين ٦ يناير سنة ١٩١٣ بكلمات رثاء عبرت عن أعتزاز الشعب المصرى له •

وقد يتصور البعض أن الحديث عن شخصية تاريخية مثــــل الزبير باشا أو غيره بامكانية الاكتفاء بالرجوع الى ما كتب عنها بين صفحات المراجع التاريخية العربية والأجنبية ولكن أصول البحث العلمى والتاريخى تذهب الى ما هو أبعد من ذلك فيما يتصل بهذه الموضوعات وتفرض ضرورة الرجوع الى ماهو أهم من ذلك وهــى المصادر الأصلية المتصلة بموضوع البحث من وثائق وخلافه ان وجدت • وطبقا لذلك كانت الوثائق التاريخية هى المصدر الأول فى هذا البحث بهدف التحقق من صحة أو كذب ما تذكرته المصــــادر التاريخية المختلفة من حقائق او وقائع تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد ، وكذلك اثبات العديد من الحقائق والوقائع التى لم تثبتها هذه المصادر وصولا بالموضوع الى طريقه الصحيح الذى لا يقبــل الشــك •

وبعد هذا الجهد المتواضع من الدراسة التاريخية الوثائقيـــة لتاريخ حياة الزبير باشا رحمـــة والدور الذى لعبــه فى تاريــخ السودان • فانه يمكن القول بأن هذا الرجل قد تعرض فى خـــلال مراحل حياته وكفاحه للعديد من الاتهامات التى الصقت به من قبل الكثير من خصومه من السياسيين والعسكريين ظلما ، ولم يحاول

المؤرخون رغم وضوح الرؤية تفنيد هذه المزاعم أو هذه الاتهامات. سوى القليل منهم • لذلك جاءت هذه الدراسة لتفنيد هذه المزاعم والاتهامات ووضع الأمور في نصابها وبيان حقيقة ذلك من عدمه انصافا للحق واهله وسوف نعرض في ايجاز لنتائج هذه الدراسة :

اولا : نفى ما اتهم به الزبير من جانب الكثير من تهمة الاتجار في الرقيق • والدليل أن الزبير بدأ حياته تاجرا عاديا في السلع المشروعة . وعندما توجه الى الجنوب كان دافعه الى ذلك هو خوفه على ابن عمه ، وعندما اضطرته ظروفه الى أن يلتحق بالعمل لدى ابى عمورى التاجر لم يكن هناك مفر من ان يرسم لحياته خطا جديدا يتلاءم مع الظروف التي احاطت به ، فعمل في تجارة العاج وريش النعام وغير ذلك من موارد الجنوب • ولكن عندما بدأ يستقل بنفسه شعر وقتها بأنه يجب أن يضمن لنفسه وتجارته الحماية الكافية من مخاطر تلك المناطق لأن من ينظر الى الجنوب بقبائله واحراشه وغاباته وحيواناته يشفق على نفسه من أن يجتازه منفردا خشية الوقوع ضحية الاخطار التي تكمن في كل خطوة ، لذلك اصطحب التجار الذين ارتادوا هذه المناطق العديدة من الاتباع السود الذين استأجروهم او اشتروهم بغرض الحماية لأنفسهم وتجارتهم من هذه المخاطر ، وكذلك ليكونوا عونا في نقل ما يحملونه من بضائع وليتخذوا منهم مرشدين وأدلاء في رحلاتهم عبر هذه المناطق • ولم يكن قصد معظم التجار استرقاقهم • وهذا الذي فعله الزبير كغيره من التجار عندما قصد الجنوب بصحبة العديد من هؤلاء الاتباع ، كانوا له خير عون وكان لهم نعم الأخ والصديق • لأن الجنوب بحاصلاته وموارده مثل العاج وريش النعام وغيره كان متسعا لأن يتجر فيه من توافرت لديه الشجاعة والجرأة على المغامرة دون مهابة المخاطر دون أن يعير انتباها لسلعة اخرى كالرقيق مثلا وان وجد

فى هذه المناطق الكثير من التجار الذين تخصصوا فى تجارة الرقيق بالبيع والشراء ٠

كان الزبير يمتلك الكثير من الرقيق ، ولكن لم يتخذهم يوما من الأيام مادة لتجارته بل سلحهم بمختلف الأسلحة وكون منهم جيشا خاصا استطاع بفضله أن ينتصر به فى حروبه مع ملوك الجنوب ، وان يؤسس مملكة لنفسه ، وان يهزم بهم عرب الرزيقات ، وينتصر على محمد البلالى ٠ كذلك استطاع بهم فى نهاية الأمر فتح دارفور ٠ ولولا اخلاص الزبير وحسن معاملته لهم واعتزازه بهم ، ما تفانوا فى خدمته والانتصار له طوال هذه المعارك ٠ وهذا مايثبت براءة الزبير من هذه التهمة التي اتخذتها لندن بمثابة حجة لعدم موافقتها فيما بعدعلى اقتراح جوردون باستخدام الزبير فى السودان لمواجهة نفوذ المهدى ٠

ثانيا : كان من بين النتائج التى انتهيت اليها فى هذا البحث عدم وجود أي دليل يثبت على الزبير خيانته أو عصيانه للحكومة المصرية وتزعمه لتجار الرقيق ضدها . وما يثبت ذلك أنه عندما وصلت حملة محمد البلالى الى بحر الغزال لم يجد أمامه سوى الزبير الذى أحسن وفادته ، ومهد له الطريق لتنفيذ المهام التى كلف بها ، كما أمده بكل ما يحتاج اليه من المؤن والأموال ولكن بالرغم من كل ذلك حاول البلالى الخروج عن الأهداف المحددة لمهمته باللجوء الى وسائل الخداع والمكر واخيرا مهاجمة ممتلكات الزبير وعاصمته فكان لابد من مواجهة بين الاثنين انتهت بمصرع البلالى الذى كان سببا فى الصاق تهمة العصيان والتمرد بالزبير ولكن وفاة الزبير واخلاصه دفعه للاعتذار عن مصرع البلالى ، وتقديم فروض الطاعة والولاء لها . وتأكيدا لاخلاصه هذا قدم ما غنمه بمديرية بحر الغزال وشكا هدية للحكومة لتبعث بمن يتولى أمرها ويتفرغ هو

لتجارته واعترافا من جانب الحكومة بهذا الاخلاص تم تعيينه مديرا لهذه المديرية مع الانعام عليه بالرتب والنياشين ٠

وكمثل اخر لاخلاصه لحكومته قام باسم الحكومة بفتح سلطنة دارفور بجيشه الخاص وامواله دون ان يطلب مقابلا لذلك سوى الذخيرة والسلاح وتحمل فى هذا السبيل عبء التصدى لجيوش السلطان ابراهيم الكثيفة المتوالية والانتصار عليها المرة تلو الأخرى واخيرا التصدى لجيش السلطان ومصرعه فى معركة منواشى ٠

ويختبر الحكمدار اخلاصه فعهد له بمهمة القضاء على تمردات وثورات اقارب السلطان فينجح فى ذلك وتم تطويق هذه التمردات ٠ ويختلف الحكمدار معه فى نظام ادارة المديرية الجديدة ، وتراها الحكومة فرصة للتخلص من نفوذه ويحضر للتفاهم مع الخديو فى هذا الخصوص فيطلب منه افضلية بقائه فى القاهرة ٠ فيكتم احزانه وينفذ اوامر الخديو ٠

ويقدم اخلاصه لحكومته فى صورة اخرى عندما قاد احدى الفرق المصرية المشتركة مع القوات العثمانية فى حربها ضد روسيا والانتصار بهذه الفرقة على القوات الروسية مما جعل الســلطان يثنى على شجاعته ويهنئه على ذلك ٠

وبرغم مصرع ابنه سليمان على يد جيسى بايعاز من جوردون فانه لم يقدم على اى عمل من شأنه تلويث صفحته البيضاء مع الحكومة ٠ وبرغم مصادرة أمواله والتنكيل باهله وذويه فى السودان فان كل ذلك لم يزعزع اخلاصه وولاءه للحكومة ٠

وعندما طلب جوردون مرافقته معه الى السودان لمساعدته فى تنفيذ عملية الاخلاء لم يتوان عن اجابته لطلبه ولولا معارضة

حكومة لندن لذلك قام الزبير بانجاز الكثير وحقق ما لم يكن فى قدرة غيره تحقيقه •

وعندما طلب من الزبير تحرير خطاب توصية للقبائل المحاصرة للخرطوم مع رسل الحكومة لجوردون للسماح له بالخروج من الخرطوم اذا اراد ذلك فقام بتلبية طلب الحكومة ولكن جوردون رفض التخلى عن رجاله فى محنتهم •

وقد كانت مكافاته التى تلقاها فى مقابل اخلاصه هذا هو نفيه لمنطقة جبل طارق بمعرفة أعدائه من الانجليز • وهكذا احيطت حياة الزبير وشخصيته بالكثير من الاتهامات التى لم يكن لهـا أساس من الصحة والتى اثبت هذا البحث عدم واقعيتها •

ثالثا : وكنتيجة لهذا البحث فان الزبير قد اثبت بتاريخه الحافل بالاحداث انه صاحب عبقرية عسكرية رغم أنه لم يتلق من العلم سوى مبادئه الاولى ، ولم يلتحق باى اكاديمية عسكرى بل كانت هذه العبقرية وراء انتصاراته المتوالية فى بحر الغزال وشكا ودارفور وفى أسيا الصغرى • كما أنه اثبت انه الشخصية السودانية الوحيدة التى ظهرت عبر تاريخ السودان واثرت فى احداثه • وقد كان فى الامكان أن يمثل راسا مناهضا لزعامة المهدى لو أن حكومة لندن قد وافقت على اقتراح استخدامه فى السودان ولو فعلت ذلك لتغير مجرى الاحداث ولكنها مشيئة الله • وقد كانت لبساطة الزبير وطبيعته السمحة وايمانه العميق من الصفات التى جعلت منه هذه الشخصية التاريخية الفـذة •

وقد حاولت فى هذا البحث الالمام بجميع جوانب الموضـوع قدر الامكان حتى يخرج فى صورته التى يجب أن يكون عليها فقد زود البحث بصور النصوص الاصلية للوثائق غير المنشورة مع

ترجمة لهذه النصوص وكذلك زود بعدد من الصور الخاصة بالزبير باشا والشخصيات التي لعبت دورها على مسرح الاحداث اثناء حياته سواء في السودان أو مصر هذا غير ملاحق قوائم المراجع والوثائق وتقييم المراجع العربية والاجنبية ·

واخيرا اضيف ان النتائج التي توضحت ليست هي كل ما أردت الوصول اليه انما هي أمثلة فقط لأهم النتائج · كما أود ان اقول ان شخصية كشخصية الزبير باشا رحمة تستحق هذا الجهد الذي بذل من أجلها وما زال باب البحث العلمي والتاريخي مفتوحا لأي باحث لاضافة اى جديد من المعلومات او الحقائق عن الزبير باشا ·

وفقنا الله الى مافيه خير العلم والنفع له ·

قائمة بالتواريخ الميلادية والهجرية للأحداث والوقائع المهمة

م	الميلادى	الهجرى	الحدث
١	١٢٥٣ م	(فترة خلافة المعتصم بالله ١٢٥٦ م)	مغادرة جانكيز خان لبلاد المغول
٢	(١٢٠٨/١٢٤٢ م)	(١٢٥٨ م مهاجمة هولاكو لبغداد)	احتلال المغول لقلاع الحشاشين
٣	٣ سبتمبر ١٢٦٠م		موقعة عين جالوت
٤	١٢٥٧ م		تولى شجرة الدر الحكم في مصر
٥	١٨٢١ م		فتح محمد على للسودان
٦	٨ يوليو ١٨٣١ م	١٧ محرم ١٢٤٦ هـ	مولد الزبير باشا رحمة
٧	١٤ سبتمبر ١٩٥٦ م	١٤ محرم ١٢٧٣ هـ	رحلة الزبير لجنوب السودان
٨	١٨٥٦ م	١٢٧٣ هـ	وصول الزبير الى مشرع الرق ؟
٩	١٨٥٧ م	١٢٧٤ هـ	ثورة الاهالى الاولى أبو عمورى
١٠	١٥ اكتوبر ١٨٥٨ م	٧ ربيع اول ١٢٧٠ هـ	وصول الزبير فى رحلته الاولى الى الخرطوم

م	الميلادى	الهجرى	الحدث
١١	١٨٥٨ م	١٢٧٥ هـ	رحلةالزبير الى بلاد قولو
١٢	٢٤ اكتوبر ١٨٥٩ م	١٧ ربيع اول ١٢٧٦هـ	عودة الزبير من بلاد قولو الى الخرطوم
١٣	١٨٥٩ م	١٢٧٦ هـ	الزبير فى بلاد النيام نيام
١٤	١٨٦٢ م	١٢٧٨ هـ	الزبير فى بلاد الملك كريم
١٥	١٨ مارس ١٨٦٢ م	١٧ رمضان ١٢٨٧ هـ	رحيل الزبير على بلاد النيام نيام
١٦	١٩ يوليو ١٨٦٣ م	٢ صفر ١٢٨٠ هـ	وصول الزبير الى مشرع الرق
١٧	١١ سبتمبر ١٨٦٣ م	٢٧ ربيع الاول ١٢٨٠ هـ	وصوله الى الخرطوم من بلاد الملك كريم
١٨	٢٥ يوليو ١٨٦٤ م	٢ صفر ١٢٨٠ هـ	وصول الزبير وصحبه الى قرية شول ببلاد النيام نيام
١٩	٢٥ يوليو ١٨٦٤ م	٢٠ صفر ١٢٨٢ هـ	وصول الزبير الى النيام نيام نفسها
٢٠	٢٧ مايو ١٨٦٥ م	١ محرم ١٢٨٢ هـ	وصول الزبير الى بلاد الملك دويه (قولو)
٢١	أبريل ١٨٧١م	١ ربيع الاول ١٢٨٨ هـ	انتصار الزبير على محمد على

م	الميلادى	الهجرى	الحدث
٢١	١٨٧٢ م	١٢٨٩ هـ	محاربة ماريوه عم تكمه للزبير
٢٢	١٨٤٩ : ١٨٥٢ م		مدة حكم عباس الأول
٢٤	١٨٥٤ : ١٨٦٣ م		فترة حكم سعيد باشا
٢٥	١٨٦٣ : ١٨٧٩ م		فترة حكم اسماعيل باشا
٢٦	١٨٦٢ : ١٨٦٥ م		تولى موسى حمدى باشا حكمدارية السودان
٢٧	١٨٦٦ م		فرمان الوراثة الصلبية للخديوى اسماعيل
٢٨	١٨٤٣ : ١٨٤٥ م		فترة تولى احمد باشا المنكلى للحكمدارية فى السودان
٢٩	١٨٦٦ : ١٨٧١ م		فترة تولى جعفر مظهر باشا للحكمدارية بالسودان
٣٠	فبراير ١٨٧٢ م		قرار الحكومة المصرية باحتكار تجارة اقاليم النيل العليا
٣١	١٨٧٢ ـ ١٨٧٧ م		فترة تولى اسماعيل باشا أيوب للحكمدارية فى السودان

م	الميلادى	الهجرى	الحدث
٣٢	٢٠ فبراير ١٨٧٧ م	٤ صفر ١٢٩٤هـ	صدور فرمان بتعيين جوردون حكمدارا للسودان
٣٣	اغسطس ١٨٧٧ م		توقيع معاهدة الغاء تجارة الرقيق
٣٤	١٨٦٩ م		تحرك البلالى بحملته لاحتلال بحر الغزال ومقتله على يد الزبير ..
٣٥	مارس ١٨٦٦ م	شوال ١٢٨٢ هـ	بداية اتصال الزبير بمشايخ عرب الرزيقات
٣٦	٢٥ اغسطس ١٨٧٣ م	غرة رجب ١٢٩٠ هـ	هزيمة عرب الرزيقات ودخول الزبير شكا
٣٧	١٨٧٣ م	١٢٩٠ هـ	تعيين الزبير حاكما على بحر الغزال
٣٨	١٨٣٩ : ١٨٧٤ م		تولى السلطان حسين ابن الفضل الحكم بدارفور
٣٩	١٨٧٢ م	١٢٨٩ هـ	نشوب الحرب بين الزبير والسلطان تكمه ..
٤٠	١٨٧٣ م	١٢٩٠ هـ	اعادة فتح الطريق الى شكا ..

م	الميلادى	الهجرى	الحدث
٤١	١٨٧٣ م	١٢٩٠ هـ	تصدى القوات المصرية لقافلة من الرقيق .. قادمة من دارفور بسبب الغزو ..
٤٢	١٩ يونيو ١٨٧٤ م	٤ جمادى الاول ١٢٩١	المعركة بين الزبير والسلطان ابونا
٤٣	١٣ فبراير ١٨٤١ م		الفرمان الصادر من الباب العالى باعتبار سلطنة دارفور ضمن الاقاليم السودانية .
٤٤	٢٥ اغسطس ١٨٧٤ م		دخول الأمير حسب الله دارا (قلعة)
٤٥	١٦ اكتوبر ١٨٧٤ م		وصول السلطان ابراهيم الى دارا
٤٦	٦ سبتمبر ١٨٧٤ م	٢٤ رجب ١٢٩١ هـ	وصول الحكمدار على رأس الحملة الى محل يقال له دارفور العمار ..
٤٧	اكتوبر ١٨٧٤ م		احتلال اسماعيل باشا أيوب لبلدة أم شنقة .
٤٨	٢٥ اكتوبر١٨٧٤ م	١٤ رمضان ١٢٩١ هـ	معركة منواشى ـ مقتل السلطان ابراهيم ..

م	الميلادي	الهجري	الحدث
٤٩	٣ نوفمبر ١٨٧٤ م	٢٣ رمضان ١٢٩١ هـ	دخول الزبير العاصمة الفاشر ..
٥٠	١١ نوفمبر ١٨٧٤ م	أول شوال ١٢٩١ هـ	دخول الحكمدار الفاشر ..
٥١	١ اغسطس ١٨٧٥ م	غرة رجب ١٢٩٢ هـ	ابرق الزبير للخديوى برغبته فى الحضور الى القاهرة للتشاور
٥٢	١٩ اغسطس ١٨٧٥ م	١٩ رجب ١٢٩٢ هـ	موافقة الخديوى على حضور الزبير ..
٥٣	١٠ يونيو ١٨٧٥ م		وصول الزبير الى القاهرة ..
٥٤	١٨٧٧ م	١٢٩٤ هـ	الحرب الروسية ـ التركية واشتراك الزبير فيها ..
٥٥	١٨٧٩ م	١٢٩٦ هـ	ثورة سليمان الزبير ومقتله على يد رومولوجسى الايطالى .
٥٦	١٨٨٣ م	١٣٠١ هـ	قرار الحكومة المصرية بارسال حملة بقيادة سارتوريس الى سواكن واشراك الزبير فيها
٥٧	١٨٦٦ م		تنازل الباب العالى عن سواكن لمصر ..

م	الميلادى	الهجرى	الحدث
٥٨	١٧ فبراير ١٨٧٧ م		تعيين جوردون حاكما عاما على السودان ..
٥٩	يونيو ١٨٧٩ م		استدعاء جوردون من السودان
٦٠	١٨٧٩ — ١٨٨٢ م		تولى رؤوف باشا الحكمدارية خلفا لجوردون .
٦١	٧ يناير ١٨٨٢ م		استقالة وزارة شريف باشا
٦٢	١٠ يناير ١٨٨٤ م		تاليف وزارة نوبار باشا
٦٣	٢٥ يناير ١٨٨٤ م		لقاء الزبير وجوردون فى منزل السير ايفيلن بارنج ..
٦٤	٢٦ يناير ١٨٨٤ م		سفر جوردون مع ستيوارت الى الخرطوم .
٦٥	١٠ سبتمبر ١٨٨٤ م		مقتل ستيوارت وهو فى طريقه الى مصر
٦٦	٢٦ يناير ١٨٨٥ م		سقوط الخرطوم فى ايدى المهديين.
٦٧	٣ نوفمبر ١٨٨٤ م		وصول حملة الجنرال ولسلى الى دنقلة

م	الميلادى	الهجرى	الحدث
٦٨	٢١ يناير ١٨٨٥ م		تفتيش قصر الزبير بالقللى ..
٦٩	يوليو ١٨٨٥ م		نفى الزبير الى جبل طارق ..
٧٠	١٩٠٥ م		بنى الزبير لنفسه قصراً فى حلوان.
٧١	١٩٠٣ م		السماح للزبير بالسفر الى السودان
٧٢	١٩٠٠ م		اعاد كرومر للزبير ممتلكاته فى السودان
٧٣	يناير ١٩٠٥ م		زيارة الشيخ محمد عبده للسودان
٧٤	١٠ يونيو ١٨٧٥ م		تاريخ وصول الزبير لمصر لاول مرة
٧٥	١٠ اغسطس ١٩١٢ م		تاريخ رحلته الأخيرة للسودان
٧٦	اغسطس ١٨٨٧ م		عودته من منفاه بجبل طارق
٧٧	٦ يناير ١٩١٣ م		توفى الزبير باشا ..
٧٨	١٠ يوليو ــ ٢٨ اغسطس ١٨٧٣ م		فترة الحرب بين الزبير وعربه الرزيقات
٧٩	٢٧ فبراير ١٨٧٤ م	١١ محرم ١٢٩١ هـ	منح الزبير لقب بك وتولى امر مديرية بحر الغزال
٨٠	٣١ اغسطس ١٨٧٤ م		تاريخ المعركة الثانية مع الامير حسب الله
٨١	٨ سبتمبر ١٨٧٤ م		تاريخ المعركة الثالثة مع الامير حسب الله

الفهـــرس

الصفحة

تقـــديم ٥
المقـــدمة ٧
هوامش المقدمة ١٧

الفصل الأول :

(بداية ظهور الزبير رحمة في السودان) ٢١
تمهيـــد ٢٣
الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة في حياة الزبير ٢٨
الزبير يستقل بنفسه ٢٨
الزبير في بلاد قولو (١٢٧٥ هـ ــ ١٨٥٨ م) . . . ٣٠
الزبير في بلاد النيام نيام (١٢٧٦ هـ ــ ١٨٥٩ م) . ٣١
الزبير والملك كريم (١٢٧٨ هـ ــ ١٨٦٢ م) . . ٣٥
الزبير في بلاد النيام نيام ثانية (١٢٨٠ هـ ــ ١٨٦٣ م) ٣٩
الزبير في بلاد الملك دويه (١٢٨١ هـ ــ ١٨٦٤ م) ٤١
الزبير وعدوه شكو وابنه شيجا (١٢٨٢هـ ــ ١٨٦٥م) ٤٢
تجدد النزاع بين الزبير والسلطان تكمة . . . ٤٥
هوامش الفصل الأول ٥١

الصفحة

الفصل الثاني :

(الدور الذى لعبه الزبير فى بحر الغزال وشكا . ٥٥
موقف الحكومة المصرية من تجارة الرقيق فى السودان ٥٧
التفكير فى ضم بحر الغزال ٦٥
حملة البلالى ٦٧
أهداف حملة البلالى ٧١
بداية الصراع بين الزبير والبلالى ٧٢
المعركة الفاصلة ونهاية الصراع بين الزبير والبلالى
(١٢٨٦ هـ ـ ١٨٦٩ م) ٧٨
التحقيق فى مقتل البلالى ٨٢
قيام الزبير بتنظيم أمور مديرية بحر الغزال . . ٨٦
دور الزبير فى فتح شكا وتأديب عرب الرزيقات . ٨٧
اندلاع الحرب بين الزبير وعرب الرزيقات . . ٩١
الزبير وعبد الله التعايشى ٩٥
الزبير والشيخان منزل وعليان ٩٦
تعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا
(١٢٩٠ هـ ـ ١٨٧٣ م) ١٠٠
هوامش الفصل الثانى ١٠٢

الفصل الثالث :

(الدور الذى لعبه الزبير فى فتح دارفور) ١١١
أولا : الأسباب التى أدت لغزو سلطنة دارفور . . ١١٣
استطلاع أحوال سلطنة دارفور الداخلية ١١٧

الصفحة

ثانيا : أسباب النزاع الذى نشأ بين الزبير والسلطان ابراهيم ١١٨
١ ـــ الدوافع السياسية والعسكرية ١١٨
٢ ـــ الأسباب الاقتصادية ١٢٢
قيام الحرب بين الزبير والسلطان ومشاركة الحكومة فيهـــا ١٢٣
الاتصالات بين القاهرة والخرطوم ١٢٧
شكوى سلطان دارفور للخديو من حركات الزبير والحكمدار ١٣٠
موقعة الشرتاى أحمد نمر ١٣٩
موقعة الأمير حسب الله ١٤٠
المعركة الأولى ١٤١
المعركة الثانية ١٤٢
المعركة الثالثة ١٤٣
عوامل انتصار جيش الزبير وهزيمة جيش الأمير حسب الله ١٤٥
قيام السلطان ابراهيم بنفسه الى داره ١٤٨
دور حملة الشرق بقيادة الحكمدار ١٥٠
الاستيلاء على أم شنقة ١٥٢
اتهام اسماعيل باشا أيوب بتعمد الابطاء فى التقدم نحو الفاشر ١٥٤
موقعة منواشى (١٤ رمضان ١٢٩١ هـ ـــ ٢٥ اكتوبر ١٨٧٤ م) ١٥٦

الصفحة

دخول العاصمة الفاشر ١٥٩

الموازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق فى فتح دارفور ١٦٠

أولا : دور جيش الزبير ١٦٠

ثانيا : حملة الشرق بقيادة الحكمدار ١٦٠

غنائم الحرب ١٦١

تمرد الأمير حسب الله ١٦٢

ثورة الأمير بوشــــن ١٦٥

الزبير يتوغل بجيشه لجهة الغرب (برقو سواداى) ١٦٦

ترقية أزلبير والحكمدار . . . ١٦٨

مكان الزبير فى الادارة الجديدة ١٦٩

هوامش الفصل الثالث ١٨١

الفصل الرابع :

(الزبير وجوردون) ١٩٣

الدور الذى لعبه الزبير فى الحرب الروسية التركية (١٨٧٧ م — ١٢٩٤ هـ) ١٩٥

ثورة ســـليمان الزبير ومقتـــله على يد جسى (١٨٧٩ م — ١٢٩٦ هـ) ١٩٧

الأحداث التى اعقبت مقتل سليمان بن الزبير . . ٢٠٠

رفض الزبير باشا الاشتراك فى حملة سواكن . . ٢٠٢

الزبير وجوردون وحوادث الاخـــلاء ٢٠٥

اجتماع الزبير وجوردون فى القاهرة ٢١٣

اقتراح جوردون باعادة استخدام الزبير فى السودان ٢١٦

الصفحة

الفشل في شأن استخدام الزبير ٢٣٢
تطور الأحداث والنتائج التي ترتبت نتيجة عدم استخدام
الزبير ٢٤٠
حملة الجنرال ولسلي ٢٤٤
ما بين مؤيدي ومعارضي استخدام الزبير في السودان ٢٥٠
نفي الزبير باشا الى جبل طارق ٢٥٦
هوامش الفصل الرابع ٢٦٣

الفصل الخامس :

(الزبير رحمة في نهاية حياته) ٢٧١
تعويض الحكومة المصرية للزبير ماديا ٢٧٤
حياته في القاهرة واتصاله برجال الحكم وكبار العلماء ٢٧٦
اتصال الفرنسيين بالزبير في مصر ٢٨٠
السماح للزبير بالسفر الى السودان ٢٨٢
الشعر في حياة الزبير ٢٨٦
أولا : ما انشاه الزبير من شعر في حياته ٢٨٦
ثانيا : ما قاله الشعراء في مدح الزبير والاشادة به ٢٨٩
رحلة الزبير الاخيرة للسودان ٢٩٤
وفاة الزبير باشا وهو في السودان ٢٩٦
هوامش الفصل الخامس ٢٩٩
الخاتمة ونتائج البحث ٣٠١

صدر فى هذه السلسلة :

١ ــ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،
د٠ عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ــ علــى ماهــر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ــ ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ــ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة ،
د٠ محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ــ غارات اوروبا على الشواطيء المصرية فى العصور الوسطى ،
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ــ هؤلاء الرجال من مصر ، جـ ١ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ــ صــلاح الدين الأيوبى ،
د٠ عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ــ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ،
د٠ على بركات ، ١٩٨٧

٩ ــ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د٠ محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ــ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية :
محمــود فــوزى ، ١٩٨٧

١١ ــ مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ــ هدى شعراوى وعصر التنوير ،
د٠ نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية ،
د· عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية ،
د· سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامي ،
د· على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعي في مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) ،
د· حلمي أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني ،
د· محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية ،
د· على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د· أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى :
د· محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف في مصر ابان العصر العثماني ، ج ١ ،
د· توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ نظرات في تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصوف في مصر ابان العصر العثماني ، ج ٢ ـ امام التصوف في مصر : الشعراني ،
د· توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ــ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ــ ١٩٣٦) ،
د· نجـوى كامـل ، ١٩٨٩
٢٥ ــ المجتمع الاسـلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د· أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
٢٦ ــ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د· سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩
٢٧ ــ فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : ألفريد ج · بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩
٢٨ ــ فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تأليف : ألفريد ج · بتلر : ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩
٢٩ ــ مصر فى عصر الاخشيديين ،
د· سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
٣٠ ــ الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د· حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٠
٣١ ــ خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شـكرى القـاضى ، ١٩٨٩
٣٢ ــ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩
٣٣ ــ مصر وقضـايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضـاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د· خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
٣٤ ــ تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د· يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
٣٦ ـ المجتمع الاسلامي والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بروين : ترجمة : د. احمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠
٣٧ ـ الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى في العصر العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
٣٩ ـ قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجميعي ، ١٩٩٠
٤١ ـ محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
٤٣ ـ رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١
٤٥ ـ الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف احمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،
د. زبيـدة عطـا ، ١٩٩١

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ،
د. سـهير اسـكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ،
(أبحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافـة ، فى ابريـل ١٩٩١) أعدهـا للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحـالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ اربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ الحروب الصليبية ج ٢ ،
تاليف : وليم الصـورى ، ترجمـة وتعليق : د. حسـن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ المجتمـع الريفى فى عصر محمد على : دراسـة عن اقليم المنوفيـة ،
د. حلمى احمد شلبى فى ١٩٩٢

٥٧ ـ مصر الإسلامية وأهل الذمة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ احمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د. ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣

٥٩ ـ الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمصير الى التأميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣

٦١ ـ تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،
لمعي المطيعي ، ١٩٩٣

٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبد العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ ـ مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء : دراسة وثائقية ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩١٧) ،
د. سهام نصار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التي اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، في ابريل ١٩٩٣) ، اعدها للنشر : د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د٠ حسن حبشي ، ١٩٩٣

٦٩ ـ نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١)،
د٠ محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ـ اهل الذمة في الاسلام ،
تأليف : أ٠س٠ ترتون ، ترجمة وتعليق : د٠ حسن حبشي، ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ،
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ تاريخ جامعة القاهرة ،
د٠ رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ١ ، في العصر الفرعوني،
د٠ سمير يحي الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ اهل الذمة في مصر ، في العصر الفاطمي الأول ،
د٠ سلام شافعي محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال البريطانى) ،
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر اكتوبر ،
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،
احمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢) ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ - تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د· أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ - مذكرات اللورد كلين ، ج ١ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د· عبد الرزوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ - تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،
د· عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ - معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د· نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد : ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ - قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د· نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ج ٢ ،
د· سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ مصر وافريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(ابحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة)
اعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ هيكل والسياسة الإسبوعية ،
د. محمد سيد محمد

٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،
د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
أ.د. عبد العزيز صالح ، أ.د. جمال مختار ، أ. د. محمد ابراهيم بكر ، أ. د. ابراهيم نصحى ، أ. د. فاروق القاضى ، اعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم رمضان

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحميد كفافى ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير / جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢
د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ ــ رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره
د. علي بركات

١٠٤ ــ تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ ــ ١٩٥٢)
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ــ السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية ١٨٠٥ ــ ١٩٨٧ .
د. أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ــ الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن ، ج ٢
د. سليمان صالح

١٠٧ ــ الأصولية الاسلامية في العصر الحديث
تأليف فليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال

١٠٨ ــ مصر للمصريين ﺟ ٤
سليم خليل النقاش

١٠٩ ــ مصر للمصريين ﺟ ٥
سليم خليل النقاش

١١٠ ــ مصادرة الأملاك في الدولة الاسلامية (عصر سلاطين المماليك) ﺟ ١
د. البيومي اسماعيل الشربيني

١١١ ــ مصادرة الأملاك في الدولة الاسلامية (عصر سلاطين المماليك) ﺟ ٢
د. البيومي اسماعيل الشربيني

١١٢ ــ اسماعيل باشا صدقي
د. محمد محمد الجوادي

١١٣ ــ الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري)
د. اسماعيل عز الدين

رقم الايداع ١٩٩٧/٧٨٨٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 5299 — 4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

هذا الكتاب يتناول دور الزبير باشا في السودان في عصر الحكم المصرى، وهو ينقسم إلى خمسة فصول قدم لها المؤلف بمقدمة تحدث فيها عن الزبير باشا والأصول الأولى لأسرته حتى مولده في عام ١٨٣١ عندما كان السودان خاضعا للحكم المصرى.

وفي الفصل الأول، وهو بعنوان: «بداية ظهور الزبير رحمه في السودان» تحدث عن عمله بالتجارة، وذهابه إلى بلاد النيام نيام (النمام)، ومقابلته للملك كريم، ونزاعاته مع ملوك البلاد التي زارها. أما الفصل الثاني، فقد تحدث فيه عن الدور الذى لعبه الزبير باشا في بحر الغزال وبلاد شكا، وتعرض لموقف حكومة مصر من تجارة الرقيق في السودان. أما الفصل الثالث فقد تعرض فيه للدور الذى لعبه الزبير في فتح دارفور. كما تعرض لحملة الشرق بقيادة الحكمدار اسماعيل باشا أيوب، وموقعة منواش، ودخول العاصمة الفاشر. أما الفصل الرابع فهو بعنوان «الزبير ـ جوردون» فقد تحدث فيه عن الدور الذى لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية، ورفض الزبير الإشتراك في حملة سواكن كما تعرض لحوادث اخلاء السودان، وانتهى بنفى الزبير إلى جبل طارق سنة ١٨٨٥.

وقد اختتم الباحث دراسته بفصل خامس تناول فيه الزبير باشا وصحته في نهاية حياته.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب